

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

الأكاديمية الليبية

طرابلس — ليبيا

مدرسة العلوم الإنسانية

قسم الفلسفة والدراسات الإسلامية

رسالة مقدمة كجزء من متطلبات الحصول على الإجازة العالية (الماجستير) في قسم

الدراسات الإسلامية بعنوان:

الإسلام والعلمانية

"دراسة تحليلية مقارنة بين علمين معاصرين نموذجاً يمثل كل منهما اتجاه مخالف"

إعداد الطالبة: نجاح صالح يوسف محرز

إشراف الأستاذ الدكتور: أحمد محمد رحومة

الفصل الدراسي: خريف 2014 / 2015.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْيَوْمَ اكْتَلَفْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَانْتُمُ اثْمَمْتُمْ عَلَيَّكُمْ نِعَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾

صَدَقَ اللَّهُ الْعَظِيمَ

سورة المائدة الآية ﴿3﴾

الإهداء

إلى من دعاؤهم نوراً لي في الطريق إلى (أبي و أمي) أطال الله في
عمرهما.

إلى روح المرحوم زوجي رحمه الله و أحسن مثواه وعائلته الكريمة وفاءً
لحقهم.

لمن كان سندي ، لمن لم يعرفه الخوف يوماً ، لمن جاهد حياً لليبيا ،
وأحسبه شهيداً عند الله ، إلى روح المرحوم المجاهد البطل أخي (أشرف)
رحمه الله وأسكنه فسيح جناته.

إلى قرة عيني ، والشموع التي أنارت حياتي ورسمت الأمل في طريقي ،
أبنائي (باديس و محمد) حفظهما الله وجعلهما سنداً لي.

إلى من لا تحلو الدنيا إلا بهم ولا تكتمل الفرحة إلا معهم

إلى إخوتي عزوتي وأخواتي مشكاتي و أزواجهن أدام الله المحبة بيننا

إلى كل من أشعل شمعة تضيء دروب العلم

إليهم جميعاً أهدي جهدي المتواضع هذا راجياً الله الإطالة بأعمارهم

الشكر وتقدير

بعد شكر الله - تعالى - الذي وفقني لتحقيق هذا البحث لا يسعني إلا أن أتقدم بخالص الشكر وعظيم الإمتنان إلى الأستاذ الدكتور أحمد محمد أرحومة الذي تفضل بالإشراف على هذا العمل فكان بعلمه وحلمه خير معين لي في عملي فقد كان لتوجيهاته الأثر الواضح في إنجاز هذا الجهد فجزاه الله خيراً.

كما أتقدم بالشكر والتقدير والاحترام إلى أعضاء لجنة المناقشة كلاً من الدكتور محمد زغوان ، والدكتور جمعة الأحول على التفضل بقبول مناقشة هذه الرسالة لما سيكون لتوجيهاتهم وملاحظاتهم الأثر الكبير في إثراء هذا البحث و تصويبه .

والشكر موصول إلى أساتذة قسم الفلسفة والدراسات الإسلامية بمدرسة العلوم الإنسانية الذين كانوا سبباً في الوصول إلى هذه المرحلة.

ولا يفوتني أن أشكر كلا من مد لي يد العون والمساعدة في إنجاز هذا العمل فجزاهم الله خيراً جميعاً

الباحثة

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه ومن اتبع سبيله إلى يوم الدين .

تعيش المجتمعات العربية إشكاليات حقيقة تلقي بآثارها السلبية على تطور الفكر والفلسفة العربية المعاصرة، وفي مقدمة ذلك الضحالة الفكرية للأمة العربية، والبؤس الثقافي، والأزمة البنيوية العميقة التي تستحكم في هذه المجتمعات، كذلك الواقع السياسي الاجتماعي الثقافي الذي تنتفي فيه الحرية الفعلية تماماً وبخاصة في ظل ما يسمى بـ "الصحوة الإسلامية" التي يرتفع ويتواصل مدّها بأقدار متفاوتة في البلاد العربية الآن.

ناهيك عن تراجع الفكر النقدي، وصولاً إلى الحالة الظلامية الدينية السائدة التي تنكر التفكير والاجتهاد وإعمال العقل ممثلة بقوى الجمود والتعصب والانغلاق الديني، وانتشار الفن الساقط والمبتذل والهابط، وازدياد مظاهر الفساد والفوضى والبيروقراطية، والاختلال في القيم وتضخم حجم السلوكيات المنحرف، زد على ذلك الفقر والحرمان والأمية التي تتفشى وتزداد يوماً بعد يوم، في المقابل يوجد في الحياة الفكرية العربية أكثر من فلسفة وتيار فكري، منها ما يحمل راية العقلانية والعلم والديمقراطية، وهو فكر تنويري معاصر يمثلته محمد عابد الجابري¹ وبرهان غليون² وصادق جلال العظم³ وفؤاد زكريا⁴ وطيب تيزيني⁵ ونصر حامد أبو زيد⁶ وحسن حنفي⁷ بالإضافة أيضاً إلى الراحلين الشيخ خليل عبد

¹ محمد عابد الجابري (1936-....)، مفكر وفيلسوف عربي من المغرب، له 30 مؤلفاً في قضايا الفكر المعاصر، أبرزها "نقد العقل العربي" الذي تمت ترجمته إلى عدة لغات أوروبية وشرقية. كزمته اليونسكو لكونه، أحد أكبر المتخصصين في ابن رشد.

² برهان غليون (1945-.....)، هو مفكر فرنسي سوري أستاذ علم الاجتماع السياسي ومدير مركز دراسات الشرق المعاصر في جامعة السوربون بالعاصمة الفرنسية باريس، له العديد من المؤلفات، كان يعمل في مجال التدريس قبل أن يتم طرده من السلك التعليمي من قبل نظام الأسد.

³ صادق جلال العظم، دمشق (1934-....)، مفكر و أستاذ فخري بجامعة دمشق في الفلسفة الأوروبية الحديثة. كان أستاذاً زائراً في قسم دراسات الشرق الأدنى بجامعة برنستون، ماركسي حتى النخاع، ويُعرف عنه أنه مؤيد لحقوق الإنسان، يتهمه البعض بأنه ملحد وأعلن إحداه في كتابه نقد الخطاب الديني

⁴ فؤاد حسن زكريا، بورسعيد (1927 - 2010)، أكاديمي وأستاذ جامعي مصري متخصص في الفلسفة، صاحب مقال (العلمانية هي الحل) رداً على دعوة (الإسلام هو الحل)، وصاحب النظرية القائلة: إن الغزو الثقافي الغربي خرافة لا وجود لها، وأحد أبرز المعادين للمنهج السلفي ومنقديه، فقد سخر من الاتجاهات الإسلامية المعاصرة الملزمة بهذا المنهج، وادعى أنها بالتزامها به تُركز على التمسك بشكل الإسلام دون مضمون. ⁵ فيلسوف وباحث سوري ولد في مدينة حمص السورية عام 1934. وغادر إلى تركيا بعد أن أنهى دراسته الأولية ومنها إلى بريطانيا ثم إلى ألمانيا لينتهي دراسته للفلسفة فيها ويحصل أولاً على الدكتوراه في الفلسفة عام 1967 ثم الدكتوراه في العلوم الفلسفية عام 1973، صدر له أول كتاب له باللغة الألمانية عام 1972 بعنوان "تمهيد في الفلسفة العربية الوسيطة"، وله أكثر من عشرين مؤلفاً، قد جرى اختياره واحداً من مئة فيلسوف في العالم للقرن العشرين عام 1998، من قبل مؤسسة Concordia الفلسفية الألمانية الفرنسية.

⁶ مفكر مصري منحل، (1943-2010)، نشأ في أسرة ريفية بسيطة، أثارت كتاباته ضجة إعلامية في منتصف التسعينيات من القرن الماضي، طالب بالانتقال إلى مرحلة التحرر لا من سلطة النصوص القرآنية وحدها، بل من كل سلطة تعوق مسيرة الإنسان في عالمنا، قائلاً علينا أن نقوم بهذا الآن فوراً قبل أن يجرفنا الطوفان، أنهم بسبب أبحاثه العلمية بالارتداد والإلحاد، وحكمت المحكمة بالتفريق بينه وبين زوجته قسراً، على أساس "أنه لا يجوز للمرأة المسلمة الزواج من غير المسلم"، فحياة الزوجين باتت بعد ذلك في خطر أضر في نهاية المطاف إلى مغادرة مصر برفقة زوجته إلى هولندا ليعمل أستاذاً للدراسات الإسلامية بجامعة لايدن!

الكريم¹ ومحمود أمين العالم² وحسين مروة³ ومهدي عامل⁴ وسواهم، وتيار الفكر الليبرالي الوضعي ورائده في مصر المرحوم زكي نجيب محمود⁵، وتيار آخر يعبر عن اتجاه فلسفي متعصب يمثل الجماعات الإسلامية وحركة الأصولية الإسلامية السياسية، وهذه هي أبرز التيارات الفكرية في عالمنا المعاصر.

ولا ريب أن الفكر العربي المعاصر يفتقد النظرة العلمية الواضحة والتجربة العلمية المتنامية، والفكر التقدمي بتعدد اتجاهاته وتياراته يبدو اليوم بلا عمق استراتيجي، وأن الاغتراب والتسطح الفكريين والميوعة الفكرية هو بعض ما يتسم به الفكر العربي الحديث، إضافةً إلى سيادة للثوابت النصية الأصولية غير التاريخية، والرؤى اللاعقلانية والتعميمات المطلقة والإسقاطات الذاتية.

وإذا كانت الفلسفة هي النسق الفكري المكتمل المعبر عن رؤية إنسانية وفكرية شاملة لها خصوصيتها القومية وكقوة ناهضة في المجتمع، فهذا المعنى للفلسفة ليس لدينا فلاسفة وإنما مفكرون يعالجون قضايا المجتمع وقضايا الثقافة والفكر ومسائل العصر، وإنَّ إسهاماتهم الفكرية التي اخترقت حصون الردّة هي امتداد متطور للاجتهادات الفكرية النظرية وللتحركات السياسية والتفاعلات الاجتماعية طوال النصف الأول من القرن المنصرم في مختلف أرجاء الوطن العربي. وهذا الامتداد نجده بوجه خاص في فكر الشيخ علي عبد الرازق الذي كان امتداداً أكثر راديكالية لفكر المتنوّر والنهضوي البارز الشيخ الإمام محمد عبده (1849-1905)، والتي استأثرت جهوده الإصلاحية وآثاره بالكثير من الدراسات وطغى على معظمها الطابع التبجيلي، بالشكل الذي "أصبح محمد عبده بالنسبة لمصر والإسلام، نبي عهد

⁷ مفكر مصري، يعمل أستاذاً جامعياً. وهو واحد من أهم منظري تيار اليسار الإسلامي، وتيار علم الاستغراب، وأحد أهم المفكرين العرب المعاصرين من أصحاب المشروعات الفكرية العربية، وله شهرة عالمية بسبب أبحاثه ونظرياته المبتكرة، ترأس قسم الفلسفة في جامعة القاهرة وله عدد من المؤلفات في فكر الحضارة العربية الإسلامية، حاز على درجة الدكتوراه في الفلسفة من جامعة السوربون. وعمل مستشاراً علمياً في الأمم المتحدة بطوكيو خلال الفترة من (1985-1987). وهو نائب رئيس الجمعية الفلسفية العربية، والسكرتير العام للجمعية الفلسفية المصرية.¹ (1930)، اسوان 2002 (- القاهرة)، درس القانون في جامعة القاهرة تخرج فيها عام 1951 عمل كمحامي، وكان مؤيداً للفكر الإسلامي المستنير وهو من الذين دافعوا عن المفكر نصر حامد أبو زيد.

² مفكر يساري مصري (1922-2009)، أحد أقطاب حركة اليسار في مصر، درس الفلسفة في جامعة فؤاد الأول (جامعة القاهرة حالياً)، انتسب في شبابه للحزب الشيوعي المصري، عمل بعد تخرجه في الجامعة تحصيلياً على درجتي الماجستير والدكتوراه. وعمل في مجلة روز اليوسف، فصل من عمله في العام 1954 مع عدد من زملائه اليساريين والشيوعيين، وقد اعتقل مراراً في عهدي الرئيسين جمال عبد الناصر وأنور السادات، غادر إلى باريس في فترة حكم السادات حيث عمل مدرسا للفكر العربي المعاصر في جامعة باريس.

³ لبناني (1910-1987)، عضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي اللبناني سابقاً قيادي شيوعي بارز في لبنان والعالم العربي له العديد من المؤلفات ويعتبر أبرزها وأكثرها شهرة على الإطلاق كتاب النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية، الكتاب الذي أثار جدلاً كبيراً في وقته، ترأس تحرير مجلة الطريق الثقافية من العام 1966، اغتيل في منزله في ١٧ شباط عام 1987.

⁴ مهدي عامل واسمه حسن عبد الله حمدان، لبناني، (1936-1987)، تحصل على الدكتوراه في الفلسفة من جامعة ليون بفرنسا، دس مادة الفلسفة بدار المعلمين بقسنطينة (الجزائر)، ثم في ثانوية صيدا الرسمية للبنات (لبنان). انتقل بعدها إلى الجامعة اللبنانية معهد العلوم الاجتماعية كأستاذ متفرغ في مواد الفلسفة والسياسة والمنهجيات، كان عضواً "بارزاً" في اتحاد الكتاب اللبنانيين والمجلس الثقافي للبنان الجنوبي، ورابطة الأساتذة المتفرغين في الجامعة اللبنانية، انتسب إلى الحزب الشيوعي اللبناني عام 1960، وانتخب عضواً في اللجنة المركزية للحزب في المؤتمر الخامس عام 1987، في الثامن عشر من مايو عام 1987 اغتيل في أحد شوارع بيروت، من أقواله "لست مهزوماً ما دمت تقاوم". وعلى إثر اغتيال مهدي عامل أعلن يوم التاسع عشر من أيار من كل عام "يوم الانتصار لحرية الكلمة والبحث العلمي"

⁵ فيلسوف وأكاديمي وفيلسوف مصري، (1905-1993)، قد نجح في تقديم أعسر الأفكار على الفهم العقلي للقارئ العربي في عبارات أدبية مشرقة، استطاع بكتاباته أن يخرج الفلسفة من بطون الكتب وأروقة المعاهد والجامعات لتؤدي دورها في الحياة، وقد كان المدشن الأول لتيار الوضعية المنطقية في مصر والعالم العربي والإسلامي، في كتابه: المنطق الوضعي، وخرافة الميتافيزيقا، ونحو فلسفة علمية، وغيرها، كما كان صاحب أسلوب أدبي متماسك وأنيق يخلق صلة بين الوعي الفلسفي والذوق الأدبي.

جديد واعتبره بعض الدارسين أحد مؤسسي الإسلام الحديث.¹ وهو الذي كان يردد ويقول: "من كان يظن أن الإسلام هو أن تبقى المرأة محببة أو أن الإسلام بين جدران الأنهر واللى والعمائم، فإن الحضارة الحديثة ستقضي على دينه الذي يزعم، ومن كان يظن أن الإسلام دين الفكر الحر والحكم العادل والعلم الصحيح ودين الحرية والمساواة فإن الحضارة الحديثة تُهيء له المستقبل الباسم"²، كما نجد الاجتهاد المتطور في فكر طه حسين وعباس محمود العقاد وزكي نجيب محمود كامتداد لفكر أحمد لطفي السيد ومحمد عبده معاً، وأيضاً نجد امتداداً متطوراً للأصولية الإستقطابية في فكر رشيد رضا وحسن البناء، وامتداداً متطوراً للفكر العلمي والقومي في موجات واتجاهات وتحركات قومية ماركسية في أربعينات القرن الماضي، وبوجه خاص التيارات الفكرية ذات التوجه العقلاني النقدي .

كمثال لهذا الجدل الفكري فيمكننا أن نتناول موضوع العلمانية، هذا المفهوم الذي يعتبر من المواضيع التي عادت إلى النقاش بشكل كبير، وخاصة ثورات الربيع العربي. فالذي نعيشه الآن قد خلق قلقاً فكرياً ومعرفياً ودينياً، خاصة مع تصاعد عدد كبير من التيارات المختلفة التي ترغماً أحياناً أن ننتمى إلى أحدها. نحاول من خلال هذه الورقة العلمية المتواضعة تناول موضوع العلمانية من ناحية سوسيولوجية (علم-اجتماعية)، معرجين بذلك على الأوضاع الراهنة لبلدان الربيع العربي ونوع الصراع الفكري ما بين التيارات الإسلامية إذا صحت التسمية وتلك العلمانية أو حتى الليبرالية. محاولين تفسير هذا الصراع الفكري وبروزه على الساحة، ولكن قبل كل ذلك سوف نحاول سرد التطور التاريخي والفلسفي لهذا المفهوم الذي وصل بالبعض بوصفه ليس فكراً غريباً مستوردًا فحسب، بل ذهب الأمر أبعد من ذلك لدرجة أنه وُصف بالفكر الكافر.

إن الفكر المادي الحديث وما يحتويه من مذاهب مختلفة اعتقد من أبرز المشكلات المعاصرة التي تواجه الإسلام والفكر الإسلامي، فالعصر الحديث أحدث تغييراً هائلاً في الفكر الإنساني وظهرت المذاهب المادية الإلحادية الحديثة، وشغلت الأذهان وسيطرت على العالم كله بما فيه العالم الإسلامي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وما تلاه من القرن العشرين حتى الآن، وبهذا كان لابد أن ينهض المسلمون بتنهيز حركة لمواجهة هذا الفكر المادي وما يحتويه من مذاهب في شكله الجديد والإشكال الشديد هنا إنهم يواجهون مذاهب فكرية حديثة شملت كل نواحي الفكر والحياة ومن وراءها جهود ضخمة تدعمها لكي تحل محل

¹ أنشأ ليز آدمس. الإسلام والتجديد في مصر. ترجمة: عباس محمود، القاهرة، لجنة ترجمة دائرة المعارف الإسلامية، ص4.
² محمد عمار، الإسلام والعروبة والعلمانية، دار الوحدة، بيروت، 1981 م، ص 18.

الإسلام في عقائده وتشريعاته ولهذا كان لابد من تجديد علم الكلام الدفاع عن العقائد الإسلامية بالأدلة العقلية وإتباع منهج لا يعترض عليه الخصم .

ولأن كان علم الكلام مكون من شقين أساسيين هما الدفاع ضد المبتدعة في العقائد ، والدفاع ضد الملاحدة والكفرة، وإن كان الدفاع ضد المبتدعة في العقائد هم لا يمكننا الاستغناء عنه ، فإن الدفاع ضد الملاحدة هو الذي ينبغي أن يحتل الأهمية الكبرى في هذا العصر .

ذلك لأن الحرب الفكرية الآن ضد الإسلام عنيفة ويقصد من ورائها استئصال شوكته وإحلال أيديولوجيات أخرى محله بشتى الطرق والوسائل .

ومن ثم فإن الجهود يجب أن تتحد وتتضافر للوقوف أمام الخطر الزاحف على الإسلام فنحن الآن في موقف يمكن أن نتساءل فيه عن مستقبل الإسلام برمته هل يكون أو لا يكون ؟ فيجب أن ننحّي الخلافات الفرعية حتى ننتهي من المهمة التي اعتبرها الأساس ، وهي أن ندفع الخطر عن الإسلام بصفة أساسية .

وفي ظنّي أن أهم القضايا المطروحة بالنسبة للفكر المادي الحديث هي سماته العامة التي تجمع بين مذاهبه المختلفة ، وهي حصر الموجود في المحسوس، وحصر وسيلة المعرفة في الحواس، وإحلال العلم محل الدين في توجيه الإنسان أفراد وجماعات .

كما أعتقد أن المنهج الملائم لهذه القضايا هو إثبات إن الوجود لا ينحصر في المحسوس وإن وسيلة المعرفة لا تنحصر في الحواس، وإن العلم لا يمكن أن يحل محل الدين في توجيه الإنسان وإثبات فشله في هذه المهمة مستعيناً في ذلك بنتائج العلم ذاته، التي كانت ثمرت تطبيق المنهج العلمي القائم على التجربة والملاحظة لدى الماديين المحدثين جميعاً .

ويستخدم هذا المنهج في مناقشة الخصوم لنصل إلى نتيجتان هامتان أولاً بطلان القضايا الثلاثة بل بطلان الفكر المادي برمته ثانياً ضرورة الدين الإسلامي للإنسان .

ف نجد كثيرة، ومتنوعة تلك التحديات التي جوبه بها الإسلام والمسلمون وأوطانهم منذ ظهوره، وحتى العصر الذي نعيش فيه ومن هذه التحديات ما كان مصدرها الأعداء الخارجين ومنها مكانة صادرة من الداخل من البيئة والواقع يغذيها ويرعاها الأعداء الخارجون؟....

لقد كان المسلمون يجمعهم كتاب ربهم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وتجمعهم سنة رسوله صلى الله عليه وسلم كانوا أمة واحدة قوية وعزيزة ورائدة ولكن لما اتصلت هذه الأمة بالأمم

الأخرى ذات الأنماط الحضارية المختلفة فإن هذه الأمة قد تأثرت بكيد أعدائها من اليهود والنصارى وعبد الأوثان و الملاحدة، حتى أصبح المتأثرون بفكر أولئك الأعداء أمة داخل الأمة الإسلامية .

فمن حروب عصر صدر الإسلام ضد الدعوة والدعاء ... إلى التيارات أو المذاهب الفكرية المناهضة والتي كانت من أبشع وأعجب التحديات التي واجهت الإسلام والمسلمين في تاريخهم الطويل، وبهذا فإن القضية الدينية معروضة الآن بشدة وإلحاح مستهدفة من مخططات عدائية ، وإجراءات كيدية لم يشهد تاريخها لها من قبل مثيلاً، وبين يدي هذه القضية نتناول بالدراسة والنقد أحد أهم مذاهب البحث المعاصرة التي واجهت القضية الدينية بأكثر ما تواجه به من نقد وحيث وزيف وعداء باسم العلم وتحت مضلته وهي أربعة مذاهب :

1 (العلمانية .

2) مذهب داروين في التطور.

3) مذهب إميل دوركايم الاجتماعي .

4) مذهب فرويد النفسي.

وفي البداية نحاول أن نلقي الضوء على هذه المذاهب الأربعة من حيث طبيعتها والعلائق العامة بينها، وأهمية دراستها إلا أن العلمانية ستكون هي المستهدفة وهي موضوع الدراسة.

فمن حيث طبيعة هذه المذاهب نجد أنها جميعاً من تفاعلات البيئة الأوروبية في تاريخها المعاصر، ويمثل كل منها قاعدة تتأسس عليها نتائج مؤثرة في حركة الفكر، وفي نظم الحياة ، وفي وضع القضية الدينية فالعلمانية تطرح رؤية خاصة وفق أسس فكرية ، ومبادئ محددة، وتمثل هذه الرؤية معتقدات وبرامج تدور في فلكها حركة الحياة الإنسانية في جوانبها العلمية والفلسفية والواقعية على حد سواء ..

والعلمانية في جوهرها نزعة إنسانية ' تعمل على جعل الإنسان بطاقته العلمية والفكرية - مصدر النظم ، ومنتج القيم ، والمسئول مسؤولية كاملة عن سياسة سلوكه وحياته ومجتمعه ، دون اعتماد على مصدر خارجي وهو الدين ومقررات الوحي .

ومنطلق العلمانية هو منطلق نزعة الإنسانية¹ من تحريرية واستقلالية وعقلانية، وتجاوز
للاعتبارات الدينية في التفكير والتوجيه وبهذه المثابة تبدو العلمانية مذهباً في الفكر له وجهته الفلسفية
، ورؤيته الخاصة ، ونتائج العميقة الشاملة لكل وقائع الحياة ومواقعها ، والعلمانية على كافة محاورها
ومستوياتها تقدم تصورات عن كبريات قضايا الفلسفة² في مستواها المتسامح مع الدين تبدو فلسفة في
الإنسان والحياة ، وفي مستواها المتشدد تبدو فلسفة في الكون والإلهو الإنسان .

والواقع أن العلمانية هي الوعاء الذي يحتوي كل صيغ وأنظمة العلم والفكر الآن، ومن بينها
كافة الأنظمة الفلسفية ، الحديثة والمعاصرة على السواء أما المذاهب الثلاثة الأخرى فإنه يلاحظ عليها
مباشرة أنها تنتمي إلى علوم تجريبية، وإنسانية أخذت من المنهج التجريبي أي أنها في طبيعتها
جزئيات علمية أو جزئيات من علوم .

فمذهب (داروين) التطور هو جزئية من علم الإحياء، أو نظرية في علم "البيولوجيا"

فمذهب (دور كايم) ' هو جزئية داخل علم الاجتماع أو نظرية فيه .

ومذهب (فرويد) ' جزئيته من علم النفس ' أو نظرية منه ومعنى ذلك أنها مذاهب أو نظريات (علمية).
ولكنها مع كونها علمية ' فهي تطرح رؤى فكرية ' في جانب الإله والكون والإنسان والأخلاق وغيرها.
هذا عن طبيعة هذه المذاهب ' أما عن الأواصر و الروابط التي تجمع بينها .

فإن هذه المذاهب رغم اختلافها منهجياً ' إلا أنها ترتبط بأكثر من رابط ولها أهداف مشتركة³ ومن هذه
الروابط :-

أولاً - هي ذات منطلق علماني لأنها من جهة فكر بشري خالص، ومن جهة أخرى الاتدع نفسها تدنو
من الدين والفكر الديني و التصورات الدينية.

ثانياً - تعميق النظرة المادية فهذه المذاهب جميعاً تدور في فلك المادية بقوة فالعلمانية تركز نفسها في
الحياة الأرضية، ومذهب التطور فوق أنه يعتنق التفسير المادي للكون والحياة فهو يقر حيوانية الإنسان
صراحة.

¹ أحمد عبده حمود الجمل ، نضرات في الفلسفة الحديثة ، (القاهرة : دار الطباعة المحمدية) ص 82 ، 83 ط الأولى سنة 1991م

² مصدر سابق ص 82 ، 83 .

³ محمود عبدالحكيم عثمان ، الفكر المادي الحديث وموقف الإسلام منه (المنصورة : الدار الإسلامية لطباعة والنشر) ص 523 ، ط الخامسة
2004م

ومذهب فرويد ودور كايم ، فسرا الدين والأخلاق تفسيراً مادياً ونظراً إلى الإنسان على أنه حيوان شهواني وجعلا من علم النفس والاجتماع علمين مادييين علمانيين .

ثالثاً - دعم الإلحاد :

لن تجد مذهباً من هذه المذاهب الأربعة إلا وهو إلحاد معلناً أو مستتراً، فالعلمانية في أدنى مستوياتها تعزل الدين عن الحياة، والمذهب التطوري في أخصب فتراته وأخطرها لدى دارون يستبعد الدين من تفسير الكون والحياة ومذهب فرويد يجعل الدين وضعياً، ومذهب دوركايم ، يفسر الدين على انه ظاهرة اجتماعية وهكذا تبدو هذه المذاهب محشوا الحاد أو كفراً.

رابعاً - الترويج للأخلاق الوضعية : هذه المذاهب لا تقر إلا الأخلاق الوضعية¹ أخلاق المادة والإباحية والنفعية وتستتهين بالأخلاق الدينية.

خامساً : خدمة المخطط اليهودي :-

هذه المذاهب تنظر إلى اليهود على أنهم شعب الله المختار وهم أصحاب الدين والحق، فهم مؤهلون لسيادة الأمم وقيادتها وبهذا عملوا ما بوسعهم ومازالوا يعملون لتحقيق حكومة العالم أجمع² .

ومن خلال إلقاء الضوء على هذه المذاهب نجد أن هذه المذاهب الأربعة ومن خلال هذه الروابط؛ تعمل في جبهة إحراج الدين والأخلاق الدينية ، وتقليص ظلها إلى أقل مساحة ممكنة ويختص الإسلام بأوفر نصيب من ذلك، وبهذا نجد أن كلها تصب في نهر العلمانية، وتجاوز الدين، ودفع الحياة بعيداً عن سيطرته وتوجيهه.

من حيث ان العلمانية هي الإطار العام لهذه المذاهب ، والدارونية لها بصمات على المذهبيين الآخرين ، ومن ذلك غايتنا توخي وتحري الحقيقة ، والكشف عن الزيف ، بمنظار الإسلام الحق ، والله من وراء القصد.

إشكالية البحث

إنّ أغلب ما كتب حول هذا الفكر العلماني يصب بالأساس في نقد هذا المفهوم، وهذا ما جعلنا نتساءل لماذا هذا المفهوم بالضبط أثار ويثير هذا الجدل الفكري الدائر في الساحة الفكرية والسياسية

¹الفكر المادي الحديث، مرجع سابق ، ص 325

²مذاهب فكرية معاصرة ، محمد قطب (دار الشروق) ص 97 ، 98 ط الأولى 1983م

الإسلامية وخاصة العربية؟ هل بالفعل يشكل اعتناق هذا الفكر خطراً على الإسلام والأمة الإسلامية؟ وهل سيشكل بالفعل الفكر العلماني وتبنيه في الدول العربية الإسلامية خير سبيل للخروج من حالة التخلف وتجاوز كل الصراعات الطائفية والمذهبية من أجل التطور والتنمية المنشودة في كل المستويات؟

يعتبر مفهوم العلمانية من بين المفاهيم التي تمت معالجتها في دائرة الكتابات الفكرية والسياسية العربية منذ القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، ومن الملاحظ أن البحث عن العلمانية في الفكر العربي الحديث منذ الثمانيات من القرن المنصرم قد ازداد زيادة كبرى لم تشهدها أي فترة من فترات التاريخ العربي، حتى تلك الفترة من نهاية القرن التاسع عشر التي قام فيها الحوار الساخن والمثير بين مجموعة من رجال الدين والعلمانيين وعلى رأسهم الشيخ محمد عبده وفرح أنطون¹، ولعل السبب في ازدياد الاهتمام بخطاب العلمنة في فترة الثمانيات وما بعدها يعود بالدرجة الأولى إلى عدة أسباب منها:

- قيام الحركات الإسلامية المختلفة في نهاية الستينات وبداية السبعينيات وبتشجيع خاص من بعض الدول العربية التي لعبت دوراً كبيراً في دعم ونشر الفكر السلفي (الوهابي) في الكثير من الأقطار العربية الإسلامية، وأيضاً من بعض بل أغلب القادة العرب في تلك الفترة وخاصة منهم العسكر الذين أرادوا لهذه الجماعات والفرق أن تنشط لتقف في وجه الماركسية آنذاك.
- قيام الثورة الدينية الإيرانية ونهاية العهد الإمبراطوري في إيران في أواخر السبعينيات من القرن العشرين وما استتبع ذلك من أحداث وطموحات في إطار تصدير الثورة خارج إيران.
- ممارسة العنف السياسي من قبل الكثير من الجماعات الإسلامية في الأقطار العربية.
- تنامي الاتجاهات والدعوات السلفية وما ترتب عن ذلك من اشتداد الرقابة على الكتب الفكرية المعارضة بحسب الأنظمة الدكتاتورية. في مقابل تعالي العديد من الأصوات الصحفية والإعلامية التي تدعو إلى العودة إلى سيرة السلف الصالح.
- ربما نضيف أيضاً ما تعانيه المدارس الفكرية الأخرى من تخطيط وتناقض على المستوى السيكولوجي، والاجتماعي، والاقتصادي وفشلها الذريع في إيجاد خطط بديلة للنهوض بالمجتمع..

البناني(1874-1922)، من أعلام النهضة العلمانية العربية، هاجر من طرابلس لبنان إلى القاهرة عام 1897، اشتهر بدراساته عن حياة وفلسفة الفيلسوف العقلاني ابن رشد، متأثراً في ذلك بأعمال اللغوي والمؤرخ الفرنسي أرنست رينان، رحل إلى أمريكا سنة 1907، فأصدر مجلة وجريدة باسم "الجامعة" وعاد إلى مصر فشارك في تحرير عدة جرائد، وكتب عدة روايات تمثيلية، وعاود إصدار مجلته، فاستمر إلى أن توفي في القاهرة.

ومن هنا فقد كانت هذه الأحداث كلها توحى للمتتبع بأن المشهد الثقافي والسياسي والاقتصادي وكذلك الاجتماعي في العالم العربي في الثمانيات والتسعينيات كان مشهداً قاتماً يجر العالم العربي لمئات السنين إلى الوراء.

نتيجة لكل هذا جاءت الدعوة المضادة المتمثلة في تبني العلمانية التي استعادت أفكار المفكرين (المتحررين)، إذا جاز لنا القول في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين وأضافت عليها الجديد. والتي قادها في الأغلب أكاديميون في المهجر مثل : محمد أركون وعزيز العظمة وبرهان غليون وغيرهم، وأكاديميون ماركسيون في العالم العربي كفؤاد زكريا وإسلاميون منفتحون كحسن حنفي¹. كما قادها من ناحية أخرى أكاديميون مغاربة ككمال عبد اللطيف وعبد الله العروي ومحمد عابد الجابري.

ومن هنا كان الطرح العلماني في هذه الفترة كردة فعل طبيعية للمجتمعات العربية إزاء المشاريع السياسية الدينية المناقضة لمسار التاريخ العربي الحديث، ومن هنا كان أمر العلمانية وقراءتها لتاريخ العرب الحديث موضع مناقضة ومساءلة واسعتين، وللتدقيق فإن من بين هذا الكم الهائل من الأدبيات والبحوث والجدل حول مسألة العلمانية لا نجد إلا البعض القليل من المفكرين الذين استطاعوا أن ينفذوا إلى الحقيقة العلمية لمعنى العلمانية.

وتتلخص الإشكالية في السؤال التالي :

لماذا يرفض العلمانية ؟

- 1 – العلمانية ترفض الحكم بما أنزل الله : مع إقصاء الشرعية عن كافة مجالات الحياة والاستعاضة بالقوانين الوضعية التي وضعها البشر بل ربما ادعى بعضهم إن القوانين الراهنة ، ليس فيها ما يخالف تعاليم الإسلام وهم ينكرون وجود الله أصلاً.
- 2 – تحريف التاريخ الإسلامي وتزيينه مع تصور العصور الذهبية لحقبة الفتوح الإسلامية، بأنها عصور همجية تسودها الفوضى والمطامع المادية ، مع إحياء الحضارات القديمة .
- 3 – إفساد التعليم : وجعله ميداناً لنشر الفكر العلماني عن طريق بث الأفكار العلمانية في المناهج الدراسية بالمدارس والجامعات وتقليص المادة الدينية لأقصى حد ممكن كماً وكيفاً وزمناً.
- 4 – إذابة الفوارق بين الرسالة الصحيحة وهي الإسلام وبين الأديان الأخرى التي تعرضت للتحريف والتبديل وجعلوا " الوحدة الوطنية " هي أصل العلاقة الاجتماعية ، ولذا يرون الفصل بين الدولة والدين.

- 5 – نشر الإباحية والفوضى الأخلاقية: وتهديم بنيان الأسرة باعتبارها النواة الأولى في البنية الاجتماعية.

¹ وهذا ما تم مناقشته مع الدكتور حسن حنفي مباشرة في الفصل الثاني

6- تحجيم الدعوة الإسلامية : وذلك بتضييق الخناق على نشر الكتاب الإسلامي وإفساح المجال في وسائل الإعلام للعلمانيين الذين يخاطبون الناس بفكرهم الفاسد.

7 - إنكار فريضة الجهاد في سبيل الله تعالى : وما ترك قوم الجهاد في سبيل الله تعالى إلا ذلوا .

8 - الترويج للقوميات : حتى لا يكون الدين عاملاً من عوامل التجميع .

هدف البحث

مما سبق عرضه نستطيع أن نؤسس هدف هذه الدراسة النقدية على محاولة التعرف على هذا المفهوم وذلك من خلال محاولة استعراض بشيء من بياناً لمواضيع التالية مستخدمين بذلك المنهج التاريخي الوصفي :

أولاً : التعريف بالعلمانية .

ثانياً : معرفة أسباب نشأة وظهور العلمانية وأسباب انتشار هذه الفرقة في زمننا وانتشار داؤها .

ثالثاً : تبيان العلاقة بين الديانة النصرانية والعلمانية .

رابعاً : توضيح سبب نشأة العلمانية في الغرب لسببين :

أ - سبب ديني .

ب - سبب تاريخي .

خامساً : أسباب رفض العلمانية في كل مجالاته.

سادساً : تبيان موقف الإسلام من العلمانية .

سابعاً : إبراز العلمانية ما لها وما عليها .

أسباب اختيار الموضوع

إذا كان علي أن أختار مذهباً فكرياً ليكون موضوعاً لرسالتي ، فقد هداني الله لإختيار مذهب العلمانية وأثرته على غيره لأسباب منها :

1 - غموض المدلول لحقيقة هذا الاصطلاح الخادع بالنسبة لكثير من المثقفين فضلاً عن العامة ، بالرغم من الكساد الذي بدأت المذاهب الأخرى كالشيوعية والإشتراكية به بعد اكتشاف الجماهير

لحقيقتها، ما تزال أسهم العلمانية مرتفعة، سواء باسمها الصريح، أو تحت شعار الديمقراطية أو شعار (الدين لله والوطن للجميع) أو شعار (لا دين في السياسة ولا سياسة في الدين).

2 - التوافق بين ذات العلمانية بوصفها فكرة غربية واعية وبين موضوعها المتمثل في عزل الدين عن توجيه الحياة وهو ما يعاني منه الواقع الإسلامي المعاصر، فالعلمانية - موضوعياً موجودة في كل نواحي الحياة الإسلامية المعاصرة، وإن لم يكن لها وجود ذاتي متكامل، كما هو الحال في أوروبا هذا التوافق يجعل تقبلها - ذاتياً أمراً سهلاً ، ومن ثم يحتم على ذوي الاختصاص دراستها وكشف زيفها وإيضاح تعارضها مع المفهوم الصحيح للإسلام ومقتضيات (لا إله إلا الله) وقد عرفت منذ اللحظة الأولى أن مهمتي ليست ببسيرة وإن علي أن أخوض في ميادين بعيدة عن مجال دراستي الشرعية البحتة جاعلة كل قراءاتي في الفكر الغربي مثابة التمهيد فقط لما يجب أن أنهض به.

3 - رغبتني في الإستزادة من العلم والتعرف على رؤية ورسالة وأهداف هذا المذهب "العلمانية".

4 - أود أن أكشف عن الأسرار الخفية لهذا المذهب في عداوة للإسلام والمسلمين .

5 - رغبتني في خدمة العلم ونشره قدر المستطاع .

6 - إثراء المكتبة الإسلامية بمثل هذه الموضوعات التي تخدم الإسلام والمسلمين .

7 - الإطلاع على العلمانية في العصر الحديث والأساليب المتاحة لغرض المقارنة .

8 - إستكمال المتطلبات للحصول على الدرجة العلمية "الماجستير".

المنهج المتبع في الدراسة :

تعتقد الباحثة أن هذه الدراسة لهذا الموضوع تتطلب الآتي :

المنهج الوصفي التحليلي :-

وذلك لتحليل المصطلحات وإرجاعها إلى مصادرها في لغتها الأصلية ومن ثم بناء الأحكام والنتائج عليها .

المنهج التاريخي :-

تتبع تاريخ نشأة العلمانية وتطورها.

المنهج الإستنباطي :-

المبني على إستقراء القواعد التي تبنى عليها أحوال العقيدة " الأيديولوجية " والبناء عليها في النتائج والآراء.

كما تعتمد الباحثة منهج الدراسة النقدية المقارنة.

الدراسات السابقة لهذا البحث

حظيت هذه الدراسة باهتمام كبير من العلماء والباحثين، فوجدوا لها تفسيراً وتحليلاً واستنباطاً وتناولوا جوانبها المختلفة دون التعرض بمنهجية للآثار العدائية التي تبطنها العلمانية للإسلام والمسلمين ومن بين المؤلفات ما يلي :-

أولاً : الكتب

- 1 – تيخونوفا . تاتيانا : ساطع الحصري : رائد المنحي .
العلمانية في الفكر القومي العربي . ترجمة توفيق سلوم ، موسكو ، دار التقديم 1987 ف .
- 2 – الحولي ، سفر ابن عبد الرحمان : العلمانية : نشأتها وتطورها وآثارها في الحياة الإسلامية المعاصرة مكة المكرمة ، مركز البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي ، كلية الشريعة ، جامعة أم القرى 1403 هـ .
- 3 – الشريف ، محمد شاكِر : العلمانية وثمارها الخبيثة ، الرياض ، دار الوطن 1411 هـ - 1990 ف .

ثانياً : الأطروحات الجامعية :

- 1 – حنفي ، سهير عبد السلام : نظرية الدولة العلمانية بين الفلسفة والتطبيق ، الإسكندرية كلية الآداب قسم الفلسفة (1994) . ماجستير
2. – السديس ، محمد عبد العزيز : أثر العلمانية في التربية والتعليم في العالم الإسلامي ، مكة المكرمة : جامعة أم القرى ، كلية التربية (1406) هـ ماجستير .

ثالثاً : البحوث :

- 1 – أركون ، محمد : الإسلام والعلمانية ، الواقع (بيروت) (1981/4 ف) .
- 2 – الإسلام والعلمنة دراسات عربية (بيروت) (1986 ف) .
- 3 – (العلمانية واليهودية) الإنسان (باريس) (أغسطس 1992 ف) .

خطة البحث:

تم توزيع فصول البحث على النحو التالي:

مقدمة وهى تمثل العلمانية مذهباً فكرياً له جذوره وأصوله وامتداداته ومظاهره وآثاره.

وثلاثة فصول :

الفصل الأول: حول مصطلح العلمانية ويتضمن مبحثين:

المبحث الأول: مفهوم العلمانية لغة واصطلاحاً وتاريخاً

المبحث الثاني: أسباب ظهور العلمانية ونشأتها وآثارها.

الفصل الثاني: العلمانية في العالم الاسلامي ويتضمن مبحثين:

المبحث الأول: الجذور الأولى للعلمانية في الدولة الاسلامية.

المبحث الثاني: موقف الاسلام من العلمانية.

الفصل الثالث: مفهوم السلف والسلفية قديماً وحديثاً ويتضمن مبحثين:

المبحث الأول: الجذور التاريخية لمفهوم السلف والسلفية.

المبحث الثاني: السلفية المعاصرة (محمد الجليند نموذجاً)

وخاتمة تشمل نتائج البحث والتوصيات ووصف الرحلة العلمية وتنتهي بالمصادر والمراجع.

وما توفيقي إلا بالله

الفصل الأول

مصطلح العلمانية

المبحث الأول: مفهوم العلمانية لغة وإصطلاحاً وتاريخاً

المبحث الثاني: أسباب ظهور العلمانية ونشأتها وأثارها

المبحث الأول

مفهوم العلمانية لغة واصطلاحاً وتاريخياً

المطلب الأول : تعريف العلمانية لغة .

المطلب الثاني: مفهوم العلمانية اصطلاحاً .

المطلب الثالث :تطور مفهوم العلمانية تاريخياً .

المطلب الرابع : تعريفات لمفهوم العلمانية في العالم الغربي والعالم العربي

المطلب الخامس : مراحل العلمانية أو صورها .

المطلب الأول : العلمانية لغة

يعد مصطلح العلمانية من المصطلحات التي أثارت وتثير العديد من القضايا والإشكالات، ولعل أهم قضية تطرح على العلمانية ذاتها هي إشكالية تحديد أصل ومعنى هذا المفهوم، وما زال هذا المصطلح غير محدد المعالم والأبعاد، هذا بالإضافة إلى الالتباس الذي يرتبط بترجمة هذا المصطلح إلى العربية .

فيما لو رجعنا إلى الأسس الأولى في معاجمنا العربية المتقدمة فأنها تطلعنا منذ الوهلة الأولى كل المفردات الناتجة عن (علم) من العلم والعلم والعالم نقيض الجهل وتفصيلاته العديدة وهي :

علم الشيء نقله علما ، ومنها فتحنتين العلامة (وأعلم) المضار الثوب فهو معلم ، والثوب معلم ، أعلم الفارس جعله لنفسه علامة الشجعان ، والمعلم الأثر يستدل به على الطريق، والعالم الخلق وجمع العوالم، والعالمون، وأصناف الخلق، والعلامة سمة يعرف بها الشيء، ويقال العلماء والعلامة من معانيها، والعلامة الذرعة، والعولمة والعالم والصقر والباشق والحناء وغيرها¹، ولم يرد لفظ العلمانية في معاجم اللغة العربية القديمة وقد وردت في بعض المعاجم الحديثة ومنها:

1 – ما ورد في معجم بطرس البستاني ومنه : أن العلم الذي هو اليقين ، والذي يأتي بمعنى المعرفة أيضا وورد في المعجم المعلم البستاني أيضا : العلماني : العامي الذي ليس بأكليريكي² وكلمة كليريكي تعني قاساً ، كاهنا ومن يعمل على نفوذ الكنيسة في الدولة .

ويفهم عند أبوحيان التوحيدي (410هـ \ 1010م) أن العلم لا مفرد له كالأنام واشتقاقه والعلامة، وقال الرازي فخر الدين (606 هـ \ 1206م) في التفسير قوله تعالى (لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا)* انه يتناول الإنس والجن والملائكة، وأضاف أنه ورد في الكليات : بمعنى العلامة وما يستدل به إلى غير ذلك وفي المعجم العربي الحديث علماني : ما ليس كنيسيا ولا دينيا .

أما في المعجم الوسيط فوجدنا أن مصطلح العلمانية ينسب إلى العلم (بالفتح) التي تعني العلامة والأثر والفصل بين الأرضين، والشيء المنسوب الطريق يهتدى به، وسيد القوم والجبل والراية وجمعها أعلام (العلماني) نسبة إلى العلم بمعنى العالم وهو خلاف الدين أو الكهنوتي وهذا أيضا هو غير العلم فكان العلماني من العلامة التي ينسب إليها شيء يسمى (العلمانية) وصاحبه ليس هو من

1 ابن منظور . لسان العرب ، ج4 ، دار صادر ، بيروت 1955، ص 310
2 معجم المعلم بطرس البستاني والكيروس ، جماعة مكرسون لخدمة الكنيسة المسيحية كالمشامة والقساوسة ويقابلهم العلمانيون ويلاحظ أن المعلم بطرس البستاني لم يضع لفظ علمانية في مادة (ك ت ي) ولكنه وضعها في مادة (ع ل م)
*سورة الفرقان.آية(1)

رجال الدين أو الكهنوت يمكن أن يكون لاديني ولا كهوتي لكنه ليس علمياً¹ نعتقد أن الوقت ما زال مبكراً لجلاء المعنى كلياً أو لتحديد المفاهيم الدالة دون الرجوع إلى رحاب العلم واستنتاجاته المختلفة ، فالقول بعلمي :

أ – ما يستعمل في بناء العلم عادة، ونحو أوسع ما يتعلق وينتمي إلى العلم، منهج علمي، أو معرفة علمية.

ب – يطلق على منهج مؤكد يمكن الوقوف عليه وعلى حقيقته ، يحكم لها بأنها موطدة الأركان بأدلة صحيحة، وهو معنى مبالغ فيه وقليل جداً في اللسان المعاصر، وهو متداول في الانجليزية للدلالة على طابع معاكس.

ج – بمعنى خاص بالتعرض مع فلسفي أدبي أخلاقيالخ.

ما يختص بالعلم الطبيعي الاختياري والرياضيات ، ويطلق عقل علمي (علمية – روحية) بمعنى عام ومستحسن على روحية النظام والوضوح ، وعلى الحاجة الى التحقيق الدقيق والمضبوط بمعنى ضيق وقليل على عقلية هندسية أو طبية² كما أن المعلوماتية وعلومي مصطلحان مولودان لاستعمال بمعنى عام للدلالة على :

أ – أما فكرة أن العلم يعرف الأشياء كما هي ، ويحل المسائل الواقعية ويكفي لإشباع كل حاجات التعاقد البشرية .

ب – أو بأقل جدلية دلالة على أن العقل والمناهج العلمية تشمل كل ميادين الحياة العقلية والأخلاقية دون استثناء³ .

وجاء في معجم ألفاظ العقيدة أن العلمانية تأتي لمعاني منها : العالمية ، ومنها اللادينية ومنها فصل الدين عن الدولة وعن الحياة⁴ .

فمن الباحثين من يضبطها (علمانية) بكسر العين، ومن الباحثين من يضبطها بفتح العين، وهذا الاختلاف في الضبط يتبع الاختلاف في الأصل الذي جاءت منه .

¹المعجم الوسيط . مجمع اللغة العربية ، ج2 ، مطبعة مصر، 1961م ص 624

²عبدالكريم عبدالله بالقاسم . العلمانية حدود ومفاهيم ، مجلة الثقافة العربية ، مجلة تصدر عن مجلس الثقافة بليبيا ، العدد 34 _ أكتوبر 2003 م ص41- 42

³عبدالكريم عبدالله بالقاسم . العلمانية حدود ومفاهيم ، المرجع السابق . ص 42 .

⁴قنديل محمد قنديل ، الربانية الخاتمة والعلمانية (دار الطباعة المحمدية ، ط الاولى سنة 1989، ص94)

فعند الأولين : يكون لفظ (العلمانية) مصدر صناعياً وفيه ياء نسبة إلى العلم، وتاء التأنيث، وزيادة الألف والنون، كما في الروحانية والجسمانية، وذلك لتكثير المصطلحات العربية حتى تلبي الحاجة لترجمة المصطلحات الأوروبية الكثيرة ¹ .

أن لفظ العلمانية الغربي يشعر بأن العلمانية تعني رفع شعار العلم، ومن ثم فلا تعارض بينها وبين الإسلام بل أنها إحدى وسائل الإسلام وبعض أهدافه، كما يمكن إطلاق لفض العلم علي العلم بعينه، أو الجمع منها أن قلت مثلاً: تقدماً لمجتمع رهن بتقدم العلم وليست بطريقة تخصصية، وإن قلت أن العلم يراهن على كذا وكذا فأنها تنسب إلى ما يثبت به من علم الفلك أو الطب أو غيرها²، لذلك بدأ مفهوم العلوم بالتخصص في أحوال معينة، وبهذا عنت العلوم عند العرب النقلية والعقلية، (وهي المعني بها اليوم بإطلاق مجموعة إنسانية) بتطور هذه المعارف المؤيدة بالدلائل الحسية، وجملة النواميس التي اكتشفت لتعليل حوادث الطبيعة، تعليلاً مؤسساً علي النواميس والثابتة، وهي وان كانت تطلق مفردة إلا أنها تطلق أحياناً علي جمع من المعارف الإنسانية، وفي هذا يلحق بها التخصص (الفلك_الكيمياء_الطب وغيرها) أو على الجمع منها (علوم كونية ورياضة وإنسانية وغيرها) وقد كان العلم تخصيصاً معنوياً في هذه القرون الأخيرة فصار لا يطلق الا علي المعارف التي تقع تحت أحكام المشاعر، وتخضع لي امتحانها، فان قال قائل: العلم قال كذا أو قرر كذا، خرج من علم الدين لان علم الدين مدار المسائل فيه إعتقادية³ ويعتمد التسليم فيه علي مقررات لا تخضع في الواقع للامتحان او التجربة، ومن هنا نشأ التناقض بين العلم والدين، فالعلم لا يقبل مسألة إلا إذا أخضعها للتجربة والتمحيص، والدين يرفض التسليم بأمور غيبية يسندها للوحي وتعتري إلى الله سبحانه وتعالى، ويعلي سموها عن كل جدال، (ولذلك إتخذ الماديون في أوروبا هذا الأمر سلاحاً لمقاتلة الدينين، والنعي عليهم، ولم يأتي القرن التاسع عشر حتى كان أنصار الدين في ضعف مطلق أمام خصومهم، وظهرت المبادئ الدينية متذرعين بهذا السلاح لنكران الخالق والروح والخلود، لخروج هذه العقائد عن دائرة العلم لمفهومه التجريبي التطبيقي، وكان الماديون ظاهرين على خصومهم حتى ظهرت المباحث الروحانية 1846 ميلادي في أمريكا، تم انتقلت إلى أوروبا تم فيها تناول رجال العلم في كل المذاهب، وثبتت منها الإختبار والتجربة، وهي من ميزات العلم وأدواتها التطبيقية للعلم الطبيعي، ان

¹ جميل صليبا. المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، سنة 1971 ص 99

² عبد الكريم عبد الله بلقاسم. العلمانية حدود ومفاهيم، المرجع السابق، ص 44

³ فيصل عباس. موسوعة الفلاسفة، دار الفكر العربي، بيروت، سنة 1996، ص 170

الحياة تقوم بغير المادة وإنما وراء هذه الطبيعة المحسوسة روحانية أرقى منها، أسماها بعضهم عالم الأرواح وتوقف بعضهم عن ذلك، وأصبح علم الدين في أوروبا الآن مؤسس على القواعد نفسها التي تأسس عليه العلم الطبيعي .

والمعني بالدين هنا مطلق دين لا دين بعينه¹ وهكذا صارت العقائد الأولى لجميع الأديان مثل الروح والخلود والملي الأعلى يدخل في دائرة العلم .

(ان العلمانية ترجمة لكلمة انجليزية (سكيولاريزم Secularism) وهذا اشتقاق عن سيكيولارا وهي مرادفة هي ترجمة للكلمة الانجليزية ريلجس أي ديني أو غير عقيدي)² ويقول محمد قطب: (أن العلمانية هي الترجمة لكلمة الأوروبية وهي ترجمة مضللة لأنها توحي بان لها صلة بالعلم، بينما هي في لغتها الأصلية لا صلة لها بالعلم³ ويتضح ذلك مما تورده دوائر المعارف الأجنبية للكلمة ، تقول دائرة المعارف البريطانية: (هي حركة اجتماعية تهدف إلى صرف الناس عن الاهتمام بالآخرة إلى الاهتمام بالحياة الدنيا وحدها) ولعلي المعني الصحيح لترجم كلمة العلمانية (هي اللادينية او (الدنيوية).وتقول دائرة المعارف الأمريكية " الدنيوية هي:نظام أخلاقي أسس على مبادئ الأخلاق الطبيعية ومستقل عن الديانات السماوية أو القوي الخارقة للطبيعة⁴ كما أن أول من ترجم اللفظ الأجنبي إلى اللغة العربية بلفظ العلمانية هو (لويس بقطر)، وقد هدف هذا المترجم بلفظ العلمانية: النسبة إلى العالم، بمعني الدنيا، وليس إلى العلم، تم وقع اختصار مقطع عالم في علم، وهو يعني العالم أيضا⁵ ولكن هذه الترجمة لم تخل من الالتباس منذ البداية، إذا غلب علي ظن الكثيرين أن العلمانية منسوبة إلى العلم، و بنوا على ذلك أن التقابل بين الإسلام وبين العلمانية هو في الأساس تقابل بين الدين والعلم، ومن التعريفات المعجمية التي تتعلق بمصطلح العلمانية ما أورده الدكتور حنا رزق في معجم حديث إذا قال :العلمانية ظاهرة فكرية تدعو الي التحرر من قيود الكنيسة، والاهتداء نحو التجديد والإصلاح، والسعي وراء نظم سليمة، وصياغة القيم الإنسانية صياغة صحيحة⁶.

عند البحث عن مدلولات كلمة العالم في كتب الفقه وأصوله، وفي كتب التفسير، وكتب اللغة، ومنها المعاجم اللغوية، لا نكاد نجد دلالة لكلمة العالم تتفق مع دلالة العلمانية، كما تدور في دوائر

¹ علي محمد جريش -محمد شرف الزنبق. أساليب الغزو للفكر للعالم الإسلامي، دار الاعتصام للطباعة والنشر، ص 9

² محمد قطب مذاهب فكرية معاصرة، دار الشرق، بيروت، ط 2، 1407 هـ - 1987 م، ص 445

³ انظر قاموس المورد لمنير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، 1911

⁴ انظر الاتجاهات الفكرية المعاصرة. د علي جريشة/نقلا عن المجلد 24 ص 85

⁵ محمد الكتاني. جدل العقل والنقل في مناهج التفكير الإسلامي، ج2-دار الثقافة، الدار البيضاء

⁶ نخبة من الاساتذة المصريين والعرب المتخصصين: معجم العلوم الاجتماعية، تصدير ومراجعة: ابراهيم بيومي مذكور، الهيئة المصرية للكتاب

1975م هـ 524

المتفقيين المعاصرين⁷ ولقد عرض المفسرون لمعني كلمة عالم في تفسير قوله تعالى: (الحمد لله رب العالمين" وفي مقدمة هؤلاء الطبري حيث قال: والعالمون جمع عالم، والعالم جمع لا واحد له من لفظه⁸

كما دار ابن منظور في لسان العرب حول المعني نفسه فقال: معلم الطريق دلالتة، ومعلم كل شيء مظنته، وكله راجع إلى الوسم والعلم . الأثر يستدل به على الطريق، وجمعه العالم، والعالمون أصناف الخلق، والعالم الخلق كله، وقيل: هو ما إحتواه بظن الفلك¹ والإمام الشافعي رضي الله عنه، أول من استعمل كلمة العالم ليدل بها علي ما سوى الله جل ثناؤه، فقال: "واعلموا أن العالم اسم لجميع ماسوى الله، أي أن العالم اسم لكل ماوجوده ليس في ذاته"².

أن مصطلح العلمانية كان في نشأته ذو مدلول يتطور في البلاد العربية حتى غدا مفهوم ذو صبغة سياسية، "واشتق بعضهم من لفظها فعل علمن الذي انتشر في جميع الأقطار العربية، ثم أصبح في بعضها معزفا يحلو لبعض المتفقيين الغزف علي أوثاره، وكل هذا كان عاملا في انتشار لفظ الكلمة بضبط خاطئ لا مبرر له البتة ؛³ ، وبهذا تكون العلمانية تعني الديني، أي الديني، المقابل الآخرة.

ولعل هذا المعني هو الذي يشهد له أصل الكلمة في اللغات الأوربية . من حيث ينصرف إلى ما هو لا ديني، أو غير عقيدي.

وترى الباحثة أن هذا الخلاف في ضبط الكلمة وفي الأصل الذي تنسب إليه في اللغة العربية ، لا يعد ان يكون خلاف لفظيا ، لأكثر.

وفي ضوء ذلك تبدو العلمانية سواء فتحت اللام أم كسرت ، هي النظام البشري البديل عن الدين، وقوامه للعقلية الفاعلية الإنسانية والفكر البشري ، هذا عن الوضع اللغوي لمصطلح العلمانية.

⁷ السيد احمد مرج، جذور العلمانية، دار الوفاء للطبع والنشر ، المنصورة ، ط 5 ، 1413 هـ - 1993 م ، ص 130
⁸ ابن جرير الطبري، تفسيره ، تحقيق: محمود محمد شاكر، مراجعة: احمد محمد شاكر، دار المعارف القاهرة، 1969م ص 143

¹ ابن منظور. لسان العرب، المرجع السابق، ص 384

² ابو عبد الله محمد بن ادريس الشافعي. الفقه الاكبر، اعداد: محمود فرغلي، 1406 هـ ، ص 9

³ سفر الحوالي. وباء العلمانية، مكتبة السبيل: مكتبة منارة العلماء، القاهرة دت، ص 35

المطلب الثاني : مفهوم العلمانية اصطلاحاً

(العلمانية) ذلك المصطلح الذي أثار من الجدل والصراع مند فجر النهضة ما لم يثره مصطلح آخر.

ففي المعجم الفكري و السياسي العربي عدة مصطلحات مثل "الاستنارة " و "التحديث" و " العولمة " شاع استخدامها وانقسم الناس بخصوصها بين مؤيد ومعارض ولعل اكثر المصطلحات شيوعا واثارة للفرقة مصطلح "العلمانية" الذي يتم الحوار أو الشجار بخصوصه بحدة واضحة تعطي الانطباع بأن هذا المصطلح محدد المعاني والأبعاد .

استخدم مصطلح العلمانية وهو ترجمة لكلمة " سكيولار لأول مرة مع نهاية حرب الثلاثين عاماً سنة "1648" في بداية ظهور الدولة القومية الحديثة، وهو التاريخ الذي يعتمده كثير من المؤرخين بداية مولد الظاهرة العلمانية في الغرب¹ أي الدولة العلمانية مشيرة الي علمنة ممتلكات الكنيسة بمعنى نقلها إلى سلطات غير دينية ،أي لسلطة الدولة المدنية في أوروبا .

تم اتسع المجال الدلالي للكلمة علي يد (جون هولويوك 1906م) الذي عرف العلمانية بأنها : (الإيمان بإمكانية إصلاح حال الإنسان من خلال الطرق المادية دون التصدي لقضية الإمام سواء بالقبول أو الرفض)² لقد ضلت كلمة العلمانية تظهر وتحتفي وان كانت وضعت موضع الأساس لكل أهداف التغريب والغزو الثقافي في فترة طويلة ، ظهرت أثارها في مختلف الدعوات التي حمل لواءها دعاة الإستشراق والتبشير، ومن تابعهم من قادة الفكر التغريبي. يقول المستشرق أربري في كتابه –الدين في الشرق الأوسط عن العلمانية : " أن المادية العلمية والإنسانية والمذهب الطبيعي والوضعي كلها أشكال لا دينية، واللا دينية صفة مميزة لأوروبا وأمريكا مع أن مظاهرها موجودة في الشرق الأوسط، فإنها لم تتخذ أي صبغة فلسفية و أدبية محددة " ³ والنموذج الرئيسي لها حسب هذا هو : فصل الدين عن الدولة ، كما حصل في الجمهورية التركية.

¹ عبد الوهاب المسيري –عزيز العظمة ، العلمانية تحت المجهر (دار الفكر المعاصر ، بيروت سنة 2000م ص 12)

² عبد الكريم عبد الله بن القاسم. العلمانية حدود ومفاهيم ، المرجع السابق. ص 46

³ سفر الحوالي . وباء العلمانية ، المرجع السابق، ص 13.

تقول دائرة المعارف البريطانية في تعريف كلمة "سيكوليرا" هي حركة اجتماعية تهدف الى صرف الناس عن الاهتمام بالآخرة إلى الاهتمام بالحياة الدنيا وحدها ذلك أن كان لدى الناس في العصور الوسطى رغبة شديدة في العزوف عن الحياة الدنيا وتأمل في الله ويوم الآخرة¹.

حيث بدأ الناس في عصر النهضة يظهرون تعلقهم الشديد بالانجازات الثقافية والبشرية وإمكانية تحقيق طموحاتهم في الحياة وضل الاتجاه إلى سيكولوجية يتطور باستمرار خلال التاريخ الحديث كله باعتبارها حركة مضادة لدين² ومضادة للمسيحية وبذلك فإن العلمانية ساعية نحو إقامة الحياة على غير الدين بالعمل على تحقيق الفصل التام بين الحياة والدين مفهوم سيكولوجية بين ماتلقته من ضروب التأثيرات الأوروبية ، وكان ذلك في أوائل القرن التاسع عشر ميلادي ويظهر هذا المصطلح الجديد (صادف قبولاً في أذواق المثقفين في العالم العربي ولا سيما حين تغلغل الاستعمار وحاول بكل قوته ضرب المفاهيم الإسلامية التي تدعوا إلى الجهاد ضد الغزاة المحتلين، والتي توحد الأمة تحت الراية الإسلامية ، فكانت الدعوة إلى أبعاد الدين عن السلطة، والدين هنا هو الإسلام ،ذلك بدعوة أن الدين هو التخلف وأن الإيمان ضد الارتقاء والمدنية، وأن السبيل إلى الحضارة هي العلمانية أي الانتماء إلى العالم والى نظامه الوصفي)³.

وهذا يعني محاولة إلغاء مقاومة الإحتلال الغربي كواجب ديني، وانظم إلى هذه الدعوة مجموعة من المفكرين المسلمين من بينهم (جمال الدين الأفغاني) الذي دعا إلى إلغاء العنصر الديني، وإبقاء العنصر الزمني الأرضي ، وهناك تعارض حتمي بين الدين المستمد من الله وبين النظام الزمني الذي وضعه البشر فكان لقب الدهرية مناسباً لمفهوم سيكولوجية في تلك المرحلة، ويبدو استعمال مصطلح الدهرية في مقابل سيكولوجية لم يكن مقبولا نظرا إلى ازدواج دلالاته⁴ فهو يدل على الاتجاه القديم الذي عبر عنه القرآن على السنة أهل الجاهلية : في قوله تعالى : (وقالوا إنما هي حياتنا الدنية نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر)*.

إن العلمانية تيار وضعي يتركز حول الحياة الدنية و الاحتفال بها و (اللا دينية هي اقرب ترجمة تودي المقصود من الكلمة عند أصحابها نبد الدين و إقصاؤه عن الحياة العلمانية وهو لب العلمانية"⁵ .

¹ أحمد عبده حمود الجمل . الفكر المعاصر من المنظور الإسلامي ، دار الطباعة المحمدية _ الأزهر 1991 ص 37* القرن الخامس عشر والسادس عشر

² نقلا عن مذاهب فكرية معاصرة ، ص 445

³ جوزيف مغيازل . العروبة والعلمانية ، دار النشر بيروت ، 1980 ، ص 4

⁴ جوزيف مغيازل . العروبة والعلمانية ، مرجع سابق ص 44

* سورة الجاثية: آية 24:

⁵ مذاهب فكرية معاصرة ، مرجع سابق ص 446

والتعبير الشائع عن العلمانية في الأبحاث الإسلامية المعاصرة هو "فصل الدين عن الدولة" وهو في الحقيقة لا يعطي المدلول الكامل للعلمانية الذي ينطبق على الأفراد وعلى السلوك الذي لا يكون له صلة بالدولة، ولو قيل أنها "فصل الدين عن الحياة" لكان أصوب¹، ولذلك فإن المدلول الصحيح للعلمانية "هو إقامة الحياة على غير الدين سواء بالنسبة للدولة أو الأفراد² وبهذا فإن مصطلح اللادينية هو أقرب الألفاظ في الدلالة على معنى العلمانية، لأنه يفيد الفصل بين الدين والدنيا فضلا عن أنه يسد الطرق على العلمانية في محاولتهم إلباس العلمانية ثوب الإسلام³ وبهذا تتراي العلمانية وكأنها الحل الأمثل لمعضلة الصراع بين الدين والعلم، التي أطلت بحدة منذ عصر النهضة الأوروبية، كما نلاحظ هناك اختلافات بين الدولة والأفراد في الموقف من الدين في مفهومها الضيق والمحدود، فبعضها تسمح به كالمجتمعات الليبرالية وتسمي منهجها العلمانية المتطرفة أي المضادة للدين ويعنون بها المجتمعات الشيوعية ومشاكلها، وبديهي بالنسبة للإسلام لا فرق بين الإسمين، فكل ما ليس دينيا من المبادئ والتطبيقات هو في الحقيقة مضاد للدين، فالإسلام واللا دينية نقيضان لا يجتمعان ولا واسطة بينهما⁴ فبعد أن تثبتت مسألة التعارض بين الدين والعلم، وتطور الأمر إلى صراع مرير، فلم يكن بد من حل جذري، فكان الحل هو الفصل بين دائرة عمل الدين ودائرة عمل العلم بحيث يدور الدين في فلك العقائد والعبادات وقضايا أخرة ويبقى العلم في دائرة الحياة الدنيا.

(إن العلمانية فصل في كتاب الحياة الأوروبية عنيت به الخصومة بين الكنيسة والسلطة الزمنية، في المجتمعات الأوروبية، في محاولة لاستقلال كل منهما، أو في محاولة منع الاحتكاك بينهما، بعد الشد والتوتر في علاقتهما، طوال القرون الوسطى، وسيادة حكم الكنيسة فيها)⁵. وباعتبار أن مفهوم الدين هو ما يغطي حاجة الإنسان كفرد، في صلته مع الله داخل مكان العبادة أو خارجها وفي الأسرة، ومفهوم السياسة، هو ما يشمل ماعدا ذلك الجانب في حياة الإنسان، والإنسان بذلك له جانبان : جانب ديني، وجانب سياسي، ولا يتكلم في الجانب الأول، إلا رجال الدين ولا يمارس الجانب الثاني إلا رجل دولة أو رجل سياسة، ورجل الدين مطالب بعدم تدخل في مجال السياسة ورجل الدولة مطالب بألا يقحم نفسه في مجال الدين وقد يكون لكل منهما تأثيره في مجال ولكن يظل من الوجهة الشكلية غير معترف

¹ سفر الحوالي . وباء العلمانية ، مرجع سابق ، ص 13

² العلمانية نشأتها وتطورها وأثرها في الحياة الإسلامية المعاصرة. سفر بن عبد الرحمن ص 23

³ الرابانية الخاتمة والعلمانية . مرجع سابق ص 179

⁴ أنور الجندي . سقوط العلمانية ، ط 2 ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت 1980 ، ص

⁵ محمود عبد الحكيم عثمان، الفكر المادي الحديث موقف الإسلام منه، الدار الإسلامية للطباعة والنشر-المنصورة ط الخامسة، 2004، ص 48

به من الجانب الآخر⁶ فالعلاقة بين المسيحية والعلم تقوم على مبدأ فصل السلطات والاستقلال وليت الأمر وقف عند هذا الحد بل جاءت الطامة مع الموجة الإلحادية حيث أطيح بالدين كله لينفرد الفكر الإلحادي بالإنسان والحياة ومع هذا كله يصير التعبير باللا دينية أبلغ وصف للعلمانية .

المطلب الثالث : المراحل التي مرت بها العلمانية.

تاريخيا لا احد يستطيع أن يقطع الآن من أين جاء مصطلح العلمانية إلي قاموس الفكر العربي المعاصر. فهذا المصطلح في أصله اللاتيني والفرنسي و في أصله الانجليزي لا يشير في اشتقاقه من قريب أو من بعيد إلي العلمانية التي تعني وتشير لأول وهلة إلي أخذ كل شي بالعلم و المنطق والعقل.

(وتعتبر العلمانية اتجاه أو مذهب ظهر أولا في أوروبا ،تم انتشار بعد ذلك في غيرها وكان القصد منه إبعاد الدين السائد هناك – وهو الدين المسيحي الذي تمثله الكنيسة - عن التأثير في الحياة و المجتمع وإحلال العقل محله ليكون مصدر التوجيه والتشريع والتعليم والقيادة)¹ وقد كان ظهور هذا المذهب أو الاتجاه اثر من صراع طويل خاضته قوة وطوائف كثيرة ضد سلطة الكنيسة، التي كانت تهيمن باسم الدين علي كل شي في حياة البشر، ولنعرف الأسباب الحقيقية لهذا الصراع ،فان علينا أن نرجع إلي الوراء لنتعرف علي جذوره التاريخية ونتتبع المراحل المتعددة والأحقاب الطويلة التي مر بها هذا الصراع ، مهتمين علي وجه الخصوص بالجانب الوثيق الصلة بموضوعنا وهو علاقة المسيحية بالسلطة السياسية أو الدولة منذ عهد عيسى عليه السلام.

فقد أعلن عيسى عليه السلام دعوته في فلسطين، و كانت ولاية تابعة للدولة الرومانية التي كانت تسيطر عليها الوثنية، وكان عيسى عليه السلام حريصا مند البداية علي أن يتجنب الصراع مع هذه الإمبراطورية الوثنية التي لا يحكمها دين حرصا علي تبليغ رسالته ولذلك لم يتعرض للحكومة القائمة ،ولم يطعن في سياستها ولا أحكامها، ولم يكن لديه نصيب في مناصرة الحركة القومية لليهود الذين ينسب إليهم وان كانوا قد وقفوا في وجهه و عملوا علي الإيقاع بينه وبين السلطة القائمة ولكن كان شديد

⁶ محمد الباغي ، العلمانية وتطبيقاتها في الإسلام ط 1 1400 هـ 1982 م ، ص 46

¹ العلمانية وتطبيقاتها في الإسلام ص 3,4

الحرص علي أن يخرج من عقول خصومه وإتباعه أي ارتباط له بالسياسة²، وحاول اليهود أكثر من مرة أن يوقعوا بينه وبين الدولة، وكان مما فعلوه معه أنهم أرسلوا إليه بعض تلاميذهم ليقروا له أنه صادق في دعوته وأنه يعلم الناس الحق

وأنه لا يبالي بأحد لأنه ينظر إلي الله ولا ينظر إلي الخلق وكأنهم بذلك يدفعونه بطريقة غير مباشرة إلي التجرؤ علي الدولة وقوانينها تم سألوه بعد ذلك قائلين : (فقل لنا ماذا تظن ؟ أيجوز أن تعطي جزية لي قيصر أم لا فعلم يسوع خبتهم و قال : لماذا تجربونني يا مراءون ، أروني معطاة الجزية (النقود) فقدمو له دينار فقال لهم : لمن هذه الصورة والكتابة؟ قالوا له لي قيصر. فقال لهم : (أعطوا مالي قيصر لقيصر وما لله الله)¹، ولم يكن السيد المسيح عليه السلام يوافق الدولة الرومانية و إنما كان منطقيا مع طبيعة دعوته التي كانت قائمة علي إصلاح الضمير وتهذيب الأخلاق، و مقاومة النزعة المادية السائدة في عصره ، والدعوة إلي الزهد، والطهارة الروحية ، ولذلك لا نجد لديه عليه السلام أي اهتمام واضح بالشؤون الاقتصادية، ولا بشؤون الأسرة حيث أنه فضل العزوبة علي الزواج، ولم يكن هذا الحذر أو التبعاد حائلا علي الاضطهاد علي عيسي عليه السلام وأتباعه .

بل أشد هذا الاضطهاد حيث أرادت الامبراطورية الرومانية ان تلزمهم ببعض الطقوس التي تؤكد احترامهم لها ولكنهم رفضوا الامتثال لها بسبب ما تتضمنه من شرك ووثنية ، وادي الرفض إلي عزف واضطهاد وصل إلي حد حرق الأحياء، ولم يرفع عنهم الاضطهاد إلا بعد دخول الامبراطور القسطنطين إلي المسيحية، متأثرا بأمه هيلانه ، وقد ضلت الكنيسة تحت سلطة الدولة وهيمنتها خاصة وان قسطنطين قد قام بدور هام في القضاء على الخلافات التي وقعت بين كبار قادة وعلماء المسيحية حول طبيعة السيد المسيح، ولكن الأمر لم يستمر علي هذا النحو حيث أخذت الكنيسة تنظم شؤونها وتستكمل بنائها الإداري ونظامها الديني ، كما بدأت تضع قوانينها وتشريعاتها، رويداً رويداً وبدأت الكنيسة تزداد قوة ، وأصبح لها من النفوذ علي أتباعها أكثر مما للدولة عليهم، وتقدمت الكنيسة لتحتل منصب الصدارة ، وأصبحت الكنيسة بتنظيماتها و قوانينها تشبه أن تكون دولة مستقلة ذات هيمنة علي أتباعها، وأعلى من سلطة الدولة نفسها وينظر إليها علي أنها مؤسسة مستقلة لها غايتها المستقلة²إلأنه لم يعد احد يعترف لشخص ما- أي كان بأنه إمبراطور علي الغرب إلا إذا باركه ومسحه أحد الباباوات وأخذ رجال الدين يسيطون سلطتهم علي الدول شيا فشيئا، وإستخدمت الكنيسة لإثبات هذه السلطة المطلقة وثائق تاريخية تعود إلي القرن الرابع تم أثبت البحت التاريخي أنها مزورة³ وصارت الكنيسة

² عبد الحميد عبد المنعم مذكور ، الدراسات في الفكر الإسلامي ، دار النشر مكتبة الزهرة، سنة 1989، ص 18

¹الدارسات في الفكر الاسلامي ص 189

²عبد الحميد مذكور ، دراسات في الفكر الإسلامي ، مرجع سابق ، ص 188

³محمود عبد الحكيم عثمان ، الفكر المادي الحديث وموقف الإسلام منه ، الدار الإسلامية للطبع والنشر ، ط 5 ، سنة 2004 م ، ص 121

نتيجة لذلك ذات سلطة أقوى من سلطة الإمبراطورية والدولة التابعة لها وأصبح لها أراضي شاسعة وجيوش كبيرة تأتمر بأمرها، وتخضع لنفوذها، وقد وجهت كثيراً منها لحرب المسلمين وكان لها موارد مالية من مصادر متعددة وكان لها نظامها الإداري وعلمائها الذين يقومون بالتفسير والتبرير للعقيدة ويجادلون خصومها، وكانت حياة الناس في ذلك العصر تحت سلطة الكنيسة تماماً.

فالمرء لا يصير مسيحياً إلا إذا مر بطقوس محددة تقوم بها كال تعميد، ولا يمكن له أن يتزوج إلا إذ تمت مراسم الزواج في الكنيسة بل لا يستطيع أن يعبد الله إلا في الكنيسة أو تحت أشرفها وإذا وقع منه ذنب لا يستطيع أن يثوب إلى الله مباشرة إلا بواسطة رجال الكنيسة ويمكن له أن يحصل له على الثوبة بشراء (صكوك الغفران)¹، ومن المراسم الأزمّة لأبد من الاعتراف أمام القسيس قبل الوفاة وأن يقوم بالإشراف على مراسم الدفن وبهذا كانت الكنيسة هي السلطان العاتي علي سائر مجالات الحياة، ومما زاد الأمر شدة وقسوة، أن الكنيسة قد دافعت بعنف وضراوة علي سلطتها وهيمنتها ضد كل من يحاول الوقوف في وجهها، وقد استخدمت الكنيسة في مواجهة خصومها وسائل رادعة وكان من أهمها قرارات الحرمان ومحاكم التفتيش، وإضافة إلى ماسبق كله، أن الكنيسة البابوية لم تكن في أوقات كثيرة في صف العدالة الاجتماعية بل انغمس كثير من رجالها في الترف وتفننوا في الحصول علي الأموال من جماهير المتدينين، وفرضت الضرائب والعشور، وتضخمت ملكيتها حتبأصبحت الكنيسة كما يقول ديورنت :- أكبر ملاك الأرض و أكبر السادة الإقطاعيين في أوروبا² في الوقت الذي كانت فيه جماهير المؤمنين تعاني من الفقر، وانتقد بعض المفكرين تلك الممارسات السيئة لحكومة الكنيسة، وبهذا تتجمع هذه العوامل كلها لتملأ القلوب والعقول بمشاعر السخط والكراهية بما يعانيه الناس علي يد الكنيسة من استبداد سياسي و هيمنة فكرية، ومظالم اجتماعية وبدت قوة كثيرة تنهيا للمقاومة والتحدي: وكان من هؤلاء الرجال الدين ثاروا علي الكنيسة الكاثوليكية ونظامها كله، وكان من هؤلاء مارتر لوثر (1546) ميلادي الذي كان من دعاة الإصلاح الديني، ولكنه تعرض للإدانة ومنعت كتبه ثم أحرقت، ولكنه استمر في المقاومة داخل وطنه ألمانيا إلأن تمكن من تأسيس نظام آخر منشق علي الكاثوليكية وهو البروتستانتية، وأقوى ماوجه إلى الكنيسة من ضربات في فرنسا عام 1789 حيث تم رفع (شعار) الكنيسة

¹ د/ أحمد عبده حموده الجمل . في المذاهب المعاصرة من منظور إسلامي . مرجع سابق . ص 61

² - عبد الحميد عبد المنعم مذكور . دراسات في الفكر الإسلامي . مرجع سابق ص 189

داخل الدولة وليست الدولة داخل الكنيسة تم صدر مرسوم في العام نفسه بأن تؤول كل ممتلكات الكنيسة إلى الأمة³ وشاركت أمريكا في الحملة علي الكنيسة حيث وضعت في دستورها نص يقول (بالفصل بين الدين والدولة تم حرم القضاء الأمريكي في القرن العشرين التعليم الديني في المدارس الخاصة والعامة⁴).

وعندما جاءت أوروبا إلى الشرق غازية مستعمرة حملت معها روحها المعادية للدين أو المبعدة له، كما حملتومعها مصطلحاتها التي ترجمت باللغة العربية إلى العلمانية بكسر العين وهي ترجمة غير دقيقة لأنها توهم من لا يعلم أصلها الغربي وظروف نشأتها – أنها منسوبة إلى العلم وليس الأمر كذلك بل أنها تعني رفض الدين وقراراً من هذا الإبهام قام مجمع اللغة العربية بترجمتها إلى العلمانية نسبة إلى العلم بفتح اللام أي الكون وهي ترجمة اقرب إلى الدقة ولكنها صعبة في النطق، قليلة التداول حتى الآن ولم يكن غريباً علي نابليون أن يحمل معه هذه الروح إلى الشرق وهو أبن الثورة الفرنسية التي وجهت إلى الكنيسة والدين ضربة قاصمة وعندما وقعت مصر تحت الاحتلال البريطاني قام (اللورد كرومر) بتوسيع الثغرة التي حدثت في عهد (الخديوي) وجعل القانون الأجنبي هو القانون المطبق في المحاكم المصرية كلها ماعدا قضايا الأحوال الشخصية وبدأت الدعوة إلى العلمانية بمعنى إبعاد الدين الإسلامي، ولم يختصر الأمر علي مصر وحدها بل أن الدعوة إلى العلمانية وفصل الدين عن الدولة ظهرت في الجزائر وتونس وقام بإعلامها والدعوة إليها طلبة المدارس الفرنسية .

وتستخلص الباحثة مما سبق كله عدد من الملاحظات التي يجمها فيما يلي :

- 1 – إن الدعوة إلى الفصل بين الدين ة الدولة قد نشأت في أوروبا لظروف تاريخية خاصة بها ترجع إلى هيمنة الكنيسة الغربية بين الحكم والفكر والعلم .
- 2 –إن الدعوة إلي إبعاد الكنيسة عن السيطرة السياسية أو عن الحكم كما أكد ذلك في تعليم المسيح عليه السلام الذي دعا أن يترك ما لقيصر لقيصر وما لله لله كما نجد ذلك في تعليم بعض أتباعه الدين

³ – المرجع السابق . ص 200

⁴ – تيخونوفا تانيانا : ساطع الحصري . راند المنحة العلماني في الفكر القومي ، ترجمة توفيق سلوم، موسكو ، دار التقدم . 1987.

دعوا إلى ضرورة طاعة الحاكم، لأنهم يمثلون مشيئة الله تعالى فالدعوة إلى العلمانية إذا تمثل مشكلة أوروبا في ظروفها التاريخية وأصولها الدينية فهي أمر مستنكر في نطاقها الأوروبي والمسيحي إلا أنها تجاوزت حدها حين رفضت الدين ذاته.

المطلب الرابع: بعض التعريفات لمفهوم العلمانية في العالم الغربي و العالم العربي

أولا تعريف مفهوم "العلمانية" في العالم الغربي

من أهم المعاجم المتخصصة التي حاولت أن تتوجه لمشكلة مفهوم العلمانية والعلمنة معجم علم الاجتماع المعاصر لمؤلفه (توماس فورد) الذي أورد ثلاثة موارد لها صلة علماني Secular وعلمنة Secularization ومجتمع علماني Secularsociety وقد بين المعجم أن كلمة "علماني" لها عدة معاني¹ - 1 - الدنيوي غير الروحي وغير الديني وهي النقيض المقدس .

2 - ينتمي إلى ما هو عقلاني نفعي .

3 - تستخدم كلمة علماني بمعنى المندس "الغير مقدس" .

4 - كما تستخدم الكلمة إلى التراجع وانحصار الإيمان إلى عقائد التقليدية .

كما أورد المعجم مقالة (ينجر) في الموضوع : (من الأكثر حكمة في تقديري أن تستخدم كلمة علمانية لتشير إلى الاعتقاد والممارسات التي لا علاقة لها بالجوانب الغير النهائية (بالانجليزية تعني الالتيमित) - للحياة الإنسانية وبهذا يربأ العلمانية ليست معادية للدين ولا هي بديلة للدين إنما هي قطاع واحد من إنقطاعات الحياة)² ، تم انتقل المعجم إلى مدخل العلمنة حيث أن تم ستة استخدامات أساسية في العلوم الاجتماعية نقلها المعجم عن مقال (ليلاي شايئر) لعنوان (مفهوم العلمنة في البحوث التجريبية) وهي :-

¹ - نفس المرجع السابق ص 135

² - ندوة علمية بعنوان العلمانية مالها وما عليها ، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية ، رقم الايداع 7657 - 1998 ص 82

1 - انحصار الدين وتراجع.

2 - التركيز علي الحياة المادية بدلاً من التطلع الي مستقبل روحي .

3 - الفصل بين المجتمع والدين .

4 -إطّلاع منظمات الغير دينية بالوظائف الدينية .

5 -إختفاء فكرة المقدس .

6 -إحلال المجتمع العلماني بدلا من المقدس .

أما تعريف المجتمع العلماني هو(المجتمع الذي يقوم أعضائه بإصدار أحكامهم علي جميع العمليات ذات المعني والمعايير والعقائد وعوامل الترابط انطلاقا من قيم نفعية رشيدة)¹، كما اتسع المجال الدلالي للكلمة علي يد (جون هولوك) 1906 الذي عرف العلمانية بأنها الإيمان بإمكانية إصلاح حال الإنسان من خلال الطرق المادية دون التصدي لقضية الإمام سوا بالقبول أو الرفض .

تعريف العلمانية عند بعض المفكرين العرب

تتأرجح التعريفات العربية لمفهوم العلمانية بين العلمانية الجزئية (الإنسانية ، الأخلاقية) والعلمانية الشاملة (المادية ، العدمية) فا يرى محمد عابد الجابري مفهوم العلمانية جزء من التفكير الحضاري الغربي الذي يعني فصل(الدين عن الدولة) ويعتبر أن مفهوم العلمانية غريب عن الإسلام ، لعدم ملائمتها للواقع العربي الإسلامي ، حيث ينادي: بضرورة استبدال المصطلح بفكرة الديمقراطية ، حيث أن فكرة العلمانية فكرة مزيفة ، وليست قضية الفكر العربي ولذا فكر الجابري على ضرورة استبعاد مصطلح العلمانية وقاموس الفكر العربي² "لأنه لا يعبر عن الحاجات العربية الموضوعية"³ ويتعاض عنه بشعاري الديمقراطية والعقلانية وهو وإن كان خطاباً عديمياً بداية ، إلا أنه اتسم باللباقة في وضع نظرية ليبراليا - سلافية في الحرية والديمقراطية، وإن كان يعترف بها علمياً في العقلانية، ويؤكد أن

¹عبد الكريم عبد الله بن القاسم . العلمانية حدود ومفاهيم مرجع سابق ص46 .

²محمد عابد الجابري (العلمانية والإسلام) ،مجلة اليوم السابع، 3 ابريل 1989

³محمد عابد الجابري -الدين والدولة والتطبيق للشريعة -سلسلة الثقافة القومية مركز الدراسات الوحدة العربية ،2004 ص 8

الإسلام ليس كنيسة ومن ثم لا علاقة لنا بمفهوم فصل الدين عن الدولة، كما تحددها العلمانية في صراعها مع الكنيسة " 4.

وبما أن العقلانية تعني الصدور في الممارسات السياسية عن العقل ومعايريه المنطقية وليس عن الهوى والتعصب وتقلبات المجاز ، يؤكد الجابري ان هذه المفاهيم تتصالح مع الإسلام " فلا الديمقراطية ولا العقلانية تعنيان بصورة من صور استبعاد الإسلام " 5.

أم الدكتور وحيد عبد المجيد يرى(بأن العلمانية في الغرب ليست أيولوجية أو نظام فكريا ، أنها مجرد موقف جزئي يتعلق بالمجالات الغير مرتبطة بالشؤون الدينية، وكما يميز بين "اللا دينية" و"العلمانية" بأن الصراع بين الملوك والسلطة الباباوية وظهور العلم التجريبي المنفصل عن الدين وسيادة مفهوم سلطات العقل هو الذي أدب إلى ظهور العلمانية اللادينية ولكن بعد الثورة الفرنسية نحت العلمانية الغربية منحاً وسطياً يختلف بوضوح عن الاتجاه اللاديني ويدافع عن التسامح الديني) " 1 .

ولا تقوم العلمانية بهذا المعنى المعاصر بالفصل بين الدين و الدولة كما هو شائع لدينا ، إنما على الفصل بين الكنيسة ونظام الحكم .

وترى الباحثة أن التعريفات السابقة للعلمانية لم تعطيهها صفة العالمية والشمول حيث قلصت نطاقها لتشير إلى المجال السياسي، وربما الاقتصادي، ولم تمتد لتشمل المجالات الأخرى للحياة " الحياة الخاصة _ القيم الأخلاقية _ القيم الدينية " ومن ثم فهي تعريفات لعلمانية جزئية لا تشمل كل جوانب الواقع ولا كل تاريخ البشر.

ولهذا السبب نجد مفكراً علمانياً بارزاً مثل الدكتور فؤاد زكريا يصف العلمانية بأنها (الدعوة إلى الفصل بين الدين والسياسة) ويلتزم الصمت بشأن مجالات الحياة الأخرى (الاقتصاد – الأدب- الجنس.....الخ) " 2 ويقول (أن أكثر المجتمعات مادية في عالمنا المعاصر التي تعرف الإنسان باعتباره كائناً لا يعمل إلا من أجل المزيد من المال ومن الأرباح) ويرفض الدكتور فؤاد زكريا هذه المادية

⁴ محمد عابد الجابري المرجع السابق ص 9

⁵ ندوة علمية (العلمانية ما لها وما عليها) مرجع سابق ص 85

¹ الندوة العلمية، المرجع السابق ص 48

² فؤاد زكريا – الحقيقة والوهم في الحركة الإسلامية المعاصرة ط 2 القاهرة 1989 ص 23

العدمية التي تؤدي بوضع مقابلها (القيم الإنسانية والمعنوية) ويقول (ليست الماديات وحدها لان في الإنسان قوة تعلو علي السعي المباشر إلى الكسب والاقتناء)³ .

ويقول محمود أمين العالم : أن العلمانية ليست مجرد فصل الدين عن الدولة وإنما هي (رؤية وسلوك ومنهج وهذه الرؤية تحمل الملامح الجوهرية الإنسانية وتعبر عن طموحه الروحي والمادي للسيطرة علي جميع المعوقات التي تقف في طريق تقدمه وسعادته وازدهاره ، كل هذا يعني أن علمانية الدكتور محمود العالم لا تسقط بين النسبية والعدمية ولا ترفض فكرة الكل والجوهر والروح المطلق)⁴، وفي هذا الإطار يرى أن العلمانية لا تعارض الدين بل لعل العلمانية تكون منطلقا صالحا لتجديد الدين نفسه بما يتلاءم بمستجدات الحياة والواقع.

وترى الباحثة أن كلمة الروح هنا وكما هو الحال في كتابات الدكتور فؤاد زكريا وكثير من العلماني العرب (تنبع من المعجم الهيجلي حيث لا تميز بين الروح والمادة لكننا لسنا في نهاية الأمر والتاريخ بعد ،ولذا ظل الروح رغم كل إبعادها المادية والتاريخية منفصلة عن المادة وحركتها إلا أنها تضل الثنائية قائمة وتقف التعريفات السابقة للعلمانية التي تسمح بقدر من الثنائية، وعلي طرف النقيض من التعريفات المادية الشاملة

أما الدكتور (مراض وهبة) يجعل من العلمانية ظاهرة وحادية نسبية ، فهي تحديد لوجود الإنساني للزمان والتاريخ أي بالنسبي ولذا يذهب الدكتور مراد وهبة إلأن العلمانية هي (التفكير النسبي بما هو نسبي وليس بما هو مطلق وهي نسبية مطلقة لأنها تحدد الوجود الإنساني والطبيعي)¹ .

كل هذا يعني في واقع الأمر أن ثنائي (الإنساني والطبيعي) و(المادي والمعنوي) قد تم محوها تماما، و يتحول الإنسان إلى كائن طبيعي أي حيوان طبيعي اجتماعي ، يستنبط معلوماته من التجربة الحسية وأخلاقه من حركة الطبيعة – المادة ، وكل ما هو أنساني يراد في نهاية الأمر وفي التحليل الأخير إلي أصول مادية وتاريخية، وهذا يدخل بنا في عالم العلمانية الشاملة التي لا تعرف مطلقات ولا ثوابت ولا ثنائيات، ويلاحظ من ثم تراجع الإنسان في هذا العالم المصمت واندماجه الكامل في الطبيعة وخضوعه له²

³فؤاد زكريا – الحقيقة والوهم، مرجع سابق ص 24

⁴ندوة علمية، مرجع سابق ص 86

¹مراد وهبة – (الأصولية والعلمانية) القاهرة 1989 ص 97

²مراد وهبة المرجع السابق ص 98

كما يرى الدكتور وهبة أن العلمانية (هي المسار الإنساني في حضارتنا) أي حضارة كل البشر في كل زمان ومكان ،والعلمانية والعلمنة شي واحد .

ويتغني الكاتب السوري المقيم في باريس (هاشم صالح) بطريقة صوفية عن أوروبا .فهو يتحدث عن أوروبا علمانية متحررة ،عقلانية، لا أثر للأصولية دينية فيها ،كما يتحدث عما يسميه (معجزة الحداثة) أي (عن حضارة أوروبا أو سر تفوقها علي بقية سكان العالم ، ونجاحها الذي يخطف الأبصار) بعد هذه الغنائية الصوفية في وصفه للمعجزة العلمانية بنورها المتدفق وبين لنا أنها الجنة وقامت أكبر ثورة علمية وروحية في تاريخ البشرية في أوروبا ، وأنت بما يسميه الصورة العلمية وهي صورة الكون الفيزيائي الموحد الخاضع للقوانين الصارمة، أيأن سمة الجنة هي أن الإنسان يخضع للقوانين الصارمة الفيزياء ، الرياضة .

وكثير من التعريفات العربية لمفهوم العلمانية لا تأخذ بتعريف الجزئي الذي يسمح بقدر من الثنائية ويقبل بوجود حيز غير علماني بجوار الحيز العلماني .

ويرى الدكتور حسن حنفي أن العلمانية ظاهرة تنتمي للحضارة الغربية و تعني (الفصل بين الكنيسة والدولة) أي أنه يأخذ بالتعريف الجزئي دون تحفظ كنتائج للتجربة التاريخية الغربية¹ لا يراها في مواطن أخرى : رؤية كاملة للكون تغطي كل مجالات الحياة وتزوده الإنسان بمنظومة قيمة ومرجعية شامل مما يعطيها قابلية علي مستوي العالم² .

ويتناول محمد مهدي شمس الدين مصطلح العلمانية من وجهة نظر إسلامية رافضة لها فيصفها بأنها نهج حياتي المادي تكون نتيجته لنمو الفلسفات المادية اللادينية وهي النهج الحيائي الذي يستبعد أي تأثير أو توجيه ديني على تنظيم المجتمع والعلاقات الإنسانية داخل المجتمع³ .

أما ياسين الحافظ والمتأثر بالفكر الأوروبي بشقيه الغربي والمركسي يجدد إطارا تاريخيا لمصطلح العلمانية ، فيربط نشأتها بالغرب بسيطرة العقل غلي توجيه المجتمعات وبظهور القومية

¹حسن حنفي الإسلام والحداثة ، دار الساقي ، 1991 ص 16

²حسن الحنفي -المرجع نفسه - الصفحة نفسها

³محمد مهدي شمس الدين . العلمانية ، بيروت ، المؤسسة الجامعية للدراسة والنشر والتوزيع سنة 1983 ص 222

كإطار اجتماعي سياسي للشعوب أوروبا ويقول بهد المعني : (العلمانية كما نشأت في الغرب هي احد تظاهرات الفرعية لعقله المجتمع فضلا عن إنها نتيجة من نتائج قومنه المجتمع)⁴.

ونجد أن كل ما أورده محمد شمس الدين وياسين الحافظ ، إنهما ينظران إلي مصطلح العلمانية من خلال العوامل التي أدت إلي نشأتها ، وساهمت في بروزها كاتجاه يحكم المجتمعات الأوروبية . ونجد الدكتور (عاطف العراقي) يبدأ بتقرير عما يشاع عن العلمانية من اتهامات باطلة : فالقول بربط بين العلمانية والدعوة ضد الدين جاء عن سوء فهم للعلمانية، والفصل عن الدين والدولة، والقول بان الدين لله والوطن للجميع ، لا يمكن أن يمثل اتجاهات غير دينية ، تم يسوق الدكتور العراقي تعريفا واسعا جدا للعلمانية (يمثل معني للعلمانية أو يدور حول التميز بين العلم من جهة والدين من جهة أخرى أي أنه :-

أي انه يقبل الثنائية ووجود حيز علماني والآخر غير علماني .

وبهذا فما دام الأمر تميزا فهذا يعني أن لكل مجاله وأن هناك مجالا للدين في المجتمع، ويضيف العراقي أن العلمانية "لا تدعو إلى إلغاء الدين وإنما تدعو إلى عدم الاعتراف بالسلطة الدينية "نقد القول بإمكانية وجود حكومة دينية" والي فصل الدين عن الدولة وضرورة " التميز بين الدين من جهة ورجال الدين من جهة أخرى وهذا لا يعني رفض الدين ،وبهذا نجد أن الدكتور العراقي يدور في إطار العلمانية الجزئية بلا أي إبهام .

كما يرى عدم وجود أي مجال للتعارض بين التقدم العلمي والقيم الأخلاقية المطلقة بل يمكن أن يكون (التقدم العلمي وسيلة لنشر الأخلاق) .

ومن أهم الدارسين العرب لظاهرة العلمانية وتر كل الاتجاهات (الجزئية – الشاملة – المتأرجحة) في كتاباته ويصل للخطاب العلماني العربي إلى كثير من نتائج المنطقية.

حيث يبدأ الدكتور (عزيز العظمة) في عالم التعريفات الجزئية حين يقول " تعني العلمانية الاستقلال النسبي للمجتمع المدني عن التحكم الرسمي به وحياته العامة ومعاملته ومبادلته وفقا لمبادئ دين الأكثرية وعقائده وشرائعه كما تعني المساواة بين جميع المواطنين أما القانون بغض النظر عن إلتمائاتهم الدينية أو الطائفية كما تعني صياغة حرية الضمير والمعتقد للجميع".

⁴ياسين حافظ. الايدولوجية التقليدية الإسلامية والأيدولوجية التقليدية المسيحية في لبنان ، مؤسسة الدراسات والأبحاث اللبنانية ، بيروت ، 1979، ص 104

ويعرف د.العظمة ما يسميه وجه العلمانية السياسي¹، ويلخص كما يسميه وجهها المؤسسي بأنه إعتبار للمؤسسة الدينية مؤسسة خاصة كالأندية والمحافل، وتجد الباحثة تلخيص د. العظمة لرؤيته تلخيصاً يتجاهل كثيراً من التضامانات الفلسفية لخطابه ولدا نجد بعض لحظات التعثر الأولى يطرح هذه التعريفات الجزئية جانبا ويتبنى تعريفا شاملا يمثل موقفه الفلسفي ويعرف ما يسميه "وجه العلمانية المعرفي"² بأنه "نفي الأسباب الخارقة عن الظواهر الطبيعية والتاريخية" وهو ما يعني الاكتفاء بالأسباب المحسوسة المادية وقوانين الحركة، ويعرف العلمانية بأنها تؤكد (أولوية اللانهاية) أي اعتبار المجتمع حركة مستمرة لإنهايات ولا غايات لها، حركة (منفتحة أبداً على التحول)³ ولذا فهو لا يرفض الرؤى الميتافيزيقية وحسب وإنما يرفض أيضاً الرؤى الماهوية .

وانتقد عبد الوهاب المسيري تلك الرؤى عن العلمانية أو التي نضرت إليها نضرة جزئية إلا أن رويته للعلمانية كانت قاصرة أيضاً في تصوره لها -ذلك التصور الجزئي والذي يمنحه في كتاباته عنها فقط لمجالي السياسة والاقتصاد، وأشار لتقسيماتها إلى علمانية جزئية وعلمانية شاملة :

أ - العلمانية الجزئية: هي رؤية جزئية للواقع ولا تتعامل مع الأبعاد الكلية والمعرفية، ولا تتسم بالشمول، ويذهب هذا الاتجاه إلى وجوب فصل الدين عن عالم السياسة، وربما الاقتصاد، وهو المعبر عنه بفصل الدين عن الدولة وتلزم الصمت حيال الأخلاق والميتافيزيقية والمجالات الأخرى من الحياة ويمكن تسميتها بالعلمانية الأخلاقية والإنسانية .

ب - العلمانية الشاملة : وهي رؤية شاملة للواقع تحاول بكل تحييد الدين والقيم المطلقة في كل مجالات الحياة ، وتفرعت عنها نظريات اعتمدت وارتكزت علي البعد المادي للكون ، وأن المعرفة المادية هي المصدر الوحيد للأخلاق ، ويغلب على الإنسان الطابع المادي وليس الروحي وتعرف بالعلمانية الطبيعية المادية ، واعتبرت العلمانية الشاملة تجلياً لهيمنة الدولة عن الدين و انفردت الدولة العلمانية بتشكيل رؤية شاملة بعيدا عن الغيبيات كما اعتبر عبد الوهاب المسيري أن الفرق بين العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة هو الفارق في المراحل التاريخية نفسها، حيث اتسمت العلمانية بمحدوديتها، وانحصرت في مجالي الاقتصاد والسياسة حيث كانت بقية قيم مسيحية إنسانية¹ .

¹ عزيز العظمة ، عبد الوهاب المسيري ، العلمانية تحت المجهر ، دار الفكر المعاصر ط الاولى سنة 2000م ص 200

² نفس المرجع السابق ص 201

³ د/ عبد الوهاب المسيري . عزيز العظمة . العلمانية تحت المجهر . مرجع سابق . ص 76 .

¹ عبد الكريم عبد الله بلقاسم . العلمانية حدود ومفاهيم . مرجع سابق . ص 48 .

كما أن العلمانية كثيراً ما يفهم منها عدم الميل بها لمعرفة العلمية الوضعية أو العامة بل تعني دور الإنسان في العالم وتأكيد استقلالية العقل الإنساني وسيرورة توظيفه للعقل في أي من المجالات التي يوظف فيه ، وهي معنية بدور الإنسان في العالم باستقلاله عن الدين، فهي موقف أبستمولوجي إلى الحد الذي ضمته موقف من طبيعة المعرفة العلمية ، معرفة الغايات والوسائل وعلاقتها بالمعرف الدينية، غير أن العلماني ليس بالضرورة علمانيا ، وفي هذا نجد أن الأمر قد اختلط بين النضرة المعرفية الوضعية وبين أنها موقف عالمي ، أو أبستمولوجي معنى هذا أنه يصح لنا القول أنها علمانية وعلمانية للموقفين المعرفي الوضعي والعالمي على السواء² وهي في طبيعتها الأولى نتيجة فكرة تصارعية بين محورين الكنيسة و السلطة الدنيوية في أوروبا.

هناك أيضا من أشار إلى العلمانية بأنها جملة من التدابير جاءت وليدة صراع طويل بين السلطتين استهدفت فك الاشتباك بينهما واعتماد فكرة الفصل بين الدين والدولة بينما يضمن حياد الدين ويضمن حرية الرأي ويمنع القداسة عن أهل الدين إذا لسنا والصراع الأوروبي الكنيسي ، ولكن أيضا كان ذا صراع ديني وعلمي ولهذا نجد الكثير من الكتاب أكدوا (أنه لا يمكن الانتقال إلى المجتمع العلماني إلا بعد الإستناد إلى الصفة العلمانية وجعلها أساس لها) ¹.

وينضم إلى هذا الرأي عالمان جليلان من علماء الأزهر وهما : عبد الحليم محمود ،محمد البهي _ حيث يرى عبد الحميد محمود (أن العلمانية هنا ترجمة إلى كلمة ويقصدون بها لا دينية منسوبة الى العلم بفتح العين لا بكسرهما كما يظن الأكثرون الذين يعتقدون أنها من العلم بكسر العين وهي لهذا تكون منسوبة للعلم بفتح العين) ، وهو العالم بفتح اللام أو دنيا وهذا التفسير دهري أو علماني نشره اليهود في أوروبا وفي فرنسة بالذات فيما بين القرنين الثالث عشر والتاسع عشر حيث تمكن دعاة العلمانية من الاستيلاء على الحكم فيه .

أما محمد البهي فيقول : (إن هذا الاتجاه عرّف في محيط المجتمعات الإسلامية بعد المخالطة الفكرية بين الغرب والشرق بإسم الاتجاه العلماني ، لعل منسوب من غير قياس للعالم بفتح اللام ، وهذا الإسلام ترجمة للكلمة اللاتينية التي تعرف بالانجليزية بإسم كوصف كاتجاه ومذهب² .بينما يصف آخرون العلمانية بأنها : (الدعوة إلى الفصل بين الدين والسياسة فيإلزام الصمت عن المجالات

² عادل الطاهر . الأسس الفلسفية للعلمانية . ط 2 . بيروت 1989 . ص 37 – 38 .

اناصيف نصره . نحو مجتمع جديد . دار الطباعة بيروت . ص 184

² محمد البهي . الدين والحضارة الإنسانية . دار الهلال . القاهرة . 1964 . ص 12 .

الأخرى (الاقتصاد والأدب) وفي الوقت ذاته يرفض سيطرة الفكر المادي الفقهي ، واقع في مقابل المادية والقيم الإنسانية والمعنوية حيث يعتبر هناك محرك أخرى للإنسان)³.

كما أن مفهوم الدولة الدينية حسب رأي البعض ، والذي يقابل مفهوم الدولة العلمانية مفهوم مستعار من (هوارد بيكر) في كتابه _المجتمع المقدس التي يقوم فيها رجال الكهنوت بدور الوسيط ، فلا وجود لمجتمع مقدس لهذا المعنى في الإسلام ، على هذا فلاسلام لا يرف الدولة الدينية⁴ إذن فالدعوة إلى سيادة الدولة العلمانية ما هي إلا تقليد للغرب حسب هذا المفهوم . كما أضاف محمد عمارة سمات أخرى للعلمانية _ كالتقدم العلماني ، ورفضه للجمود والتجبر والتميز على أساس ديني وغيرها ، وهي منظور إليها في سياقها التاريخي وفي مواجهتها للدولة الثيوقراطية¹ وهي مرفوضة طالما ربطت بتضادها للدولة الدينية كما نجد من يؤكد أن العلمانية : هي دعوة للتغريب والاستعمار الثقافي التي يعاني منها الإسلام منذ قرون ، مع تصدير مناهج الغرب على أنها مطلقة وتحل محل عقائد أخرى في الدول المستعمرة، فالعلمانية فكرة أوروبية نشأت لحل مشكلة أوروبية فرضتها معطيات ارتبطت بالتجمعات الأوروبية في ضل ظروف وفق شروط خاصة ؛ وبذلك تكون المبررات النظرية العلمانية التي إستنبطها الفكر الأوروبي في مجمل النظريات الفلسفية والاجتماعية والسياسية التي ظهرت بين الفلاسفة والمفكرين الأوروبيين منذ القرن السادس عشر هذه المبررات لا وجود لها ، ولا يوجد في الإسلام ما يبررها أو ما يدعو إليها إطلاقاً هكذا تبقى العلمانية حسب هذه الرؤية دعوة لا مبرر لها وما هي إلا دعوة للتغريب كما أشار بعض ممثلي الاتجاه الرافض لفكرة العلمانية إلا " أن هذا المصطلح نشاء في الغرب نشاءه طبيعية نتيجة ظروف ومعطيات تاريخية ودينية واجتماعية وسياسية و علمانية واقتصادية خلال قرون من التدرج والنمو والتخريب حتى وصلت إلى صورتها التي هي عليها اليوم² وأشار كذلك أن هذا المصطلح : " هو مصطلح وافد من خلال الحروب العسكرية والاستعمار ، وظهر في الشرق وطبق بقوة السلاح لأنه نشاء في ظل ظروف تختلف اختلافاً جذرياً عن ظروف البلدان التي جلبت إليها جهاز متكامل

³ عبد الحليم محمود . دلائل النبوة ومعجزات الرسول ، دار الإنسان للطباعة . القاهرة . 1394 . ص 4 .

⁴ محمد البهي، مرجع سابق، نفس الصفحة

¹ أفواد زكرياء . الحقيقة والوهم في الحركة الإسلامية المعاصرة ، ط 2 . القاهرة . 1989 . ص 23 .

² محمد الكاتي . جدل العقل والنقل في مناهج التفكير الإسلامي . مرجع سابق . ص 484

في الجوانب الاجتماعية والتاريخية التي أدى إلى نجاحها في الغرب ، مفقود في البلاد العربية الإسلامية" ³ إذا الدعوة إلى العلمانية في أدبيات الفكر العربي المعاصر نجدها تعبر عن الموقف المبدئي من كل ما هو مستقل عن سلطة العقل ، أو عن الحياة الدنيوية التي يحياها الإنسان (أنها بالأحرى نتائج الفلسفات الأوروبية المادية والوضعية التي قامت علي انقاد المسيحية، وعلي نقد المتفيزيقا وكل المذاهب المثالية فاكنتسبت طابع نزعة شمولية تعم مجالات الحياة كلها ، وأصبحت بديلا عقائديا و حصريا للدين -أي دين) والعلمانية بهذا الشمول توجد علي الطرف المقابل للإسلام باعتبارهمنهجا شمولياً يستوعب كل شيء في الكون والحياة ولذلك يجد المفكر العربي المسلم والمفكر العلماني نفسيهما علي طرفي النقيض، من حيث أن العلمانية لا تقر بالمرجعية الدينية ، ولا تسلم بمعتقداتها ⁴ وفي مقدمتها الاعتقاد بالوحي والنبوة . مع تسجيل الأهمية لمجمل ماتقدم من التعريفات تم تحديد لمصطلح العلمانية يميل الباحث اعتماده وهو أن هذا المصطلح منحى في التفكير ينطلق من أن للعالم وجوداً مستقلاً بذاته مغاير عن وجود خالقه .

وبالتالي فان تنظيم المجتمع والدولة والثقافة يجب أن يكون من صميم العالم نفسه ، مما يؤدي تلقائيا إلى تحريره من سلطة المؤسسات الدينية ، من دون أن يعني ذلك إنكار للخالق أو نفي للدين ومصطلح العلمانية- بهذا المعنى هو تنظيم المجتمعات وفق القوانين التي يضعها العقل والعلم علي مستوي السلطة والإدارة ونظام العمل والاقتصاد والتربية والزواج وكل أوجه النشاط الإنساني ، ونجد مشكلات أساسية في التعريفات السابقة الجزئي والشامل نورد بعضها فيما يلي :

- أ - تعاملت معظم التعريفات مع التعريفات المعجمية العامة للكلمة وأصولها اللغوية واشتقاقاتها ومعناها، ولم تتعامل مع مدلول الكلمة في معاجم علم الاجتماع أو علم الفلسفة .
- ب - أهملت معظم التعريفات قضية المرجعية للكلمة والمفهوم .

ج - تعرضت كثير من التعريفات العلمانية باعتبارها أساساً ظاهرة غربية فقط.

³المرجع نفسه ، الصفحة نفسها .

⁴- محمد الكتاني ، جدل العقل والنقل . مرجع سابق . ص 484 .

د - تناولت معظم التعريفات إشكالية الوصول لأي كيف نشأت العلمانية في الغرب ، ولكنها تجاهلت معظم التعريفات الظواهر المصاحبة لظهور العلمانية مثل الامبريالية والاستهلاكية والحروب العالمية ولم تحاول اكتشاف ما إذ كان تم علاقة بين تصاعد معدلات العلمنة للمجتمع وتزايد مركزية هذه الظواهر وعلمايتها .

هـ- لم تحاول أي من التعريفات دراسة النظريات الاقتصادية والسياسية المختلفة وعلاقتها بالعلمانية أهملت دراسة المجتمعات العلمانية المختلفة في الغرب باعتبارها النموذج العلماني .

و- لم يناقش أي من التعريفات المصطلحات والمفاهيم المستخدمة في العلوم الإنسانية الغربية لوصف بعض جوانب المجتمعات العلمانية الحديثة من الاغتراب وغيره .

ز- لم يتناول أي من التعريفات الحركة الفنية والأدبية الحديثة وعلاقتها بتصاعد معدلات العلمنة.

ط- من أكثر الأشياء غرابة ان أي من التعريفات لم تحاول أن تربط بين العلمانية وتاريخ الفلسفة في الغرب ولم تتناول أي من تعريفات الحياة اليومية في المجتمعات العلمانية .

ي- لم يتعرض احد للتراث الغربي الثري في نقد العلمانية وما بعد الحداثة ولا شك انما كل هذه التعريفات المريحة لها قيمة نفسية عالية بالنسبة لمستخدميها فهي تدخل علي قلوبهم الراحة ولكن ليست لها أي قيمة تفسيرية ، فهي ليست تعريفات تحاول وصف الواقع وتفسيره وإنما هي أحكام أخلاقية تعكس لنا رؤية أصحابها وموقفهم النفسي والأخلاقي من ظاهرة لم يقوموا بتعريف حدودها .

المطلب الخامس : مراحل العلمانية أو " صورها"

ذهب البعض إلأن الفكر العلماني الأوروبي مر بمرحلتين :

المرحلة أو الصورة الأولى :

مرحلة العلمانية المعتدلة ، وهي مرحلة القرنين السابع عشر والثامن عشر ، وهي وأن إعتبر الدينية فيها أمر شخصي - لا شأن للدولة به إلا أن على الدولة - مع ذلك أن تحمي الكنيسة ، وبالأخص في جباية ضرائبها، والتفكير العلماني في هذه المرحلة وأن طالب بتأكيد الفصل بين الدولة والكنيسة إلا انه لم يسلب المسيحية كدين من كل قيمة لها ، وأن كان ينكر فيها بعض تعاليمها ، ويطالب بإخضاع

تعاليم المسيحية إلى العقل ، والى مبادئ الطبيعة مما نشأ عنه المذهب المعروف بإسم مذهب الروبوبيين ، وهو مذهب يعترف بوجود الله كأصل للعالم، ولكنه ينكر الإعجاز والوحي وتدخل الله في العالم .

ومن دعاة هذه المرحلة : فولتير (1694-1713م) في فرنسا ، وشفيتسيري (1671-1713م) في إنجلترا وليسنج (1729-1781م) في ألمانيا ، والفيلسوف الانجليزي جون لوك (1632-1714م) وهوبز (1588-1689م) وديكاردت ، ، وبيكون ، وسبينوزا ، وجنكروسو ، وإضرابهم¹.

المرحلة أو الصورة الثانية :

وهي مرحلة العهد المادي أو ما يسمى بالثورة الألمانية ، وهي مرحلة القرن التاسع عشر وما بعده، وعلمانية هذه المرحلة و هي مرحلة إلغاء الدين –أي إلغاء كلياً وعدم الإيمان بالأمور الغيبية- وليس فصلاً بيه وبين الدولة كما هو المفهوم في المرحلة الأولى ، باعتبار أن الوجود الحقيقي هو المحسوس فقط ، والدافع إليها هو الإستئثار بالسلطة ، ولذلك كانت العلمانية غير مساوية لمفهوم الفصل بين الكنيسة والدولة ، بل كانت إلغاء للدين كمقدمة ضرورية للسلطة المنفردة والتي هي سلطة جماعة العمل أو المجتمع أو الدولة او الحزب حسب تحديد بعض هؤلاء الشيوعيين اليساريين ومن دعاة هذه المرحلة هيجيل وفيرباخ وكارل ماركس وأضرابهم².

المبحث الثاني

العلمانية نشأتها وآثارها ومظاهرها

¹د جمعة الحولي ، الاتجاهات الفكرية المعاصرة ص 92

²عبد الرحمن الميداني .كواشف الزيوف في المذاهب الفكرية المعاصرة ، دار القلم للطباعة والنشر . دمشق ط 1 1985 ص 164

المطلب الأول : أسباب ظهور العلمانية وظروف نشأتها .

المطلب الثاني : مظاهر العلمانية في الغرب .

المطلب الثالث : مستويات العلمانية .

المطلب الرابع : نماذج من العلمانية في أوروبا في القرنين 17 – 18 .

المبحث الثاني: العلمانية و ظروف نشأتها وآثارها ومظاهرها :

المطلب الأول : العلمانية و ظروف نشأتها:

تبدو نشأة العلمانية في أوروبا أمرا منطقيا مع سير الأحداث هناك حيث عبت رجال الكنيسة بدين الله المنزل ،وتحريفه وتشويهه وتقديمه للناس في صورة منفرة دون أن يكون عند الناس مرجع يرجعون إليه لتصحيح هذا العبث ، وإرجاعه إلىأصوله الصحيحة.فقد أعلنت العلمانية في أوروبا عن نفسها في زمن مواكب لعصر الإنتقال بين العصور الوسطى والحديثة، من 1300_1600م- حيث برزت في هذه الفترة الدعوة إلى فصل العلماني عن الروحاني. أو الدولة عن الدين.

وكان أكثر من جد في ذلك هو المفكر الايطالي (نيقولا ماكيافيللي) (1469_1527). حيث تجاوب مع روح العصر الذي بداء الناس فيه يستلهمون نماذج العصور القديمة في التفكير " عصور اليونان والرومان" ويحقرون من شأن العصور الوسطي المسيحية ، فكان تجاهل هذا المفكر هذه العصور ،

ووجد أن الحقيقة السياسية يجب أن تقوم مبادئها علي التاريخين اليوناني والروماني واهم مبدأ قال به " هو فصل الفلسفة السياسية كلية عن الأخلاق والدين"¹.

كانت سيطرة الدين الكنسي علي الحياة الأوربية في ظروفها المظلمة أمراً سيئاً . برغم سيطرة بعض الفضائل الدينية علي الحياة وبخاصة في الريف الأوربي لان ذلك الدين _ بما حواه من إنحرافات جذرية في العقيدة من ناحية ، وفي فصل العقيدة عن الشريعة من ناحية أخرى وفي فساد يمثله من رجال الدين وجهالتهم من ناحية ثالثة فكان مفسداً للعقول ومعطلا لها عن التفكير السليم، لذلك كان نبذ الدين والإنسلاخ منه أمراً ضرورياً، وبناءً علي ذلك كانت هناك أسباب كثيرة أدت إلى ظهر العلمانية في الغرب كان من ابرز هذه الأسباب مايلي :

أولاً: طغيان رجال الكنيسة:

لقد عاشت أوروبا في القرون الوسطى فترة قاسية، تحت طغيان رجال الكنيسة وهيمنتهم، وفساد أحوالهم، واستغلال السلطة الدينية لتحقيق أهوائهم ، وإرضاء شهواتهم ، تحت قناع القداسة التي يصفونها علأنفسهم، ويهيمنون بها علي الأمة الساذجة، ثم اضطهادهم الشنيع لكل من يخالف أوامر أو تعليمات الكنيسة المبتدعة في الدين ، والتي ما أنزل الله بها من سلطان ، حتى لو كانت أمورا تتصل بحقائق كونية تثبتتها التجارب والمشاهد العلمية ،وقد شمل هيمنة الكنيسة النواحي الدينية ، والاقتصادية ، والسياسية ، والعلمية ، وفرضت علي عقول الناس وأموالهم و تصرفاتهم وصاية لا نظير لها علي الإطلاق وسنعرض شئ من ذلك بإيجاز:

أ -الطغيان الديني:

1 -إن الإيمان بالله الواحد الأحد ، الذي لا اله غيره ولا معبود بحق سواه ، وان عيسى عبد الله ورسوله ، قد تحول في عقيدة النصارى بالإيمان بالله مثلث يتجسد، (الأب والابن وروح القدس)¹، وذلك أنه منذ مجمع نيقية سنة 325م والكنيسة تمارس الطغيان الديني والإرهاب في أبشع صوره ، فرضت بطغيانها هذا عقيدة التثليث قهراً، وحرمت ولعنت مخالفيها، بل سفكت دماء من ظفرت به من الموحدين ، وإذاقتهم صنوف التعذيب وألوان النكال، وتتفق المصادر علأن تحريف العقيدة النصرانية تعود

¹شحاته سغفان ، تاريخ الفكر الاجتماعي والمدارس الاجتماعية ،دار النهضة العربية ، 1962، ص 52-1

¹محمود عبد الحكيم عثمان ، الفكر المادي الحديث وموقف الإسلام منه، ط5، الدار الإسلامية للطباعة والنشر ، المنصورة ، سنة 1425هـ- 2004م، ص4

إلى (بولسشاول) اليهودي، وهو الذي أثار موضوع ألوهية المسيح لأول مرة مدعيًا أنه ابن الله² تعالى عن ذلك علواً كبيراً.

2 - والعبادات قد دخلت فيها أوضاع بشرية كنيسية مبتدعة، وهذه المبتدعات حملها النصارى مفاهيم غيبية، وفسروها بأنها أسرارها مقدسة، وجعلوا لها طقوساً تمارس في مناسباتها، ويجب إحترامها والتفقد بها.

3- والأحكام التشريعية معظمها أوامر وقرارات كنسية بابوية، ما أنزل الله بها من سلطان، وهي تحلل وتحرم من غير أن يكون لها مستنداً من كتاب الله، أو من سنة رسوله عليه الصلاة والسلام³، ونصبت الكنيسة نفسها عن طريق المجامع المقدسة "إلهاً" يحل ويحرم، ينسخ ويضيف، وليس لأحد حق الاعتراض، أو على الأقل حق إبداء الرأي كائنًا من كان، وإلا فالحرمان مصيره، واللجنة عقوبته، لأنه كافر ((مهرطق))⁴.

وقد كان الختان واجبا فأصبح حراما، وكانت الميتة محرمة فأصبحت مباحة، وكانت التماثيل شركا ووثنية فأصبحت تعبيراً عن التقوى، وكان زواج رجال الدين حلالاً فأصبح محظوراً، وكان أخذ الأموال من الأتباع منكراً فأصبحت الضرائب الكنيسية فرضاً لازماً، وأمور كثيرة نقلتها المجامع من الحل إلى الحرمة أو العكس دون أن يكون لديها من الله سلطان، أو ترى في ذلك حرجاً، وأضافت الكنيسة إلى عقيدة التثليث عقائد وراء أخرى تحكم البديهة باستحالتها، ولكن لا مناص من الإيمان بها والإقرار بشرعيتها على الصورة التي توافق هوى الكنيسة¹.

ثانياً: الصراع بين الكنيسة والعلم:

الصراع بين الدين والعلم مشكلة من أعماق واعقد المشكلات في التاريخ الفكري الأوروبي أن لم تكن أعمقها على الإطلاق، وذلك أن الكنيسة كانت هي صاحبة السلطة طوال القرون الوسطى في أوروبا حتى قامت النهضة العلمية هناك، وفي هذه الأثناء وقعت الحروب الصليبية بين المسلمين والأوروبيين، واستمرت طوال القرنين الحادي عشر، والثاني عشر الميلادي، واحتك الصليبيون خلالها بالمسلمين ووقفوا عن كذب على صفات الإسلام وروعته في جميع مجالات العلوم والفنون، في الأندلس والشمال الأفريقي وصقلية وغيرها، حيث كانت المدارس والجامعات المتعددة في كل مكان في بلاد

² سفر عبد الرحمن، العلمانية نشأتها وآثارها، المرجع السابق، ص 36 - محمد أبي زهرة، محاضرات في النصرانية، دار الفكر العربي، ط3، 1381، ص 84.

³ انظر: كواشف زيوف لعبد الرحمن الميداني ص 32

⁴ انظر: العلمانية لسفر، مرجع سابق، ص 128، والهرطقة - كما فهمتها الكنيسة إذا ذاك - هي: مخالفة رأي الكنيسة، فرأي يراه عالم في العلوم الكونية هرطقة، ومحاولة فهم الكتاب المقدس لرجل غير كنسي هرطقة، وانتقاد شيء يتصل بالكنيسة هرطقة - أحمد شليبي، المسيحية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ص 256

¹ انظر العلمانية لسفر ص 128

المسلمين، يؤمن بها طلاب العلم ، ومنهم الأوروبيون الذين وفدوا يتعلمون من الأساتذة المسلمين ، وترجمة بعض الكتب الي اللغة الانجليزية.

فلما عاد أولئك الأوروبيين الذين تأثروا بنور الإسلام وعرفوا أن الكنيسة ورجالها عملة مزيفة ، ووسيلة للدجل والتحكم الظالم في عباد الله ، أخذ هؤلاء يقاومون الكنيسة ودينها المزيف وأعلنوا كشوفاتهم العلمية والجغرافية ، والعلوم الطبيعية التي تحرمها الكنيسة ، وعند ذلك قامت قيامة من يُسمون لدى النصارى برجال الدين، واحتدم الصراع ، ومكث قروناً بين رجال العلم ورجال الكنيسة، فأخذوا يُفكرون ويقتلون ويحرقون ويشردون المكتشفين، وأنشأت الكنيسة محاكم للتفتيش لملاحقة حملة الأفكار المخالفة لأرائها وأفكارها²، ومكث هذا الصراع عدة قرون ، وانتهى بإبعاد الكنيسة ورجالها عن التدخل في نظم الحياة وشئون الدولة، فالدين_ بمعنى أوضح- مهمته داخل جدران الكنيسة فقط ولا داعي لوجوده خارجها ، ويكون لرجال الدولة والعلم إدارة شئون الحياة بأسلوب الذي يناسبهم سواء أكان متفقاً مع مبادئ الدين أم لا؟وبما أن الدين بصبغته الإلهية النقية لم يدخل المعركة ، فإن الأولى أن نسمي ماحدث في أوروبا صراعاً بين الكنيسة والعلم ، وليس بين الدين والعلم أو بين رجال الدين والعلماء¹ .

ونظراً لأن الصراع الدامي الطويل قد أنتهى بأول انتصار حاسم لأعداء الكنيسة أثناء الثورة الفرنسية فإننا سنتناول ذلك بإيجاز:

ثالثاً :الثورة الفرنسية :

ونتيجة لوضع الكنيسة ودينها المحرف ، ووقفاً ضد مطالب الناس، دبّر اليهود مكائدهم لاستغلال الثورة النفسية التي وصلت إليها الشعوب الأوروبية ، لاسيما الشعب الفرنسي ..فأعدوا الخطط اللازمة ،لإقامة الثورة الفرنسية الرامية إلى تغيير الأوضاع السائدة ، وفي مقدمتها عزل الدين النصرائي المحرف الذي حارب العلم عن الحياة ، وحصره في داخل الكنيسة وإبعاد رجالها عن التحكم الظالم، وفعلاً قامت الثورة الكبرى عام (1789م) وإستطاع اليهود أن يجنوا ثمرات عملهم على حساب آلام الشعوب ، والدماء التي أزهقت من جرائها ، واستطاعوا أن يظلوا في الخفاء بعيداً عن الأضواء، وأن يزوروا كثيراً من الحقائق التاريخية ، لستر مكائدهم وغاياتهم ، واستطاعوا أن يصوروا هذه الثورة وما جرّت وراءها بالصور الجميلة المحببة، وأن يجعلوها إحدى الأعمال التاريخية المجيدة، وذلك عن طريق الدعايات والإشاعات المزخرفة المقرونة بالشعارات البراقة التي أنخدع بها الناس ، وأخذت

²ناصر الفنري وزميله ، الموجز في الاديان والمذاهب المعاصرة، ط 1، 1992م دار السمعي للنشر ، الرياض ص 105- انظر احذروا الأساليب الحديثة في مواجهة الاسلام للدكتور سعد الدين السيد صالح ، ط2 ، 1413هـ، 1993م ، دار الارقم ، الزقازيق ص 197- مذاهب فكرية معاصرة لمحمد قطب ، مرجع سابق ص 512
¹انظر:خالد محمد علي الحاج، الكشاف الفريد عن معاول الهدم ونقائض التوحيد ، دولة قطر 1403هـ-1983م.

ترددها دون أن تفهم الهدف الذي ترمي إليه، ووضع اليهود شعاراً مثلثاً لهذه الثورة هو "الحرية، والمساواة والأخاء".

أما أصل مخططات هذه الثورة فقد وضعها جماعة النورانيين من الحاخامات اليهود، واستخدموا للبدأ بالدعوة إليها بين سادة المال اليهود العالميين، الثري المرابي الكبير "روتشيلد الأول" ثم ابنه "ناتان روتشيلد"²، ومما يدل على أن الثورة الفرنسية هي من صنع اليهود وتديرهم ماتتبحج به بروتوكولاتهم فنقول : " تذكروا الثورة الفرنسية التي نسميها " الكبرى" إن أسرار تنظيمها التمهيدي معروفة لنا جيداً لأنها من صنع أيدينا "³.

وتقول : "كذلك كنا قديماً أول من صاح في الناس " الحرية ، والمساواة والإخاء" كلمات ما انفكت ترددها منذ ذلك الحين ببغاوات جاهلة متجمهرة في كل مكان حول هذه الشعارات¹، وتمخضت الثورة عن نتائج بالغة الخطورة ، فقد ولدت لأول مرة في تاريخ أوروبا المسيحية دولة جمهورية ، لادينية ، تقوم فلسفتها على الحكم باسم الشعب- وليس باسم الله _ وعلى حرية التدين بدلا من الكتلثة² وعلى الحرية الشخصية بدلا من التقيد بالأخلاق الدينية ، وعلى دستور وضعي بدلا من قرارات الكنيسة .

وقامت الثورة بأعمال غريبة علي عصرها فقد حلت الجمعيات الدينية ، وسرحت الرهبان والراهبات ، وصادرت أموال الكنيسة ، وألغت كل امتيازاتها ، وحوربت العقائد الدينية هذه المرة علنا وبشدة ..³.

رابعا : نظرية التطور :

في سنة 1859م نشر الباحث الانجليزي " تشارلز داروين" ⁴ كتابه " أصل الأنواع " الذي يركز على قانون الانتقاء الطبيعي وبقاء الأنسب ، وقد جعلت نظريته كون الجد الحقيقي للإنسان

² روتشيلد وابنه ناتان من اسرة يهودية من رجال المال، اتصلت سيرة بعض افرادها بالاحتلال البريطاني لمصر ثم بالحركة الصهيونية لاقامة وطن قومي لليهود بفلسطين راس هذا البيت ماير انسلم روتشيلد (1743-1812م) الذي انشا بيتا للتسليف . بمدينة فرانكفورت الالمانية ومن بعده ابنائه العشرة الذين انتشروا بين لندن وباريس وناپولي وفينا وفرانكفورت ثم الولايات المتحدة، ويعتبر راس الفرع الانجليزي زعيم الطائفة اليهودية في بريطانيا منذ ان منح ناتان ماير روتشيلد رتبة اللوردية عام 1885م، توفي 1915م، انظر القاموس السياسي ص 572، احجار علي رقعة الشطرنج لويليم كار ، دار النفائس ، ط1، ص76، كواشف زيوف، مرجع سابق، ص 60 ، حكومة العلم الخفية ص 47 وما بعدها
³ محمد خليفة التونسي، الخطر اليهودي (البروتوكولات الحكومات الصهيونية)، دار الكتاب العربي ، بيروت، ص 118
¹ الكتلثة : هي اتباع الكنيسة الكاثوليكية العامة ، وهي اعرق واكبر الطوائف النصرانية ومركزها روما وجمهورها في اوروبا عموما وهم يعتقدون بزعيمهم _ ان الله الابن مساو في خصائص الالهية لله الاب ، وروح القدس منبثق عنهما.

² انظر : العلمانية لسفر ص 169

³ المقصود بالغرب اوربا وامريكا

⁴ داروين (1809-1882م) هو تشارلز داروين صاحب نظرية التطور العضوي المعروفة ، ولد بويانز في بريطانيا ، والف كتابه " اصل الانواع " بعد رحلة طويلة وقد احدثت نظريته انقلابا فكريا في معظم حقول المعرفة الاوروبية ، نظرا للاستغلال العظيم الذي قام به المغرضون والهدامون ، ولاسيما اليهود . انظر : موقف الاسلام من نظرية ماركس ص 608.

جرثومة صغيرة عاشت في مستنقع راكد قبل ملايين السنين ، والقرد مرحلة من مراحل التطور التي كان الإنسان آخرها فحدث ذلك ضجة لم يحدثها أي مؤلف آخر في التاريخ الأوروبي قاطبة ، وكان له من الآثار في المجالات الفكرية والعلمية مالم يكن في الحسبان ، وهذه النظرية أدت إلى انهيار العقيدة الدينية ، ونشر الإلحاد في أوروبا ، وقد استغلها اليهود استغلالا بشعاً⁵، والنظرية في جوهرها فرضية بيولوجية ابعثت شي عن ان تكون نظرية فلسفية عامة ، كما أنها بعيدة عن أن تكون حقيقة علمية ثابتة ، وقد قال احد العلماء الغربيين في النظرية الداروينية⁶ : " بأنها أبوها الكفر وأمها القذارة " .

والنظرية الداروينية باطلة بكتاب الله تعالى وبسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وباطلة بجميع الكتب السماوية ، وباطلة بإجماع المسلمين في كل زمان ومكان ، وباطلة بالعقل الصحيح ، وبالفطرة السليمة من الشذوذ والانحراف .

فبنو آدم وجميع الحيوانات والطيور ، وجميع مافي البراري والبحار ، من آلاف السنين وهي على ما هي عليه لم تتغير أشكالها ولا أسماؤها ، ومذهب داروين باطل ، لعدم مشاهدة أي ارتقاء من أي نوع من مخلوقات الله ، فمن الذي عاش آلاف السنين حتى شاهد تغير الإنسان من خلية إلى حشرة إلى حيوان إلى قرد كما يزعم داروين ، وهو الذي لم يعيش سوى اقل من 75 سنة.

قال تعالى : { مَا أَشْهَدُهُمْ خُلِقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خُلِقَ أَنْفُسُهُمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَصُدًا¹ } ، والنظرية باطلة بقوله تعالى : { وَفَلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ }² فالله تعالى إنما اهبط من الجنة آدميا يعقل ولم يهبط حشرة ثم صارت حيوانا لا يعقل ثم صار قرداً ، والداروينية الملحدة يقولون علي الله بغير علم قال تعالى : { إِنَّ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الضَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا }³ وهم يجادلون بالباطل ، قال تعالى : { وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ

⁵انظر الموسوعة المسيرة ص 368.

⁶الدارونية نسبة لصاحب النظرية تشارلز داروين ، وقد سبق التعريف به في الصفحة السابقة .

¹سورة الكهف، الآية (51)

²سورة البقرة، الآية (36)

³سورة النجم، الآية (28)

لِيُدْجِسُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنْزِلُوا هُزُوعًا⁴ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَدْلَةِ الَّتِي تَنْسِفُ خُرَافَةَ النُّظَرِيَّةِ الدَّارَوِينِيَّةِ⁵.

خامساً: طبيعة التعاليم النصرانية.

بالإضافة إلى ما سبق نجد أن التعاليم النصرانية قد تحولت إلى طقوس جامدة لا حياة فيها ، واتجهت في جوهرها للتزهد، واحتقار الحياة الدنيوية ، والتجرد من عالم المادة مثل: " من لطمك علي خدك الأيمن فحول له الآخر أيضا ، ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضا ، ومن سخرك ميلا واحدا فاذهب معه اثنين⁶مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غني ملكوت الله⁷ .

" أحبوا أعداءكم ، وأحسنوا إلى مبغضيك ، باركوا لأعينكم، وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم، من ضربك علي خدك فاعرض له الآخر أيضا ، ومن أخذ رداءك فلا تمنعه ثوبك أيضا " ¹، "لا تهتموا لحياتكم بما تأكلون ولا للجسد بما تلبسون " ²، لقد نظرت أوروبا إلى هذه التعاليم الموهلة في السماحة فوجدتها بعيدة عن واقع الحياة وظروفها، أما الإسلام فلأنه الرسالة الخاتمة للناس جميعا فقد جمع بين الحياتين ، وطلب العناية بهما معاً- وأن وجهه إلى تغليب العمل للباقية منهما ، قال تعالى { قُلْ مَنْحَرَمَ زِينَةِ اللَّهِ أَتِيَاخِرُ جَلْعَادِهِوَ الطَّيِّبَاتِ مِمَّا رَزَقَ قُلُوبُهُ }³، وقال تعالى { وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ }⁴ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ

والإسلام شرع مقابلة السيئة بمثلها ردعاً للظلم ، وكسراً لشوكته، ثم حث علي العفو والصفح عن المسيء، ذلك أن الناس يختلفون في طباعهم، فمنهم اللين المتسامح، ومنهم الشديد الصعب فشرع

⁴سورة الكهف، الآية (56)

⁵للمزيد من الرد على هذه النظرية. انظر: عقيدة المسلمين للبليهي 1-501 وما بعدها.

⁶متى: 40: 5-42.

⁷مرقص: 10: 25.

¹لوقا: 27: 6-30

²لوقا: 22: 12

³سورة الاعراف، الآية 32.

⁴سورة القصص، الآية 77

الإسلام لهذا وذاك وقال تعالى: { وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ } 5 ، وقال تعالى : { وَإِنِ اعْتَابْتُمْ فَاعْبُوا بِمِثْلِ مَا عُوبْتُمْ بِهِ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ } 6.

أما ما جاء في النصرانية فلا يصلح توجيهها عاملاً لكل الناس ذلك أن مطالبة الإنسان بمحبه عدوه ومباركة لا عنيه أمر قد لا تطيقه بعض النفوس ، كما قد لا تحتمل السكوت علي الضرب ، ولذلك جاءت الشريعة الإسلامية بمنهج وسط . العقوبة بالمثل وفتح الباب للعفو والصفح ، علي أن معاملة المعتدين والمجرمين بمثل هذا الأسلوب المتساهل، وتركهم دون معاقبة أو تأديب فيه تشجيع لهم علي المضي في سلوكهم إلّاخر مدى، ولذلك كان التشريع الإسلامي تشريعاً مناسباً في كل زمان ومكان والحمد لله. ليس غريباً بعد الذي تقدم – كما جاء في الثورة الفرنسية - أن يكون اليهود وراء الدعوة إلي إقامة الحياة علي غير الدين ، وذلك من أجل السيطرة، ومن أجل إزالة الحاجز الديني الذي يقف أمام اليهود حائلاً بينهم وبين أمم الأرض⁷ هذه أهم الأسباب والعوامل التي أدت إلى ظهور هذا الفكر الجاهلي ، والذي هيمن علناوروباً كلها، وأصبح يحمل شعارات الإلحاد والفوضى الأخلاقية عناداً للكنيسة ورجالها، والحق أن هذه الأسباب وتلك الظروف ليست مبررة لابتعاد النصارى وغيرهم عن الدين ، وإنما يجب عليهم أن يبحثوا عن

الدين الصحيح ، والإسلام هو دين الله الحق الذي ارتضاه للناس جميعاً، وهو دين العلم للعالم كله، كما اثبت العلم بكل فروعه أنه لا يعادي هذا الدين ولا ينافيه ، بل يسير في ركابه ويكشف جوهره الثمين للناس.

وفكرة إن العلم لا صلة له بالدين وإن الدين يحارب العلم، هي الفكرة السائدة في الغرب طيلة القرنين الثامن عشر، والتاسع عشر الميلاديين، ومع إطلالة القرن العشرين بدأت بوادر التفاهم والمصالحة بين رجال الكنيسة والاتجاه الجاهلي ، وانتهت بتنازلات كبيرة من الطرفين إلّا أن دخلت الأحزاب الدينية النصرانية مجالات السياسة في بعض الدول الغربية.

المطلب الثاني : مظاهر العلمانية في الغرب.

وعلي الرغم من أن الحضارة العلمانية الغربية قد قدمت للإنسان كل وسائل الراحة و وكل أسباب التقدم المادي، إلا أنها فشلت في أن تقدم له شيئاً واحداً وهو السعادة والطمأنينة والسكينة، بل العكس قدمت للإنسان هناك مزيداً من التعاسة والقلق والبؤس والتمزق والاكتئاب، وذلك لأن السعادة

⁵سورة الشورى ، الآية 40

⁶سورة النحل 126

⁷انظر : احجار علي رقعة الشطرنج لوليام غاي كار ص75 وما بعدها، اخطار علي الغزو الفكري علي العالم الاسلامي لصابر طعيمة ص 209، الموسوعة المسيرة ص 371، احروا الاساليب الحديثة ص 199.

والسكينة أمور تتعلق بالروح، والروح لا يشبعها إلا الإيمان بخالقها ، والالتزام بأوامره واجتناب نواهيه، قال تعالى : { هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيُذْأَبِإِيمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ¹ } أي جعل الطمأنينة والوقار في قلوب المؤمنين الذين استجابوا لله ولرسوله، وانقادوا لحكم الله ورسوله ، فلما اطمأنت قلوبهم بذلك واستقرت ، زادهم إيماناً مع إيمانهم²، وكيف تترك السكينة في قلوب أناس أقاموا حضارتهم علي غير أساس من الإيمان بالله تعالى وشرعه؟

بل الذي يحصل لهم هو مزيد من القلق والتعاسة والضيق والخوف يقول الله تبارك وتعالى { فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ خَصْرَهُ هَلْ يَسْتَـَـسْـَـلَامٌ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ كَذِبًا كَيْ جَعَلَ اللَّهُ لِلْهَاجِرِ جَسْعًا عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ³ }.

قال ابن عباس رضي الله عنه في قوله : { فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ خَصْرَهُ هَلْ يَسْتَـَـسْـَـلَامٌ } " يوسع قلبه للتوحيد والإيمان به "⁴.

في قوله : { وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا } قال الإمام الطبري – رحمه الله : " ومن أراد الله إضلاله عن سبيل الهدى لشغله بكفره، وصده عن سبيله، يجعل صدره بخذلانه وغلبه الكفر عليه حرجاً ، أشد الضيق وهو هنا الصدر الذي لا تصل إليه الموعظة ، ولا يدخله نور الإيمان لرين الشرك عليه " .. وقوله تعالى : { كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ } قال : وهذا مثل ضربه لله لقلب هذا الكافر في شدة ضيقه عن وصول الإيمان إليه يقول : فمثله في امتناعه عن قبول الإيمان وضيقه عن وصوله إليه مثل امتناعه عن الصعود إلى السماء وعجزه عنه .

وقوله : { وهذا صراط ربك مستقيماً قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون } يقول تعالى ذكره: وهذا الذي بينا لك يامحمد في هذه السورة وغيرها من سور القرآن ، هو صراط ربك ، يقول : طريق ربك ودينه الذي ارتضاه لنفسه دينا ، وجعله مستقيماً لا اعوجاج فيه فاثبت عليه وحرّم ما حرّمته عليك و وأحل ما أحلته لك ، فقد بينا الآيات والحجج علي حقيقة ذلك وصحته لقوم يذكرون .. وخص بها الذين يتذكرون ، لأنهم أهل التمييز والفهم ، وأولوا الحجة والفضل " ¹ .

¹سورة الفتح ، الآية 4

²انظر : تفسير ابن كثير 4-197 بتصرف يسير.

³سورة النعام ، الآية 125.

⁴تفسير ابن كثير 2-188

¹تفسير الطبري (8-27,32)

وبهذا يتبين لنا حالة القلق الرهيب التي تعيشها المجتمعات التي تسير علي غير هدى الله وشرعه، علي الرغم من تقدمها المادي ، ووصولها إلي أقاليم التقنيّة الحديثة .

وهذا ما أيده الواقع الملموس في البلاد التي ابتعدت عن شرع الله ، فالإنسان إنما يكون في حالة طيبة نفسياً وبدنياً عندما تقوى صلته بالله تعالى، ويلتزم بأوامره ويجتنب نواهيه ، ولذلك يقول ابن القيم - رحمه الله تعالى : " في القلب شعت - أي تمزق وتفرق - لا يلمه إلا الإقبال علي الله ، وفيه وحشة لا يزيلها إلا الإنس بالله ، وفيه حزن لا يذهب إلا السرور بمعرفته وصدق معاملته ، وفيه قلق لا يسكنه إلا الاجتماع عليه والفرار إليه ، وفيه نيران حشرات لا يطفئها إلا الرضي بأمره ونهيه وقضائه ، ومعانقة الصبر علي ذلك إلى وقت لقائه ، وفيه فاقة لا يسدها إلا محبته والإنابة إليه ، ودوام ذكره ، وصدق الإخلاص له ، ولو أعطى الدنيا وما فيها لم تسد الفاقة أبداً "2 .

إن إبعاد الدين عن مجالات الحياة في المجتمعات الغربية كان - ولا يزال - من أهم الأسباب التي أدت إلى الإفلاس والحيرة والضياع ، وإن مما نتج عن ذلك ما هو مشاهد وملموس مايلي :

1 - الولوج والانغماس في المشروبات الروحية والإدمان علي المخدرات .

2 - الأمراض العصبية النفسية .

3 -الجرائم البشعة بمختلف أنواعها كالسرقة ، والاغتصاب ، والشذوذ الجنسي ، والقتل وغيرها.

4 - تأجيج الغرائز الجنسية بين الجنسين .

5 -انتشار أمراض مخيفة كالزهري ، والسيلان ، وأخيراً يبتلي الله تلك المجتمعات بالطاعون الجديد وهو الايدز .

6 -الانتحار¹.

إن الغرب يعيش حياة الضنك والقلق ، فلا طمأنينة له ولا راحة ، ولا انشراح لصدور أهله ، بل صدورهم في ضيق وقلق وحيرة ، وما ذلك الا لضلالتهم وبعدهم عن الله ، وان تنعموا ظاهرة في الحياة الدنيا . قال تعالى : { يَٰعَالَمُونَظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُم بَٰلْآخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ }2، قال ابن كثير رحمه الله :

²الامام ابن القيم الزوجية (ت 751هـ) ، مدارج السالكين ، ط1 ، 1983م، الكتب العالمية ، بيروت

¹انظر : إحدروا الأساليب الحديثة ص 219-220 بتصرف .

²سورة الروم ، الآية 6.

أي أكثر الناس ليس لهم علم إلا بالدنيا وإكسابها وشؤونها وما فيها، فهم حذاق أذكياء في تحصيلها ووجود مكاسبها ، وهم غافلون في أمور الدين وماينفعهم في الدار الآخرة " 3.

وقال تعالى :{ ... فَأَمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى *وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمًى } 4.

أما الزواج فقد قل في المجتمعات الغربية – أن لم يكن قد ندر – وفترات الاختيار التي تسبقه قد تمتد سنين ، وفي هذه الفترة يمارس فيها الزنا والفحش ، وغالباً ماتنتهي فترات الاختيار بالاكْتفاء بما حصل فيها ، ثم الانتقال إلى اختيار آخر أو العدول عن فكرة الزواج إلى فكرة المعاشرة الحرة الاختيارية بينهما دون أعباء الزواج ، وحتماً إذا اختاروا الزواج فهم ينفرون من الأطفال ، وقد بلغ الأمر أن أكثرهم إذا رزق بأطفال فإنهم غالباً لا يصحبونهم في فترات الفسح في نهاية الأسابيع حتى يستمتعوا وحدهم بالفسحة دون ضجيج الأولاد ، أما المجتمع فهو يعاني من التفكك والانحلال ، وانعدام العلاقات بين الجيران حتّى الواحد إذا مات لا يعرف إلا من رائحته النتنة التي تتصاعد بعد أيام من موته .

وإن العلاج الناجح لتلك الأمراض التي تعاني منها المجتمعات الغربية وغيرها ، إنما يوجد في تطبيق الإسلام ، عقيدة وشريعة ومنهاج حياة ، علي جميع الأفراد والجماعات ، إذا هو الدين الذي ارتضاه الله ، واصطفاه وحده للناس جميعاً في كل زمان ومكان وهو- سبحانه – اعلم بما يصلح أمور خلقه في دنياهم وآخرتهم.

المطلب الثالث: مستويات العلمانية

نستطيع أن نميز بين مستويين العلمانية:

المستوي الأولي المتسامح يتظاهر بالحياد تجاه عقائد الدين وعباداته المحضة... ويتظاهر بأنه لا يريد إلغاء الدين كلياً إنما يريد حصره في مجالات تخصصه أما تدخله في شؤون الحياة فهو تدخل يفسدها ويعوق تقدمها وارتقاءها¹، فهو لا يرفض الدين كدين ، إنما يرفض تدخله في شؤون الحياة العملية، ويحصر الدين في النواحي الروحية كالعقيدة والعبادة ، وفي الأحوال الشخصية من زواج

³تفسير ابن كثير (3-445).

⁴سورة طه ، الأيتان (123-124)

¹عبدالرحمن حسن الميداني كواشف زبوف في المذاهب الفكرية المعاصرة . دار القلم للطباعة ، دمشق ، ط الاولى-1975،ص164

وطلاق ونفقة وعدة وما إليها وفي الميراث ، أي أنه يجعل الدين مسألة شخصية يمارسها الإنسان في قلبه وفي أماكن العبادة "أما الحياة الاجتماعية بكل مافيها ومن فيها ، فأمرها موكول إلى غير الدين ، إلى الفكر البشري والعلم البشري فليس الدين وضيعة اجتماعية ، وهذا المستوى هو الشائع بصورة ومنطقات متقاربة في العالم دون العالم الشيوعي الماركسي أي الشعوب المسيحية في قارات العالم "2 ، ومبرر هذا المستوي تخسيس الدين في مجالات معينة ويرفع هذا المستوي شعارات يريد لها أن يكون مبررات لإبعاد الدين عن الحياة منها :

1 - إن السياسة لا دين لها ، ولا ينبغي أن يكون الدين سياسة .

2 - إن تعاليم الدين في شؤون الحياة غير صالحة لأنها غير علمية ولا عقلية .

وهذه الشعارات ليست إلا ضلالة أطلقها الضالون ووقع في حبالها المتدينون ، وهي أن صحت فلا تصح إلا بالنظر إلى الدين المحرف ، أما وحي الله الصحيح فقد جاء لإصلاح الحياة.

أما المستوى الثاني فهو الذي (يعلن حربه عدائه للدين كله ، ويسعي بكل ما أوتي من حيلة وقوة لإلغائه إلغاءً كلياً وجعل المادية ومفاهيمها تتطور للكون والإلحاد لله عز وجل ، والكفر بكل القيم الدينية ، هي العقيدة السائدة لكل المجتمعات الإنسانية)³.

وهذا المستوى لا تشوبه شائبة من التسامح في الدين، ورافض له في شتي مظاهره ، ولا يعطي له أي وظيفة لا شخصية ، ولا اجتماعية ، ولا أخلاقية ، وفي هذا المستوى لا يمثل من الناحية الفكرية التيار المادي الإلحادي مجسداً في الماركسية ، ويمكنه من الناحية العملية المعسكر الشيوعي كله في الشرق والغرب على حد سواء .

ولو تأملنا هذين المستويين لوجدنا أنهما مع إختلافهما فكرياً إلى حد ما فإن نتائجهما تكاد ان تكون واحدة ويجمعهما مبدأ واحد وهو إبعاد الدين عن الحياة .

المطلب الرابع : نماذج من العلمانية في أوروبا في القرنين 17، 18.

فيما يتعلق بالقرنين 17، 18 استمرت المعاهد الدينية علي تراث العصر الوسيط بوجه عام بينما اشتدت من حولها الحركة العلمية الفكرية التي بدأت في عصر النهضة ، " فظهر رجال يعملون علي تنمية العلم الجديد، والآخرين يستحدثون مذاهب فلسفية ، كانت الأصول التي نسج عليها الفكر الحديث،

² احمد عبده محمود الجمل - في المذاهب المعاصرة دراسة لطائفة من مذاعب العلم والفكر من المنظور الاسلامي ، دار الطباعة المحمدية ، رقم الاداع 5370 - 1991م ، ص 39

¹ احمد عبده محمود الجمل، في المذاهب المعاصرة، من منظور اسلامي ، مرجع سابق، ص 41

هذا فيما يخص القرن السابع عشر ، أما القرن الثامن عشر فكانت السمة الغالبة عليه هي التحليل والنقد، تحليل المعرفة ونقد العقل والدين والنظم الاجتماعية والسياسية¹، ولقد ظهرت مع البدايات الأولى لقرن 17 بعض الكشوف العلمية ، فقدم جالبرت Gelbert بحثا عن المغناطيسية عام 1600م، وقدم نيوتن 1642-1727م العديد من المبادئ الرياضية في الديناميكا ، وعرض هوجينز Hogenz النظرية النموذجية في الضوء في أواسط القرن وظهرت كشوف هارفي Harvey عن الدورة الدموية عام 1628م وكتب بويل Boyil في الكيمياء عام 1661م وقد أثارت هذه الكشوفات العلمية في الباحثين والمفكرين التركيز علي الملاحظة التي هي أساس البحث التجريبي ، فلم يعد منطق أرسطو يعني بحاجات العصر الجديد، ذلك المنطق الذي كان معيار صدق الفكرة فيه مرتبطا بعدم تناقضها الداخلي مع مثيلاتها من الأفكار في سلم الاستدلال العقلي دونما أي اهتمام يربط صدق هذه الفكرة أو كذلك بما تمثله في الواقع² وكان أول من عالج هذه الموضوعات هو فرنسيس بيكون 1626-1561م الذي أراد إصلاح الأساس المنطقي للعلوم بالتعويل علي الطريقة الأستقرائية دون الطريقة القياسية الأرسطية ، والذي فصل القول في الطرق التجريبية التي هي أساس العلم .

"على الرغم من إنكار بيكون صراحة للدين فانه فرض مكانته حينما رفض أي قضية فكرية ليس لها أساس تجريبي، ويعينه هذا ضمنا من رفض القضايا الميتافيزيقية الخاصة بمجال الإلهيات".

أما هوبز 1588-1689م الذي كان أيضا مهتما بالأساس التجريبي للمنهج العلمي من جانب اهتماماته الأخرى الأخلاقية والسياسية والفلسفية فقد رأى : " أن العقل الإنساني لا يستطيع أن يصدر أحكاما ذات أساس إستدلالي تتعلق بطبيعة إلهه، وأن الصفات التي تخلعها علي إلهه ليست إلا أسماء تعبر عن عجزنا عن معرفته، وعن رغبتنا في وصفه بعبارات تمجيدية من شأنها إرضاء قوة مجهولة"¹ ويرد هوبز اللاهوت إلى العاطفة وعنده "أن الإيمان بالدين علي مستوى الشخص لا يقوم علي إدراك أية حقائق ، بل انه خوف الفرد من القوة المجهولة المتوقعة التي ينطوي عليها الكون ، أما علي المستوى الاجتماعي فالدين فرع من فروع السياسة وسلاح في يد الحاكم في حكمة للمواطنين، وعلي هذا فينبغي عنده أن تكون المسائل المتعلقة بالعقيدة والعبادة وتفسير الكتاب المقدس في يد هذا الحاكم"² ، هكذا ينتهي

²يوسف كرم . تاريخ الفلسفة الحديثة. ص 153

³زكريا الفاير. العلمانية النشأة والاثر في الشرق والغرب، ص28.

¹جيمس كولنز. الله في الفلسفة الحديثة ، فواد كامل ، مكتبة غريب ، القاهرة ، 1973م

²المرجع نفسه ، الصفحة نفسها

إلأن الدين ليس إلا تبريرا لغايات الدولة والأشخاص، كما يتساءل هوبز: ماهي طريقة الحياة التي لابد أن توجد إذا لم تكن هناك قوة عامة قادرة على بث الرعب في قلوب الناس³.

ويعتبر هوبز أن الملكية المطلقة هي أفضل أشكال الحكم، وأن حق السلطة المطلق لا يقتصر على سلوك الفرد، بل ومعتقداته أيضا : الدينية والأخلاقية ، والعلمية ، كما أن السلطة الكنسية يجب ان تخضع للسلطة الزمنية وعلى الفرد أن ينصاغ لتوجيهات الدولة، حتى ولتعارضت مع الدين⁴، لذلك فان ما يهدف إليه هوبز ليس الحكم الملكي بذاته بل سلطة حكومية مطلقة.

وبعد أن زادت أزمة الشك لدي الكثير من العقول خلال الثلث الأول من القرن 17 ونتيجة للإخفاق جميع محاولات التغلب على مذهب الشك " كما ان التقدم النسبي للكشوف العلمية لم يوفر للناس ملجأأmina في مذهب الشك وذلك لاثارتها سكونا خاصة حول الله والإنسان والكون المحسوس ، إذا أصبح هذا الكون خاليا تماما من القصد الإلهي"⁵ أما في الثلثين الأخيرين منالقرن 17 تطور المذهب العقلي بوصفه طريقاً

يستطيع مواجهة الشك والعلم، دون التخلي عن الذكاء الإنساني ، واتفق كل من ديكارت (Decartes) 1596-1650م) واسبينسور (Spinosar 1632-1677م) وليبنز (Leibniz 1636-1716م) علأن : " سلامة العقل الإنساني أمر يمكن الدفاع عنه ضد هجمات الشك، وأن المنهج العلمي يمكن أن يتكيف داخل فلسفة تجعل الأولوية لهذا العقل في تسوية القضايا ويكون فيها

الله احد الضمانات للردغلي مذهبالشك" (1) فاديكارت اعتبر " أن إلاله هو الأساس اليقيني في إثبات وجود الإنسان في معرفة الطبيعة وفي إقامة العلم الطبيعي (2)" كما يفرض ديكارت مبدأ الاستقلال بين العلم والدين " فلا مضايقة بين العلم والدين ، ولا سلطان لأحدهما على الآخر لان نموهما الطبيعي لا يجعلهما يلتقيان، فكل من العلم والدين استقلاله الذاتي " (3).

أما اسبينوز فالعقل عنده : " هو الذي يقرر وجود ذلك الجوهر الذي لا يتناهي في أزليته هو الله ، ثم يستخلص العقل من ماهيته ذلك الجوهر مبدأ القوانين الكلية في الطبيعة ، وبذلك نرى جهود العلم في رد كثيرة الأشياء الجزئية غير المرتبة في الظاهر إلى القوانين ، ومن جهة أخرى لما وجد العقل أمامه النصوص التي اشتهرت بقدراتها كالكتاب المقدس بعهديه الإسرائيلي والمسيحي، قرر هذا المبدأ وهو : إن الإنجيل لا يفسر إلا بالإنجيل فقط ، مادام المطلوب ليس إلا تحديد المعني التاريخي ، حتباذا أتم العقل تفسير الكتاب المقدس بقي عليه وحده أن يقرر هل يجب علينا التسلم بهذه المذاهب " (4) وبهذا نجد أن السبينوزا قد انزل الله

³سالم يفوت ، الفلسفة والعلم الكلاسيكي ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، 1989م، ص 167م

⁴فيصل عباسي _ موسوعة الفلاسفة ، المرجع السابق ص 95

⁵جيمس كولنيز. الله في الفلسفة الحديثة ، المرجع السابق ، ص132

من عرشه وادمجه مع الطبيعة، أما لبيز قد اعلي من قيمه الطبيعي ووضعها بجانب الله ، وذلك من حيث رده، الوجود إلى ذرات روحية لا متناهية ، وهي اخص صفات الله ، وخالدة لا تفني ، وهي صفة أخرى لله ومتحركة بذاتها ، وما يعنيه هذا من أن بداخلها أسباب حركتها ، وعدم حاجتها إلى مسبب يعلوها في القدرة ، ولا يشفع للليبتز بعد هذا قوله بان هذه الذرات الروحية صادرة من الله مادام قد وصفها بالخلود واللامتناهي (5).

ويذهب لبيتز إلأن العلوم : " تبحث في العلاقات بين الأشياء من حيث مظاهرها المحسوسة ، باعتبار أنها خارجية بعضها عن بعض أما الدين فعنايته أن يدرك من حقيقته الحية ذلك التناسق الباطني الكلي؛ وذلك التدخل المشترك بين الموجودات ، وبذلك التطلع من جانب كل إنسان إلى الخير والي سعادة جميع الناس ، وهو السر في تماسك معيشتهم وبذلهم المجهود في كل شأن ، وهذا كله يجعل الناس قادرين علي المشاركة في المجد الإلهي (6) .

وذلك مثلما يشاركون في الأصول والغايات الحقيقية لكل موجود أو كل مايشترك إلى الوجود حسب روية لبيتز.

1 زكريا الفايد . العلمانية النشأة والاثار في الشرق والغرب ، المرجع السابق، ص 29

2 زكريا الفايد . المرجع نفسه- ص 30

3 اميل بوترو، العلم والدين في الفلسفة المعاصرة ، المرجع السابق ص 19-20.

4 المرجع نفسه والصفحة نفسها .

5 عزمي اسلام . مدخل الي الميتافيزيقا. مكتبة سعيد رافت ، جامعة عين شمس 1977، ص 48 .

6 اسيل بوترو. العلم والدين في الفلسفة المعاصرة ، المرجع السابق ، ص 22

بينما نجد جون لوك. يرى أن : " فكرة اللانهائي التي يعتبرها ديكرت فكرة طبيعية ، حيث استنتج عن طريقها وجود الله ذلك انه استنتج من شكه انه ناقص، ويرى أن : " أن هذه الفكرة جاءت نتيجة تركيب العقل من الأفكار البسيطة المستمدة من التجربة الحسية (1) أي أن التجربة هي منبع المعرفة ، والمصدر الوحيد لكافة الأفكار .

كما نادى لوك بالفصل بين الدولة والكنيسة علي أساس : " أن هدف الدولة الحياة الدنيوية ، وهدف الكنيسة الحياة السماوية ، ونحن نولد ملك للوطن لا ملك للكنيسة ، ولما كان المجتمع المدني قائما علي مصالح الكثير ، فليس للدولة أن ترى العقيدة الدينية في التشريع ، ولا محل للقول بدولة دينية(2).

*أما في القرن الثامن عشر فقد شهدت فرنسا ، قبل الثورة حركة فكرية واسعة وقوية ، عرفت بحركة التنوير وقبل أن نعرض لأراء ومذهب بعض مفكري القرن الثامن عشر إذا نعرض أولا لواحد من مفكري نزعة الشك الذي زود عصر نقدي في حملته علي المؤسسات الدينية والاجتماعية ، وهذا المفكر بيم- بيل Beem-bell (1647-1706) م .

ولا يمكن التوفيق بينهما ، وعلى المرء بالضرورة ان يختار بين الفلسفة والإنجيل لأن الإنسان لا يمكن أن يجمع بين الوضوح والغموض في صعيداً واحداً(3) كما هاجم بيل أي دفاع فكري عن الإيمان الديني، وعنده " أن حقيقة وجود الله لا هي واضحة وضوحاً مباشراً ، ولا هي قابلة لإثبات ، كما كان يسعى لتقديم أخلاق علمانية مستقلة عن الدين وعن مذهب الألوهية النظري" (4) هكذا يقدم بيل مزيجاً شخصياً من الشك النظري والأخلاق العلمانية .

مع الثلث الأول من القرن الثامن عشر يصل علينا الناقد الاجتماعي والمفكر السياسي مونتسكيو (1755-1789م) برأي يرى فيه : أهمية الفصل بين الأخلاق المسيحية والأخلاق الوضعية، مركز علي النزعة القومية وعلي القوانين الوضعية كتشريع للبلاد (5)، أما فولتير " فلم يصنع أفكاره صياغة منهجية حاسمة وخاصة فيما يتعلق باللهو طبيعة وحضوره في العالم، إلا انه ورغم ذلك يمكن القول انه كان ملتزماً بنمط من مذاهب الألوهية الفلسفي يعادي فيه المسيحية من جهة ، والإلحاد من جهة أخرى ، وعنده : " أن الله لا يخلق العالم بطريق الخلق الحر بل أن هذا الخلق صادر عنه بالضرورة لا بالاختيار (6) وأضاف فولتير إلى هذا : " رفض فكرة العناية الإلهية ، وأوقفها علي العناية بالكليات لا بالجزئيات بمعنى ان عناية الله بالعالم لا ترجع إلا إلى قوانين العامة التي وضعها فيها الله ، دون مد عانيته إلى سائر

1 فيصل عباس . موسوعة الفلاسفة ، المرجع السابق ص 105
2 فيصل عباس ، موسوعة الفلاسفة ، المرجع السابق ، ص 105
النشأة والاثار في الشرق والغرب ، المرجع السابق ص 34
السابق ص 181
جيمس كوليتز - الله في الفلسفة الحديثة ، المرجع السابق ، ص 204
3 زكريا الفايد. العلمانية
4 جيمس كوليتز . الله في الفلسفة الحديثة - المرجع
5 يوسف كرم - تاريخ الفلسفة الحديثة . المرجع السابق - ص 194 . 6
جيمس كوليتز - الله في الفلسفة الحديثة ، المرجع السابق ، ص 204

الأحداث الجارية في العالم " (1) ويرفض فولتير جميع تعاليم الديانة التقليدية في صفات الله ، لكونها تفتقر للبرهان من جهة ؛ ومن جهة أخرى يرفض الإلحاد لكونه يشكل خطراً على النظام الاجتماعي .

وفي جانب آخر تحدث جان جاك روسو 1712-1778م عن دين مدني للمجتمع ، في نفس الوقت الذي أنكر فيه المسيحية لفصلها ماهو روعي عما هو سياسي ، " وبالرغم من تأكيد روسو علي وجود الله وغايته ، وعلي الثواب والعقاب ، في الآخرة ، فانه قد أقام براهين وجود الله والتشريع في الأخلاق وعلي العاطفة دون العقل (2) " وهو بهذا يتجه بالروتستانتية إلى طريق جديد ، تعتمد فيه علي العقل بشكل أساسي متمثلة فيما سمي باللاهوت الطبيعي الذي بدا يتراكم منذ ظهور البروتستانتية في ألمانيا علي يد لوثر (3) ولذلك كان اثر روسو الفكري الأهم في الثورة الفرنسية .

أما ديدور (1713-1784م) "الذي قام مع اقرانه من الأدباء والعلماء والفلاسفة بوضع موسوعة ضخمة في العلوم والفنون ، أمثال دالمبير وفولتير وروسو ، وقد كانت مثار لحملات عنيفة من جانب المتدينين لقوله : بعدم جدوى المذاهب الدينية والميتافيزيقية" (4) وكان المعيار الذي علي أساسه كتبت هذه الموسوعة هو المعرفة العلمية البحتة والتطبيقية

ولهذا فقد وجب عنده تنحية الله من ميدان البحث العلمي حتى يستطيع هذا البحث أن يحقق استقلاله . ويعتبر موقفه نموذجاً مميزاً لمحنة عصر التنوير أزاا الله والدين من حيث استعداداه لإلغاء الدين المنزل والطبيعي ، وهو المتعلق بإرادة الفلاسفة الألوهيين تجاه الله والدين – في سبيل استغلال الموارد الطبيعية والسيطرة على الطبيعة، في نفس الوقت الذي يستعان فيه بالله والدين من أجل الالتزام الخلقي في المجتمع (5).

-
- 1 يوسف كرم . تاريخ الفلسفة الحديثة ، المرجع السابق ص 191
 - 2 يوسف كرم ، تاريخ الفلسفة الحديثة ، المرجع السابق ، الصفحة نفسها
 - 3 زكريا الفايد . العلمانية النشأة والاثر في الشرق والغرب ، المرجع السابق ص 36.
 - 4جيمس كولنز ، الله في الفلسفة الحديثة ، المرجع السابق ، ص 204 5 زكريا الفايد ، العلمانية النشأة والاثار في الشرق والغرب ، المرجع السابق ص 36 .

الفصل الثاني

العلمانية في العالم الإسلامي

المبحث الأول

الجزور الأولى للعلمانية في الدولة الإسلامية

المطلب الأول

نشأة العلمانية في الدولة الإسلامية .

المطلب الثاني

المراحل التي مرت بها العلمانية .

المطلب الثالث

مظاهر العلمانية في العالم الإسلامي .

المطلب الرابع

أثار العلمانية في العالم الإسلامي .

المبحث الأول :

* الجذور الأولى للعلمانية في الدولة الإسلامية :

دخل الفكر الوضعي إلى العالم الإسلامي ونما وترعرع وساد فكرا وسلوكا في صور مختلفة تمثل في العلمانية .

فالفكر العلماني له قلب هو الفكر الواقعي الوصفي ، وله جناحان أحدهما الفكر المادي الذي ساد في أوروبا الغربية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، وثانيهما الفكر الشيوعي الماركسي.

وقد شاع هذا الفكر العلماني بقلبه وجناحيه في العالم الإسلامي .

المطلب الأول : نشأة العلمانية في الدولة الإسلامية :

إجتاحت العلمانية العالم الإسلامي ، ضمن إجتياجها للعالم ، وانتقال العلمانية إلى المنطقة الإسلامية كانت عملية مخططة ومقصودة ، دبرها ونفذها حينئذ الغزو الفكري الصليبي للمسلمين ، من مستعمرين ومبشرين ومستشرقين وأعانهم صنائعهم من أبناء المسلمين ، ومشاركوهم في الدين من نصارى الشرق والمنطقة العربية .

و " الحقيقة أن نشأة العلمانية في أوروبا ربما يكون لها ما يسوغها ، من الوجهة المنطقية ، حيث الدين المحرف ، والكنيسة المتسلطة ، والنهضة الثائرة ، فكانت العلمانية هناك ، بمثابة رد فعل ، لكن الأمر مختلف فيما يتعلق بالإسلام إذا ليس في ظروف الشرق الإسلامي التاريخي ما يبرر فصل الدين عن الدولة ، فلم يكن هناك إضطهاد من رجال

الدين الإسلامي ولم يقع إضطهاد من علماء المسلمين للعلم والعلماء ، ولم يكن في تاريخنا الإسلامي محاكم تفتيش ولاصكوك غفران وقرارات حرمان (1) .

" كذلك لم تكن الديانة الإسلامية لتسمح بالفصل بين الدين و الدولة ، لأن الدولة في فقه الإسلام قسم للدين ، لا قسم فلا دين بغير دولة ولا دولة بغير دين " (2) .

بدأت فكرة العلمانية تغزو العالم الإسلامي منذ زمن طويل لكنها لم تتمكن إلا في بداية القرن العشرين الميلادي .

- حيث طبقت - على مستوى الدولة - على أنقاض الخلافة العثمانية ثم سرت إلى أكثر بلدانبرغم ذلك نفذت العلمانية إلى الحياة الإسلامية .

1 - أحمد عبده حموده الجمل - في المذاهب المعاصرة دراسة لطائفة من مذاهب العلم والفكر المعاصرة من منظور إسلامي ، دار الطباعة المحمدية ط الأولى 1991- 1411 هـ . ص 48 .

- د / علي محمد جريشة - محمد شرف الزبيق ، اساليب الغزو والفكر للعالم الإسلامي ، مرجع سابق ، ص 61 .

العالم الإسلامي وكانت هناك عدة عوامل رئيسية ساعدت على ظهور إنتقال العلمانية إلى العالم الإسلامي وإنتشارها فيه :

1 - الإنحراف في القيدة .

2 - ضعف وتخلف المسلمين .

3 - قصور الإحتهاد الققص .

4 - الإستعمار الغربي .

5 - المنثبرون و المستزقون .

6 - الشرقيون ومؤسسات التوجيه في العالم الإسلامي(1) .

أولا : الإنحراف في العقيدة الإسلامية :

تأخر الأمة الإسلامية وإنحطاطها في القرون الأخيرة حديث طويل ومتشعب ولكن السمة البارزة في ذلك التأخر هي الإنحراف عن فهم الإسلام نفسه وإنحسار مفهوماته التصويرية في معان ضيقة ومدولات محدودة ، وهذا الإنحراف هو نتيجة وسبب في آن واحد .

وعلى سبيل الإجمال نستطيع أن نقول : كما أن العلمانية ظهرت في أوروبا نتيجة لتحريف

الدين النصراني ، فقد ظهرت في العالم الإسلامي نتيجة إنحراف المسلمين .

أما مظاهر هذا الإنحراف فيمكن إيجازها فيما يلي :

1 - الإنحراف في مفهوم الأولهية .

لن نتحدث - الآن - عن التضاد التام بين عقيدة لا إله إلا الله وبين العلمانية ، فذلك الحديث موضع آخر ، لكننا سنتناول بإيجاز الحالة الواقعة تاريخيا في العصور الأخيرة الإسلامية .

إن بعض علماء السلف يقسمون توحيد الأولهية قسمين متلازمين :

أ - توحيد الطاعة والإتباع (الحاكمية) .

ب - توحيد الإرادة والقصد (العبادة) .

وبناء على هذا التقسيم سنجد أن حالة الأمة الإسلامية كما يلي :

(أ) في الطاعة والإتباع (الحاكمية) :

1 - في المذاهب المعاصرة ، مرجع سابق ، ص 49

نسى المسلمون تلك القاعدة التوحيدية العظمى : لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، وغفلوا عن معصية الخالق ، وغفلوا عن قوله تعالى : " إتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء " (الأعراف : 1) .

" وبذلك صرفوا هذا النوع من العبادة أو جزءا منه على الحكم والولاء وعلماء المذاهب المتعصبين ومشايخ الطرق ، بالإضافة إلى المشعوذين الذين تهياً لهم الجو بما كان يسيطر على الأمة من جهل وسذاجة ، وقد كانت الدول التي تنقسم العالم الإسلامي ، ثلاث دول : الدولة المغولية في الهند ، والدولة الصوفية في فارس ، ثم الدولة العثمانية في حوض البحر الأبيض المتوسط " .

" وبالنسبة للدولة الصوفية يمكن القول بأنها كانت منحرفة إنحرافا يجعل إنتسى بها الإسلام إسميا فقط فقد كانت شيعية ، وكان الحكم فيها يجرى على أهواء علماء الشيعة المتعصبين ، وكان الشغل الشاغل لملوكها مهاجمة الدولة العثمانية لا لشيء إلا أنها سنية ، وكان العوام يقدسون الملوك والعلماء بناء على المذهب الرافضي الذي يجيز العصمة لغير الأنبياء " (1) .

ب - الإنحراف في توحيد الإرادة والقصد و " العبادة " .

" ظهرت الصوفية في العصر العباسي لأسباب تاريخية ، منها ضعف الخلافة المركزية أو إنحرافها و إنغماس الناس في الترف وإنصرافهم عن الإهتمام بالدار الآخرة ، وكان من الأخطاء الأساسية في الفكر الصوفي النظرة العدائية إلى الحياة الدنيا التي يبدو أنها متأثرة بالفكر البوذي والفلسفة الإغريقية وحدث أن أقبل العامة بقيادة المتصوفين وأقبل الحكام ومن في حواشيهم على الشهوات والملذات . وهذا الخط الصوفي الأحمق يعتبر أول تصدع أصاب كيان الأمة الإسلامية " (2) .

2 - الإنحراف في مفهوم الإيمان بالقدر :

لقد كتب أحد المستشرقين الألمان ، وهو يؤرخ لحال المسلمين في عصورهم الأخيرة يقول : " طبيعة المسلم التسليم للإرادة والرضا بقضائه وقدره والخضوع بكل ما يملك للواحد القهار ، وكان لهذه الطاعة أثران مختلفان ، ففي العصر الإسلامي الأول لعبت دورا كبيرا في الحروب إذا حققت نصرا متواصلا ، لأنها دفعت في الجندي روح الفداء ، وفي العصور الأخيرة كانت سببا في الجمود الذي خيم على العالم الإسلامي فقذف به إلى الإنحدار وعزله وطواه عن تيارات الأحداث العالمية(3) " .

إن هذا الرجل - وهو كافر - أدرك هذه الحقيقة ، حقيقة الفرق بين الإيمان بالقدر كما فهمه السلف ، وبين الإيمان الذي ابتدعه الخلف متأثرين بالمتصوفة فالذنب ليس ذنب العقيدة بل ذنب المعتقدين.

" فالعقيدة القوية الصحيحة هي دون شك أقوى مانع ضد أقوى عاصم من الوقوع فريسة الفكر

1 - سورة الأعراف ، الآية 3 .

3 - بول شمتز ، الإسلام قوة الغد العالمية : ص 78 .

الغريب والمعادي(1) " .

وفيما يتعلق بالعقيدة الإسلامية ، فإنها أساس بناء الحياة الإسلامية والشخصية الإسلامية ، وخط دفاع حصين أمام أسباب الضعف والتفرق في الصف الإسلامي والحقيقة أن المسلمين حيث تمكنت العقيدة الصحيحة فيهم ، كانوا قوة شاملة كاملة ، تعلي كلمة الله ، وتنمي كل جوانب الحياة وتكسر العقبات وتبدد المشكلات وما فتحت الحياة عن المسلمين ، وما فتح المسلمون أقطار الدنيا إلا بسلاح العقيدة ، الذي وحدهم وحبب إليهم الشهادة في سبيل الله .

فالمسلمون بالعقيدة مثلوا قوة عالمية ، وهم بالعقيدة سادوا وقادوا وأثروا وبنوا حضارة عظيمة وقفت شامخة ، وتفاعلت مع الحضارات الأخرى ، وبالعقيدة المتمكنة وقف المسلمون أمام أوروبا الصليبية بخيلها ورجالها وقسوتها وعتوها ، في حرب دينية صليبية استغرقت قرنين من الزمان.

" وبعد ما أصاب عقيدة المسلمين بأمراض التحريف والضعف ، فخف فيه أثرها في القلوب وتشوهت فيه مفهوماتها في العقول " .

وأكثر ما أصاب العقيدة أصابها في جوانب التوحيد والقضاء والقدر ، والتوكل ، وهي العقائد التي تؤكد على تقوية النفس ، وتحرر القلب ، والإندفاع نحو العمل والترقي (2) .

إن الشعوب الغربية " استطاعت " أن تنطلق في ميادين العلم المادي حين تحررت من ظل الكنيسة .

ولكن الشعوب المسلمة كانت تحمل لواء العلم والحضارة حين كان الوعي الديني يقضا في

قلوب أبناءها (3) " .

وهكذا كان الأمر كما قال الإمام محمد عبده : (ما استطاعت الشعوب النصرانية أن تتقدم إلى حين تخلت عن عقيدتها ، وما استطاعت الشعوب المسلمة أن تتقدم إلا حين تمسكت بعقيدتها (4) " .

ففي العصور الأخيرة حرف مفهوم القضاء والقدر فإتخذ المسلمون من الإيمان بالقدر مبررا واهيا لعجزهم وإنهيارهم ، متناسين أن أقدار الله أنما تجري عليهم وفق سنته الثانية التي أوضحها لهم ، لكنهم غفلوا عنها وأهملوها ... وإنقلب التوكل الذي كان الباعث القوي لحركة الجهاد والإنطلاق في الأرض بأسباب الحياة إلى تواكل رخيص مذموم (5) " .

1 - أحمد عبده حموده الجمل ، في المذاهب المعاصرة ، مرجع سابق ، ص 50 .

2 - محمد قطب ، الثقافة الإسلامية المستوى 401 - جامعة أم القرى بمكة ، ص 65 .

3 - أحمد عبده حموده الجمل ، في المذاهب المعاصرة ، مرجع سابق ، ص 51 .

4 - محمد أمين المصري ، المجتمع الإسلامي ، الطبعة الأولى 1400 هـ - 1980 م دار الأمم الكويت .

5 - العلمانية نشأتها وتطورها وأنارها في الحياة الإسلامية المعاصرة ، مرجع سابق ، ص 520 .

وهذا الانحراف في مفهوم القدر والتوكل دخل المسلمون به في دور الجمود والتأخر والجهالة والفقر ، وظهر الإسلام على أنه دين السلبيّة والكسل والتواكل وهذا كاف في تهيئة النفوس لتقبل الأفكار الأخرى ، وإستشراق الأنظمة الوضعية ، أما أوروبا هي النموذج الجيد لتقدم القرون الأخيرة ، كان الإستعداد لتقبل الفكر الأوروبي والثقافة الأوروبية وكل ما هو أوروبي على و أقوى ما يكون .

* ثانيا : ضعف وتخلف المسلمين :

ثغرة أخرى من الثغرات التي تسلك منها العلمانية الغربية إلى البيئة الإسلامية .

ونجد أن التحريف في مفهوم بعض العقائد الإسلامية كان قد دخل في ضعف المسلمين وعودهم عن العمل والركون إلى التواكل .

وما حاق بالحياة الإسلامية من ضعف وتخلف ، واكب يقظة أوروبا ونهضتها ، فظهرت على الساحة الإسلامية تباشير الدعوة إلى أبعاد الدين عن الحياة ، إستلهاما من الموقع الأوروبي ، وإيماء - إلى أن النهضات لا تنشأ ولا تقوم إلا حين تقطع الصلة بالدين ، بالإضافة إلى أن الإحساس بالضعف والتأخر يؤلم الإحساس بالنقص والإحساس بالنقص مدخل واسع لتقليد القوى وإتباعه والأخذ عنه والسير وراءه وهذا ما حدث لنا مع أوروبا .

" لقد مر الإتصال والتأثير بين المجتمع الإسلامي ... والمجتمع الأوروبي الغربي بمراحل متعاقبة ، كان أولها ، مرحلة الذهول والدهشة والإعجاب والشعور بالنقص ، ثم كانت

مرحلة النقل والتقليد و الإقتباس " . (1)

إن الحضارة الغربية الحديثة بهرتنا " فكان من آثار من الإنبهار ذلك السعي التقليدي الأعمى وراء أوربا ، أملاً في نهضة كنهضتها ، وأصبحنا نلتمس الإصلاح من السبل ذاتها التي تلمستها أوربا ، وأخذنا نضع الإسلام في الميزان ذاته الذي وضعت فيه أوربا دينها ، كل ذلك بدافع من مركب النقص الذي لحق بنا ، والإنبهار الذي عيشته له أبصارنا (2) .

ولنا أن نقول : إن الإنبهار بالغرب لم يترك للمسلمين وقتاً يراجعون فيه حساباتهم ، ويبحثون أسباب تخلوهم وضعفهم .

فشاعت في عالم الإسلام ، الإتجاهات المادية الإلحادية ، والأفكار الوضعية ، وكانت مع ذلك العلمانية .

1 - محمد قطب وآخرون الثقافة الإسلامية المستوى 401 ، ، ص 143 .

2 - د / محمد سعيد رمضان البوض ، من المسئول على تخلف المسلمين ، مؤسسة الرسالة ، مكتبة الفارابي ، دمشق سوريا ، 1401 هـ - 1981 م ، ص 47 .

ثالثاً : قصور الإجتهد الفقهي :

يعتبر عامل حاسم في تقبل البيئة الإسلامية للفكر العلماني الغربي .

والإجتهد يعني بذل الجهد الإستنباط لأحكام الشرعية العملية من أدلتها التفصيلية ، والإجتهد بهذا المعنى " بدأ في عصر التنزيل وإتسع نطاقه وزاد نشاطه في العصور التالية حسبما إقتضته الحاجة وتطلبه مصلحة الأمة الإسلامية " (1) .

وهذا الإجتهد الفقهي - قد برز في عهد النبي - صلى الله عليه وسلم - وظل يتطور ويتنامى وتتسع دائرته حتى تسرب إليه مرض الجمود والركود والتخلف عن أمداد المسلمين ، في الحوادث والوقائع المستجدة لقد مرض بالجمود والقصور منذ القرن الرابع الهجري تقريباً بعد أن تكونت المذاهب الفقهية وبعد أن إشتغل بالفقه فقهاء عظام من أولهم الأربعة : أبو حنيفة ومالك والشافعي وأحمد - رضي الله عنهم - .

ولظروف يغلب عليها الطابع السياسي تركز الجمود في فقه المعاملات دون فقه العبادات ، " ومن هنا نشأ ذلك التضخم في فقه العبادات في العصور المظلمة (2) " .

وقد نتج عن ذلك تقلص ظل الشريعة الإسلامية عن واقع الإسلامية ، وكان ما كان من إقبال على التشريعات الوضعية ذات المصدر الغربي .

" وظلت القوانين المستوردة تحتل رويداً رويداً مواقع جديدة من الحياة الإسلامية - دون أن

تلفت النظر إلى خطورتها ، إلى أن جاء الوقت الذي أصبح إقتباس هذه القوانين أمر مقررًا ، ومنهجًا ، لا غبار عليه " (3) .

رابعًا : الإستعمار الغربي :

دب الضعف في أوصل الخلافة العثمانية ، فلاحث الفرصة الذهبية للحقد الصليبي للتنفيس عن مخزون العداء للإسلام (5) ولقد تعرض العالم الإسلامي لهجمات قوية من قبل أعدائه عبر عصور التاريخ ، ولكن لما كان المسلمون متمسكين بدينهم وأكثر إستعداد للجهاد في سبيل الله إستطاعوا أن يردوا حملات أعدائهم ، ولكن لما ضعف المسلمون وكثرت فيهم البدع والخرافات واحتاجتهم الطرق الصوفية ، وإستلم البعض إلى ملذات الدنيا ، والبعض الآخر بدأ يتشبث

1 - محمد علي السائس و نشأة الفقه الإجتهادي ، وأطواره ، الكتاب التاسع من إصدارات مجمع البحوث الإسلامية ، 1389 هـ - 1970 م - ص 13 .

2 - المصدر نفسه - ص 14 .

3 - أنور الجندي ، في تراجم الإعلام المحاصرين في العالم الإسلامي ، وما بعدها ترجمة محمد بن عبد الوهاب ، الطبعة الأولى 1970 ، مكتبة الأنجلو المصرية ص 393 .

4 - في المذاهب المعاصرة ، مرجع سابق ، ص 61 .

5 - الثقافة الإسلامية المستوى 401 ، مرجع سابق ، ص 63 - 64 .

بالأفكار الوافدة وقعدوا عن الجهاد (1) بعد ذلك إنقض عليهم الأعداء من كل جانب ولم تنته الحربان العالميتان إلا و " كثير من البلدان الإسلامية تحت سيطرة الإستعمار ولم يكن مخطط الإستعمار ، أن يستغل خيرات تلك البلاد ويستعمر بلادها فحسب - كما يظن البعض - بل كان أهم مخططاته محاربة الإسلام ، وتجهيل المسلمين بحقيقة دينهم بجميع الوسائل الممكنة له : الظاهرة والخفية " .

ونذكر أهم الوسائل التي إستعملها الإستعمار في محاربة المسلمين :

أ - نشر الثقافة الغربية على نطاق واسع ، مع السعي في التخفيف من الثقافة العربية الإسلامية أو القضاء عليها .

ب - تشجيع مدارس التبشير المسيحي لكي ينصرف أبناء المسلمين إليها تاركين مدارسهم الإسلامية .

ج - تشجيع الطوائف المنحرفة التي تعمل بإسم الإسلام في ميدان الدعوة .

هـ - إعتبار اللغة الإنجليزية لغة رسمية في كثير من البلدان العربية .

وبسبب الإستعمار والتبشير إنتشرت المعتقدات العلمانية في العالم الإسلامي .

وقد حرص الغرب منذ وطئت أقدامه أراضي المسلمين عن نشر العلمانية بأكثر من سبيل وكان أهم مجالات نشرها ووسائلها فيما يلي :

- 1 - في التعليم وله في ذلك أكثر من سبيل أهمها :
 - أ - حصر التعليم الديني وحصاره ماديا ومعنويا .
 - ب - الإبتعاث إلى الدول الغير إسلامية ، وقد حقق ذلك الإبتعاث نتائج المقصودة .
 - ج - نشر المدارس الأجنبية في البلاد الإسلامية .
 - د - تمميع المناهج الإسلامية بإسم التطور .
 - هـ - نشر الإختلاط بين الجنسين في مراحل التعليم .
- 2 - في الإعلام والإعلام يخاطب الملايين من الناس ببرامجه وقد تكون هذه البرامج ساذجة .
- 3 - إبعاد الإسلام عن مجال التطبيق .

1 - سعيد القحطاني - ، تغريب العالم الإسلامي ، ص 122 .

ومما يدل على دور الإستعمار في نقل العلمانية إلى البلدان الإسلامية أن أول عمل قام به الإنجليز في الهند هو إلغاء الشريعة الإسلامية ، وأول عمل قام به نابليون في مصر هو تعطيل الشريعة الإسلامية وإحلال القانون الفرنسي محلها ، وأول عمل قام به المخطط اليهودي الصليبي في تركيا هو إلغاء الشريعة الإسلامية ثم إعلان تركيا دولة لادينية (1) .

خامسا : المبشرون والمستشرقون .

هؤلاء جند من جنود الغزو الفكري للعالم الإسلامي ، عملوا في صفوف الحرب الفكرية - وإستخدموا أسلحة جد خطيرة لنقل العلمانية إلى العالم الإسلامي وإستنباتها فيه .

فالمبشرون : إلتزموا بالعمل لخدمة هدفين خطيرين هما : التكفير والتنصير ووظفوا لبلوغهما إمكانيات متعددة وهذان الهدفان يخدمان العلمانية بوضوح ، إذ ليس بعد أن يكفر المسلم أو ينتصر من أمر آخر يخدم القضية العلمانية ، وقد إستفاد المبشرون في عملهم للعلمانية من المجالات التي عملوا فيها وبخاصة : التعليم ، والخدمات الصحية ، والخدمات الإجتماعية .

أما المستشرقون : فقد عملوا تحت راية التكفير ، وحاولوا من خلال أبحاثهم ودراساتهم ، "تشكيك المسلمين أنفسهم في عقيدتهم ، بزعة المثل العليا للإسلام في نفوس أبنائه من ناحية وإثبات تفوق الحضارة الغربية من ناحية أخرى ، والهدف هو إسقاط توحيد الأولوية من جهة و تهوين شأن الآخذ من القوانين الوضعية من جهة أخرى " (2) .

سادسا : الشرقيون ومؤسسات التوجيه في العالم الإسلامي :

جاءت طوائف من أبناء الشرق والإسلام بأفكار الغرب وقيمة ونظمه وقد أدوا في جانب نقل الفكر العلماني والترويج له ودعمه ، أداءً قويا .

ونصارى الشرق كانوا عمداً قوية في الدعوة العلمانية عبر قنوات ثقافية فنية إعلامية .

ونجح الغرب في تأليف قلوب من قادة الفكر و السياسيين في العالم الإسلامي فكانوا أداة فعالة في إشاعة الفكر العلماني ويمكن أن يضاف إلى عوامل إنتقال العلمانية إلى العالم الإسلامي ، المؤسسات التعليمية العلمانية في العالم الإسلامي التي تولت مهمة تربية أجيال علمانية خرج منها

القادة والساسة المفكرون الذين وضعت أقدر البلاد والعباد في أيديهم فقد دفعوا التيار الإسلامي دفعا قويا(3).

1 - مجلة البيان ، الكويت ، عدد 195 ، ص 43-41 .

2 - جلال العالم ، قادة الغرب يقولون دمروا الإسلام وأبيدوا أهله ، والمختار الإسلامي للطبع والنشر والتوزيع ، ص 43 .

3 - د . محمد علي - الدكتور عبد الفتاح عليان ، أضواء على الاستشراق ، ط 1 ، 1400 هـ - 1980 م .

المطلب الثاني: المراحل التي مرت ها العلمانية :

" في الأزمنة الماضية لا تكاد تعثر على مسلم يشن الحرب على الإسلام ، ويتنكر له وخصوصا في مجال النظام السياسي ، بل أن زمن هذه الحرب حديث جدا لا يزيد على قرنين من الزمان"(1)

" فقد بدأ مع بداية إنتشار الفكر العلماني الذي دعت إليه الثورة الفرنسية عام 1789 م ومن ذلك الحين ، وبفعل مجموعة من الأسباب التي مر الحديث عنها - بدأ ذلك الفكر يسير إلى بلاد المسلمين ، وبدأ التوجه العلماني في بعض الدول يؤتي ثماره ، وينتج نتائج في العديد من مجالات الحياة ، ويمهد لقيام العلمانية ، ولقد كانت تظهر بعض المقولات ، أو الفقرات في كتابات بعض الناس لتعلن عن الفكرة العثمانية غير أنها كانت فقرات قصيرة مع كلام كثير قد لا يفطن لها الكثيرون بحيث يمرون عليها دون أن يلحقوا لها بالاً "(2) .

ربما لم يبين لهم ما وراءها، وطال الحال على هذا المنوال حيناً من الدهر حتى أفصحت العلمانية في المجال السياسي عن نفسها إفصاحاً كاملاً ؛ أول خطوات العلمانية في العالم الإسلامي ، كانت في الهند على يد الإستعمار الإنجليزي ، ويذكر أبو الأعلى المودودي : " أن أول قطر بدأ فيه إلغاء الشريعة الإسلامية هو الهند ، بيان ذلك :

أن الشريعة الإسلامية هي التي كانت قانون الدولة إمام في الهند ، حيث بعد أن قام فيها الحكم الإنجليزي ، فكانت يد السارق مثلاً تقطع فيها إلى سنة 1791 ولكن الإنجليز أخذوا بعد ذلك يلغون القانون الإسلامي ويستبدلون به القوانين الوضعية ، حتى تم إلغاؤه في أواسط القرن التاسع عشر ، ولم يبق منه تحت النفاذ إلا ما كان يتعلق بمسائل النكاح

والطلاق ، وغيرهما ، على إعتبره قانون المسلمين لأحوالهم الشخصية (3) " .

ثم إثر الهند الجزائر ، حيث بدأ إلغاء الشريعة فيها عقب الإحتلال الفرنسي سنة 1830 م .

أما مصر فقد دخلت العلمانية مصر مع حملة نابليون وأدخل إسماعيل باشا خديوي عميل فرنسا القانون الفرنسي إليها حوالي سنة 1883/1884 م وقد كان هذا الخديوي مفتونا بالغرب ، وكان أصله أن يجعل من مصر قطعة من أوروبا . ولم تترك في حوزة المحاكم الشرعية وإختصاصاتها إلا الفصل في مسائل المسلمين الشخصية ، كالنكاح والطلاق والإرث ونحوها (4).

ثم تونس : التي أدخل القانون الفرنسي فيها سنة 1906 م .

ثم المغرب : أدخل القانون الفرنسي فيها سنة 1913 م .

1 - جورج طرابلس ، هرطقات عن الديمقراطية والعلمانية والحداثة والممانعة العربية ، - دار الساقى - رابطة العقلايين العرب - ص 36 .

2 - موسوعة المذاهب الفكرية المعاصرة - الفصل الرابع - المطلب الحادي عشر العلمانية ص 179 .

3 - أبو الأعلى المودودي ، القانون الإسلامي وطرق تنفيذه ، دار المختار الإسلامية للطبع والنشر والتوزيع - ص 9 .

4 - أحمد عبده حموده الجمل ، في المذاهب المعاصرة ، مرجع سابق ص 74 .

ثم العراق والشام ألغيت فيها الشريعة إلغاء الخلافة العثمانية وتبنت أقدام الإنجليز والفرنسيين فيها .

" أما تركيا ، فإن العلمانية قد بدأت تجد لها مكانا فيها منذ عام 1839 ، حيث أصدر السلطان عبد المجيد ، مرسومة الشهير ، الذي أشار فيه إلى أن الفقه الإسلامي قد أصابه القصور ، وتخلف عن الحياة الجديدة ، كما ربط بين ذلك وبين تبدل قوة الأتراك إلى ضعف وغناهم إلى فقر ، ثم قال : تأسيسا على ذلك " .

" وقد روى من الآن (أي سنة 1839-1200 هـ) وهو عام صدور المرسوم ، فصاعدا أهمية لزوم وضع وتأسيس قوانين جديدة تتحسن بها إدارة ممالك دولتنا ، والمواد الأساسية لهذه القوانين هي عبارة عن الأمن على الأرواح وحفظ العرض والناموس والمال وتعيين الخراج ، وهيئة طلب العساكر للخدمة ، ومد إستخدامهم (1) .

" ولقد بدل دعاة العلمانية في تركيا جهودهم لعلمنة القانون وتدرجوا ففي كل عشر سنوات يتم علمنة جانب من جوانب القانون منذ سنة 1256 هـ - 1846) ، ثم صارت كل حوالي عشرين سنة ، حتى تمت أكبر علمنة بإعلان إلغاء ، الخلافة سنة 1343 هـ (1924 م) (2) .

" أما ألبانيا فقد أعلنت كذلك في القرن العشرين أنها دولة لا دينية كما فعلت تركيا فغيرت كل من تركيها وألبانيتها قوانينها حسب القوانين الإيطالية وسويسرا وفرنسا وأدخلت كل من قانون المسلمين لأحوال الشخصية لقديب أسافرة وحرقت أحكاما قرأوا ضحة القطعية قوانينها المتعلقة بالنكاح والطلاق والإرث في تركيا " (3) .

المطلب الثالث : مظاهر العلمانية في العالم الإسلامي :

يكشف الواقع المعاصر في العالم الإسلامي عن وجود قوة للعلمانية في جميع نواحي الحياة ففي كل المجالات والاتجاهات نجد النظم البشرية الوضعية هي المستحكمة في حركة الحياة الإسلامية فسنعرض بعض هذه المظاهر ومن خلال العرض سيتضح لنا إن تلك المظاهر ما كانت لتوجد ، لولا العوامل الذاتية الكاملة في أنفسنا ومجتمعاتنا .

أولا : في التشريع والقضاء :

العلمانية منهج يخالف الإسلام ، لأنها في أبسط الأمور حكم بغير ما أنزل الله " (5) .

1 - العلمانية نشأتها وتطورها ، مرجع سابق ص 563 ، 564 .

2 - أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي ، مرجع سابق ، ص 74 .

3 - القانون الإسلامي وطرق تنفيذه ، هامشي ، مرجع سابق ، ص 9 .

4 - أنظر : كواشف زبوف ص 380 ، ومذاهب فكرية معاصرة لمحمد قطب ص 466 ، والموسوعة المسيرة ص 370 .

5 - أحمد عبده جموده الجمل ، في المذاهب المعاصرة من منظور إسلامي ، مرجع سابق ص 77 .

لقد عطل الاستعمار العمل بالشرعية الإسلامية وشق الخلاف بين المسلمين والشرعية الإسلامية إتسع وتعمق حتى أصبحنا نرى على الساحة الإسلامية القوانين الوضعية هي الحاكمة ، والقضاء العلماني هو الشائع .

فظهرت القوانين تحمل أسماء عليها الطابع الغربي مثل " القانون المدني ، القانون الجنائي ، القانون

الدستوري وهكذا ، ومواد هذه القوانين مستقاة من القوانين الغربية ، إنجليزية وفرنسية وسويسرية وغيرها ... " .

فأنشئت كليات الحقوق لدراسة القوانين الوضعية ، باللغات الأجنبية بالذات الفرنسية ، ثم تدرس فيها الشريعة الإسلامية كمادة من الدرجة الثانية .

والقضاة الذين يقومون بتطبيق القوانين والفصل في الخصومات هم خريجو كليات الحقوق ، بما تتمناه هذه الكليات من خط علماني ، ومن الغريب أن بعض الذين يقضون بت لمسلمين ليسوا مسلمين ، وفي ذلك تولية لغير المسلم على المسلمين ، وهو ما يخالف قوله تعالى : " ولن يجعل الله الكافرين على المؤمنين سبيلا " (1) .

ومظاهر الإنحراف عن سبيل الله في التشريع والإنحراف ، أنه لا عقوبة على الزنا إذا كان يرضي الطرفين البالغين ، والعقوبة على الزنا في القانون الوضعي لا تكون وجوبية إلا إذا ثبت الإغتصاب ، أو إشتكى أي من الزانيين والعقوبة ليست هي العقوبة الشرعية .

إن " أكثر الدول الإسلامية ... تمت فيها علمنة القانون ، والدول التي لا تزال فيها بقايا تطبيق للشرعية ، تحيط بها المؤامرات من كل جانب لعلمنة القانون .

" ويجري التمهيد لهذه العلمنة بما يجري من (علمنة التعليم) و (علمنة الإعلام) فيوجد جيل علماني يقدر القوانين الوضعية " (2) .

إن الحكم بغير ما أنزل الله جعل الأمة الإسلامية تفقد شخصيتها وتذوب في غيرها من المجتمعات ، وحمل المسلمين أنفسهم على الإستهانة بشريعتهم ، والجرأة على مقدساتهم والسخرية و الإزدراء من معتقداتهم (3) ، ومن أشد مظاهر العلمانية جناية على الشريعة الإسلامية ، ما يزداد على السنة المسلمين أنفسهم من قصور الشريعة الإسلامية وإنقضاء عهد سيادتها وعجزها عن مسايرة التطور الحضاري ، ونسمع ذلك من المسلمين أنفسهم ، الذين دائماً يترددون : " قولوا لنا : لم يفلح الإسلام كشريعة حاكمة بعد عمر بن الخطاب ؟ إن الإسلام مجال المسجد لا غير ، هكذا يقول الواقع والتاريخ " (4) .

1 - سورة النساء ، من الآية (14) .

2 - أساليب الغزو الفكري ... مرجع سابق ص 74 .

3 - أحمد محمد جمال - قضايا معاصرة في محكمة الفكر الإسلامي .

4 - عباس محمد العقاد ، ماذا يقال عن الإسلام ، ضمن موسوعة عباس محمود العقاد الإسلامية ، المجلد الخامس ، دار الكتاب العربي ، ص 480 .

وفوق كل ذلك " فإن الذين تخرجوا من مدارس الحقوق وكلياتها قاموا بمواصلة عمل الأجانب في سن قوانين ، لا تستمد من شريعة الإسلام ، بل تستمد من قوانين الدولة المحتلة إنجلترا أو فرنسا أو غيرها ، وهم بطبيعة التكوين الثقافي الذي نشأوا عليه لا يستطيعون أن يجعلوا مصادر الشريعة الإسلامية والفقهاء الإسلامي مرجع لهم ، لأنهم لم يدرسوها ، حتى تتكون عندهم ملكة الإستنباط منها وفهم مصطلحاتها ، ومن رزق منهم حظاً من ذلك بهذا الخصوص ، لا تمكنه الدولة من وضع تشريع إسلامي تطبقه ، إذا وضعه في كتاب ونشره على الناس " (1) .

أن أخطر ما أصابتنا فيه العلمانية هو مجال التشريع والقضاء ذلك الذي أمعن في الأخذ بالتشريعات الوضعية حتى باتت القوانين كلها علمانية فيها عدا الأحوال الشخصية .

ثانياً : في الحكم والسياسة :

أشاع الإستعمار وأتباعه فكرة القومية ، ليدعم بهام مخططة في إضعاف المسلمين ، والسيطرة عليهم ، وإقصاء الوحدة الإسلامية .

بعد أن كان العالم الإسلامي وحدة سياسية مرتبطة تؤكد روح الإسلام والأخوة الإسلامية في ظل الخلافة الإسلامية . وجدناه بفعل الإستعمار الحديث أجزاء منفصلة ، هي دويلات ودول ، لكل منها حدود .

ونظمه وسياسته وسيادته ، و " بمقتضى إتفاقية (سايكس بيكو) توزعت عساكر الصليبيين على العالم الإسلامي ، عدا أجزاء قليلة ، وإبتدأت أجزاء قليلة ، وإبتدأت دوائر الإستعمار تنفذ مخططها المرسوم " (2) .

" وهكذا فإن لتيار الفكرة القومية كانت مهمته إقصاء الإسلام ، وتفريغ القضية السياسية والاجتماعية من المحتوى الإسلامي وإحلال فلسفة أخرى أو عقيدة أخرى محل عقيدته ، وذلك لعزل الشعوب الإسلامية بعضها عن بعض عزلا نهائيا ، وبذلك تنقطع الصلات بين الشعوب الإسلامية ، وتضعف روابط الثقافة المشتركة ، ولغة القرآن الكريم ، والقيم الخلقية ، ويقضي علالأخوة الإسلامية ، فما دام باب القومية قد فتح على المسلمين ، فقط كان طبيعيا أن تنتهي إلى ظهور القومية الكردية في العراق ، والبنغالية في الباكستان " (3) ، والبربرية في المغرب ، والفرعونية في مصر ، والفينيقية في سوريا ، والأشورية والبابلية في العراق أيضا ، والقومية العربية و القومية التركية ، وهكذا فالوطنية والقومية من إفراز البيئة الغربية ، ومن عائلة الفكر العلماني .

1- أحمد البيلي ، التطور الإسلامي لمناهج التربية ، ط الأولى سنة 1403 ، المركز العالمي للتعليم ، جامعة أم القرى مكة المكرمة ، ص 20
(5) 2. - العلمانية نشأتها وتطورها ... ، مرجع سابق ، ص 538

3 - أساليب الغزو الفكري - مرجع سابق ، ص 77 .

أما الوطنية تعني " أن يشعر جميع أبناء الوطن الواحد بالولاء لذلك الوطن والتعصب له ، أيا كانت أصولهم التي ينتمون إليها ، وأجناسهم التي إنحدروا منها أي الولاء فيها للأرض " .

ويرى الباحث : أن من أبرز مظاهر العلمانية في الحكم والسياسة ، هو إستبدال القومية والوطنية بالرابطة الإسلامية ، وقد أوحل ذلك دولا وأنظمة في السياسة والحكم بتعدد بتعدد مناطق العالم الإسلامي ، فالقومية والوطنية هي من أمور الجاهلية لا من أمور الإسلام لأنها تدعو إلى غير الإسلام .

إن القومية الوطنية ، وطرائق السياسة والحكم المتركة عليهما ، كل ذلك ليس من الإسلام في شيء ، فلقد " أجمع في المجتمع الإسلامي العربي والفارسي و الشامي والمصري والمغربي والتركي والصيني والهندي ... ، إلى آخر الأقوام والأجناس وتجمعت خصائصهم كلها لتحمل متمازجة متعاونة متناسقة في بناء المجتمع الإسلامي والحضارة الإسلامية ، ولم تكن هذه الحضارة الضخمة يوما ما (عربية) إنما كانت دائما (إسلامية) ولم تكن يوما (قومية) إنما كانت دائما (عقيدية) .

ولقد إجتمعوا كلهم على قدم المساواة و بأصرة الحب ، وبشعور التطلع إلى جهة واحدة (1) .

وكل ما خرج من دعوة الإسلام والقرآن من نسب وبلد وجنس أو مذهب فهو عز الجاهلية ، كما يقول الشيخ " ابن تيمية " - رحمه الله - ، مستشهداً بقوله - صلى الله عليه وسلم - { أبدعوى الجاهلية وأنا بين ظهوركم } (2) .

ومن مظاهر العلمانية أيضا في السياسة والحكم الأحزاب السياسية ، في غيبة الخلافة الإسلامية ، محاربة العمل الإسلامي وإجهاضه وقد كشف الوثائق عن وقوف بعض الدول الغربية والصهيونية وراء ضرب الحركات الإسلامية .

وطامة الطامات لمظاهر العلمانية عندما تقول لك القوميات صراحة " إن المشترك الذي يشاركك في قوميتك أقرب إليك من المسلم الذي ينتمي إلى قومية أخرى (3) .

وهذا ليس له من تحليل تشبع الأوضاع السياسية بالفكر الغربي " العلمانية " .

ولكن الإسلام ينكر أن تكون صلة التجمع شيئا غير الإسلام غير العقيدة الصحيحة في الله ، لا الدم ، ولا الأرض ولا اللغة ولا المصالح الأرضية " (4) .

ثالثا : في الإقتصاد :

إن أنشطة الإقتصاد في العالم الإسلامي الآن ، وبخاصة في مجال التجارة والاستثمار أو غلت فيها العلمانية في حياتنا الإقتصادية .

وأول مظاهر العلمانية إنحراف أنشطة الإقتصاد في العالم الإسلامي عن توجيهات الإسلام وأصول الإسلام ، وهو شيوع التعامل بالربا ، الذي حرمه الله تعالى ، وأباحته الجاهلية المعاصرة

1 - سيد قطب ، معالم في الطريق ، ط العاشرة سنة 1983 م ، دار الشروق ص 59 .

2 - أساليب الغزو الفكري ... ص 81 ، مرجع سابق .

3 - مذاهب فكرية معاصرة ، مرجع سابق ، ص 588 .

4 - المصدر نفسه ، 586-587 .

في إندفاعها العلماني بل أن دعاة العلمانية في المنطقة الإسلامية يحلو لهم دائما أن يقولوا ، " وأن أوقف عجلة التقدم الإقتصادي عندنا غير الإسلام ، عند ما حرم الربا ؟ (1) .

فالتعامل بالربا في غالب الدول الإسلامية أمر مشروع في نظر تلك الدول ، ولدى المؤسسات الإقتصادية من بنوك وأوعيه إستثمارية .

إن الصيغ الإقتصادية التي تحكم حركة المال في العالم الإسلامي الآن هي صيغ غير إسلامية.

و إن مناهج التعليم الإقتصادي في كليات التجارة وأمثالها مناهج علمانية ، ومؤسسات التشريع الإقتصادية علمانية ، وأوعية الإدخار والاستثمار علمانية .

من مظاهر علمانية الإقتصاد في العالم الإسلامي غياب فرضية الزكاة ، بل مصادرة هذه فريضة الزكاة الفريضة مع أن القيام على هذه الفريضة جمالاً وتوزيعاً هو معلم من معالم الإقتصاد الإسلامي .

رابعا : في الإجتماع و الأخلاق :

كثيرا ما كان يردد البعض منا : هذا هو الغرب بلا دين ولا أخلاق تقدم ، ونحن بالدين والأخلاق متأخرون ، إيماء إلى أن التقدم لا بد من الإنخلاع عن الدين والأخلاق .

ويمثل ذلك صار الطريق ممهداً لمهاجمة الأخلاق الإسلامية ، وإطراح مقومات المجتمع الإسلامي ، لحساب الأخلاق الوضعية ، والأخلاق ، ولحساب العادات والتقاليد المستوردة والعلاقات الاجتماعية الغربية .

لقد تسللت العلمانية إلى ميدان الاجتماع الأخلاق في العالم الإسلامي المعاصر ، من منطق دعوى باطلة أطلقها الغرب وعشت في أوهام المسلمين هي أن الإسلام بما قرره من ضوابط

للعلاقات الاجتماعية ومن أصول للأخلاق والسلوك كان سبب تخلف المسلمين وإنحدارهم ، وضعفهم وهوائهم .

ولما كان النقطة التي تجمع فيها أصول أخلاق و مقومات المجتمع المسلم هي المحافظة على العرض ، وأنها مفترق بين هذا المجتمع وغيره فقد وضعت المخططات الماكرة لسلب هذه الميزة بإفساد المرأة المسلمة (2) .

فالعلمانية قد وجدت لها في المرأة المسلمة طريقاً ممهداً ، لزعزعة المبادئ الإسلامية عن الأخلاق والسلوك الأخلاقي ، وعلاقات المجتمع .

1 - من المسئول عن تخلف المسلمين ؟ مرجع سابق ، ص 14 .

2 - العلمانية نشأتها وتطورها ... مرجع سابق ، ص 622 .

فخرجت من بين المسلمين دعوات بتحرير المرأة ، ولقد إستهدفت حركة تحرير المرأة التي حمل لواءها أتباع النفوذ الإستعماري في العالم الإسلامي ، تحقيق مجموعة من الأهداف الخطيرة ترمي إلى هدم وتحطيم القيم الأخلاقية و الاجتماعية والنفسية في شأن العلاقة بين الرجل والمرأة وبين الأجيال المتتابة ، وبين الشباب والفتيات (1) لقد صرح احد الغربيين فقال : { إن التأثير الغربي الذي يظهر في كل المجالات } .

المطلب الرابع: آثار العلمانية في العالم الإسلامي :

لقد كان لتسر بالعلمانية إلى المجتمعات الإسلامية أسوأ الآثار على المسلمين في دينهم ودنياهم.

واليك بعض الآثار السيئة التي اجتنتها المجتمعات الإسلامية منتطبقة العلمانية :

- 1 - رفض التحاكم بالكتاب والتهتعالى ، وإقصاء الشريعة الإسلامية عن كافة مجالات الحياة ، والاستعاضة عن ذلك بالقوانين الوضعية المقتبسة عن أنظمة الكفار ، وإعتبار الدعوة إلى تطبيق الشريعة الإسلامية تخلفاً ورجعية وانتهاكاً لحقوق الإنسان .

2 - جعلنا لتعليم خادما للنشر الفكر العلماني وذلك عن الطرقات التالية :

- أ - بث الأفكار العلمانية في ثنايا المواد الدراسية .
 - ب - تقليص الفترة الزمنية المتاحة للمادة الدينية إلى أقصا بحكم يمكن ، وتكون في آخر اليوم المدرسي وقد لا تؤثر في تقدير الطالب .
 - ج - منع تدريسي نصوص معينة لأنها واضحة صريحة في كشف باطلهم وتزييف ضلالاتهم .
 - د - تحريف النصوص الشرعية عن طريق تقديم مشروحات مضبوطة ومبتورة لها ، بحيث تبدو وكأنها تؤيد الفكر العلمي ، أو على الأقل تعارضه .
- 3- إذابة الفوارق بين حملة الرسالة الصحيحة ، وهما المسلمون ، وبين أهلة التحريف والتبديل والإلحاد ، وصهر الجميع في إطار واحد . فالمسلمو النصراني ، واليهودي ، والشيعي ، والمجوسي ، والبراهمي ، وغيرهم يتس أو نأمام القانون ، لأفضل أحد عليا آخر إلا بمقدار الاستجابة لهذا الفكر العلماني .
- 4 - نشر الإباحية والفوضى بالأخلاقية ، وتهديم بنيان الأسرة باعتبارها النواة الأولى لبنية الاجتماع وتلك عن طريق :

1 - عالم الإسلام المعاصر ، أنور الجندي ، ص 652 .

2 - انظر : الاتجاهات الفكرية المعاصرة على جريشة ص 92-93 بتصرف .

- أ القوانين الوضعية التي تبني حال ذليلة ولا تعاقب عليها .
 - ب وسائل لإعلام مختلف التيارات تكلو لا تملن من حاربة الفضيلة ونشر الرذيلة .
 - ت محاربة الحجاب وفرض السفور والاختلاط في المدارس والجامعات والمصالح الهيئات .
- إن أعداء الإسلام لم يكتفوا بإبعاد الشريعة الإسلامية علياً عن أنظمة الأسرة المسلمة ، وهذا أمر في غاية الخطورة ، لانتكا الأنظمة جاءت ملائمة لطبيعة الإنسان انوغرائه ، حتلا يحدويص فتلك الغرائز في المحرمات ، ولذا فانا لله تعالى أمر بالزواج ، فقال : {
وانكحوا الأيام منكم الص الحين من عبادكم وإمائكم....} (1) وقال تعالى : {
ومن آياتها أن خلقكم من أنفسكم أزواجا....} (2) .
- وعن أبي هريرة وأبي حاتم المزماني - رضي الله عنهما - قال - صلى الله عليه وسلم - : " إذا جاءكم منترض ونخلقهم دينهم وفروجهم ، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض فساد عريض " (3) ، ووجه النبي - صلى الله عليه وسلم - الشباب بقوله : " يامعشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فانه أغض للبصر ، وأحصن للفرج " (4) .

وحرماً للإسلام الزنا وحذرنا لاقترباً منه ، قالتعالى : { ولا تقربوا الزنا نهكاً فاحشة وساء سبيلاً } (5).

وأمر الله المؤمنين بالتبضع بأبصارهم ، وحفظ فروجهم ، وفرض الحجاب على المرأة المسلمة ، ومنعها من التبرج وإظهار محاسنها ومفاتنها ، وذلك صيانة لكرامتها ، وحفاظاً على عفتها ، قالتعالى { قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم } (6) وقالسبحانه وتعالى : { وقل للمؤمنات يغضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن } (7) .

1 سورة النور ، الآية (32).

2 سورة الروم ، الآية (21) . 3 - سنن الترمذي 3-395 كتاب النكاح رقم الحديث (1085) وسنن ابن ماجه 1-632 كتاب النكاح رقم الحديث (1967) والفظله . 4 - صحيح البخاري بشرح الفتحة 9-106 كتاب النكاح رقم الحديث (5065) وصحيح مسلم 2-1018 كتاب النكاح رقم الحديث (1400) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

5 - سورة الاسراء ، الآية (32).

6 - سورة النور ، الآية (30).

7 - سورة النور ، الآية (31).

وحرماً للإسلام الخلوة بالأجنبية ، ففي الحديث الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما ، عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : " لا يخلون رجلان امرأة إلا ومعهما ذو محرم " (1) .

فالله سبحانه وتعالى جعل للأسرة نظاماً متكاملاً ، يكفلها الخير والسعادة في الدنيا والآخرة ، ولذا فإن الله حينما يحرم علينا الفواحش والخبائث التي تضرنا في ديننا ، لا يريد حرماننا ، وإنما يحافظ علينا في هـ صلاحتنا في حلال طيباتنا ، وهو العالم بطبائع البشر ، فلا يعرضنا لفتنة اللوقو عفيها ، بليسد أبوابها احتلالاً يكلفهم مقاومة ، فهو دين وقاية للمجتمع ، قبل أن يقيم الحدود ويوقع العقوبات عليها ، وربك أعلم بمن خلق ، وهو اللطيف الخبير .

ولهذا نقول : يريد دعاء السفور ، والمزينا للناس حباً للشهوات؟! إنهم يريدون إطلاق الغرائز منعقالها ، بالكلمة ، والصورة ، والقصة ، والقلم ، والمعسكر المختلط ، ليوقعوا الفتاة المسلمة التيا عزالله دين الإسلام ، وتعاليمها السمحة القيمة ، التي تصونها من اللوقو عفيها بنالهم ، تحت نصيب بضاعة مزجاة ساقطة لا قيمة لها ، كما كانت في الجاهلية ، فاعزها الله بالإسلام فحماها طفلة من ألدكان يمارس في حقها ، فتدفع حياء لا ذنب لها إلا أن الله خلقها أنثى { وإذا المودة سئلت . بأي ذنب قتلت } (2) بل جعلها الإسلام محجاً بامان النار لكافلها ، ثم جعلها أختام صونة ،

وأما كريمية، حث على البر بهـا ، والإحسان إليها، هكذا تكون المرأة إذا كانت تصالحه ،
وهي فتنة أن يحدث عنـه ذال الطريق، لأن رسـول الله - صلي الله عليه وسلم - لم -
أخبر أنه لم يتر كفتنة أشد علياً من تهمة الدنيا والنسـاء (3) ، فهي فتنة إذا تر كتنه عليـه دينها ،
وذهبتم عدد عوات الذين يريدونها سلعاً يعيب بها ذئاب البشـر ، باسم الحرية والمسـاواة الزائفة .
أن العزوة والكرامة في الدنيا والآخرة للمرأة المسـلمة، المحافظة علي تعاليم دينها ،
وأننا نجد بحمد الله في كثير من مجتمعات العالم الإسلامي عودة الفتاة المسـلمة إلى تعاليم دينها ،
وإبراز ذلك ظاهرة الحجاب في تلك البلاد الإسلامية ، وذلك ما يدعوا بالتفاني بعز هذا الإسلام ونصـره ،
وذلك بعد أن جر بالمخدع عن مادعاهما إليه من يدعوا بالحرية الزائفة ، التي تظهر عوار هـا ،
وبأنخذاعها فظهر الحق وهمكار هون، والهمتمنور هو لو كر هالكافرون (4) .

5 - الدعوة بالقومية أو الوطنية، وهيدعوة تعمل علي تجميع الناس تحت جامعوهم من الجنس ، أو اللغة ،
أو التاريخ ، أو المكان ، أو المصالح ، أو المعيشة المشتركة ، أو وحدة الحياة الاقتصادية ،
علي ألا يكون الدين عاملاً يمنعوا من اجتماعهم أو المصـف ،
بل الدين بمنظور هذا الدعوة يعد عاملاً يمنعوا من التفريق والشقاق (5) .

1 - صحيح البخاري بشرح الفتح 9-330,331 كتاب النكاح رقم 5233، ومسلم 2-978 كتاب الحج رقم (1341) واللفظه.

2 سورة التكوين ، الأيتان (8,9)

3 انظر : الحديث في صحيح البخاري بشرح الفتح 9-137 كتاب النكاح رقم الحديث (5096) وصحيح مسلم 4-2097 كتاب الذكر والتوبة رقم الحديث (2740).

4 الوصايا في الكتاب السنن للذكور علي بن محمد ناصر الفقهي ، المجموعه الأولى لـص 32، 31 بتصرف.

5 انظر : العلمانية وثمارها الخبيثة لمحمد شاكر الشـريفص 21 ومبعضها باختصار وتصـرف . وانظر :
أحذر والأساليب الحديثة في مواجهة الإسلام مدسدة الدين صالحص 207 .

ولاشك أن الفكرة القومية أو الوطنية وفدت إلى أديار المسـلمين من الغرب ،
والذي احتضنها وذاها ودعا إليها عقول غير إسلامية ، وأشخاص ليسوا بمسـلمين ،
ولقد كان ظهور الفكرة - سواء أكانت عربية أم طورانية - (1) مصدر شر علي جميع المسـلمين ،
وزاد الأمر سوءاً عندما امتزجت القومية العربية مؤخراباً لاتجاهات الاشتراكية العربية الثورية .

ولقد أثار تالدعوة بالقومية طوائف أخر بتعيش في المنطقة ، ودفعتهما إلى أن ترفع نفس الراية،
ففي السودان عاسكان الجنوب إلى بيع القومية الزنجية ، وفي الشمال إفريقيا ريقار تفتعاً صواب قومية تبريرية ،
كر دفع القومية العربية ، وفي العراق عاسكان الشـمال إلى بيع القومية الكردية ،
وفي الهند ظهر مسلمون يفخرون بالانتساب إلى القومية الهندية .

وهكذا كانت الآثار القومية السيئة لاحد لها، وبدلاً من أن تكون نظرية بالوحدة الإسلامية شاملة، كما زعم دعائها،
أصبحت تمنعوا من لبث الاضطراباتو التفرق بين الأمة الإسلامية - لامية ،
خاصة عندما عر جبهادعائها علياً لاشـتراكية الثورية ،

واغرقوا الشعوب ببسيل من الشعارات التي لا محتويات لها، ولا مضامين نوراء لها، التغيير الثوري، والحل الثوري، ومجتمع الكفاية والعدول التقدمية، التحرري وغير ذلك من الشعارات الزائفة (2).

ولا يفهم من هذا اتو هي علاقة الإنسان بقومها ووطنه، فتلك من الفطرة البشرية المركوزة في جبلته الإنسان، وليست محبة الإنسان لوطنه أمته وسعيه فيسبيل تقدمها وازدهارها، والعمل على أن تكون كرامتها مصونة، وحصولها محمية، وإنما الإنكار على ابتعاد المسلم عن دينه وعقيدته، وحصر ولائه للقوم والوطن، والتحول إلى العصبية العمية، التي تنتصر للقوم والوطن بالحق والباطل، وعدم الاهتمام بالاسلام وقضايا المسلمين.

6 - الدعوة إلى الارتقاء فياً حضاراً الغربوا اخذ حضار تهنونو عيو لا تميز:

فقد قام بهذا الفكر كثير من دعاة التضليل للأمة الإسلامية عند ضعف المسلمين وتفرقهم؛ حيث عمو أن سبيلنا لتقدم النهضة، هو السير خلف كآب الغربيين، والأخذ بمنهجهم وطريقتهم في كل شيء، حتى نكون مثلهم في الحضارة الحديثة، بخيرها وشرها، وما يحمد منها وما يعاب.

ونتيجة لتلك الدعوة إلى المغرب ضللت مناد عياء الفكر، ذهب كثير من أبناء المسلمين إلى بالدول الأوروبية، لإكمال تعليمهم، وغالباً ما تأثر هؤلاء الطلاب بعبادات الغرب وأفكاره.

7 - الزعم بأن الشريعة الإسلامية لا تتوافق مع الحضارة الحديثة:

وهذا الزعم جاء نتيجة لاحتكاك أبناء الأمة الإسلامية بالحضارة الغربية الحديثة، فظنوا - جهلاً - إن الإسلام لا يتوافق مع الحياة العصرية، ولا ينسجم مع متطلبات الإنسان في هذا العصر.

1 الطورانية هي: قومية لا تتركز على أهلية بل على دخولهم في الإسلام. انظر: مذاهب فكرية معاصرة ل محمد قطب ص 581.

2 انظر: الاتجاهات الفكرية المعاصرة د جمعة الخولي ص 128.

بل قالوا أن الشريعة الإسلامية هي السبيل إلى التخلص من هذا الداء والنهوض بالأمة إلى التقدم الحضاري وهو نبذ الإسلام وتعاليمه.

فهذه بعض الآثار والثمار السيئة والخبيثة التي أنتجتها العلمانية في البلاد الإسلامية التي تبنت العلمانية.

"والعلمانيون في العالم الإسلامي يعرفون بالإنسـ تهانة بالدين، والتهكم والاستهزاء بالمتمسكين به، كما يعرفون بآثاره الشبهات، وإشاعة الفواحش (كالسكر، والتبرج، والاختلاط المحرم) ونشر الرذائل، ومحاربة الحشمة والفضيلة، والحدود الشرعية، والاستهانة بالسنن، كما يعرفون أيضاً بحب الفساق والكفار والإعجاب بمظاهر الحياة الغربية وتقليدها" (1).

مما سبق يظهر لنا أن الإسلام ————— لأمه عقيدة، وشريعة دين ودولة، حيث وضع نظاما كاملا ومحدد الكل شأن منشؤ ونال الحياة.

قالتعالى : { وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ الْكِتَابَ الَّذِي هُوَ دُرُّ حَمَّةٍ وَبُشْرٌ لِلْمُسْلِمِينَ } (2) .

قالا بنكثير - رحمها الله - عند تفسير هلهذا الآية :

قالا بنمسعود : " قد بينا في هذا القرآن كل علم وكل شيء " ، وقال مجاهد : " كل حلال وكل حرام ، وقولا بنمسعود اعموا شامل ، فانا لقرانا شتمنا عليك لعلنا فاعلمنا خبر ما سبق ، وعلما ما سيأتي ، وكل حلال وحرام ، وما الناس اليهم محتاجون في أمر دنيا همومهم ومعاشهم ومعادهم .. " (3) .

وقد تكفل الله تعالى بحفظ همتنا التغيير بخلاف الأديان السابقة بقية قالتعالى : { إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ } (4) .

1 - انظر : الموجز في الأديان والمذاهب المعاصرة ص 111.

2 - سورة النحل ، الآية (89).

3 - تفسير ابنكثير (2-631).

4 - سورة الحجر ، الآية (9) .

المبحث الثاني

موقف الإسلام من العلمانية

المطلب الأول :

القواعد والأصول التي بنيت عليها العلمانية .

المطلب الثاني :

العلمانية أيديولوجية أثارها وكيفية مناهضتها

المطلب الثالث :

رأي لإسلام في مفهوم العلمانية معتقد أيديولوجي مذهبي .

المطلب الرابع :

نماذج منتقاة من أبرز دعاة العلمانية حسن حنفي نموذجاً .

المبحث الثاني : موقف الإسلام من العلمانية .

فإنه لما كان المسلمون يجمعهم كتاب ربهم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وتجمعهم سنة رسوله - صلى الله عليه وسلم - كانوا أمة واحدة قوية وعزيزة ورائدة . ولكن لما إتصلت هذه الأمة بالأمم الأخرى ذات الأنماط الحضارية المختلفة ، فإذن هذه الأمة قد تأثرت بكيد أعدائها من اليهود والنصارى وعبادة الأوثان الملاحدة حتى أصبح المتأثرون بفكر أولئك الأعداء أمة داخل الأمة الإسلام وما لذلك من سبب سوى البعد عن منهج الذي أنزله على عبده ورسوله محمد - صلى الله عليه وسلم - هداية ونورا وإخراجا للناس من الظلمات إلى النور .

المطلب الأول: القواعد والأصول التي بنت عليها مذهبها

لم أجد من كتب عن أسس وقواعد العلمانية ، وإنما أثبت ما أوردته هنا اعتماداً على الإستقراء لأفكار ومبادئ العلمانيين ، ولقد لخصت ذلك فيما يلي :

1 - ينكر بعض العلمانيين وجود الله تعالى ، ويهملون أمور الغيب ، من بعث وثناب وعقاب وغير ذلك ، وبعضهم يفصل بين وجود الله سبحانه ، وبين تأثيره في الحياة (1).

مما لا شك فيه أن الله تعالى فطر الناس على وجوده ووحدانيته قال تعالى (فطرت الله التي فطر الناس عليها) (2) وكل الأدلة الشرعية والبراهين العقلية وغيرها، تدل دلالة قاطعة على ذلك .

وهذه العقيدة القائمة على الإلحاد ينشأ عنها مجتمع لا يؤمن بالله الواحد الأحد ، ولا يؤمن باليوم الآخر ، وما فيه من الثواب والعقاب ، ولا يؤمن بدين ، ولا يعترف بخلق ، وإنما ينشأ عنه مجتمع غايته متع الحياة وملذاتها ، ولذلك فإن قبول العلمانية في أي مجتمع معناه تبني الإلحاد والمروق من الإسلام وردة صريحة عن دين الله الذي إرتضاه لعباده حتى ولو كانت العلمانية بمعناها المعتدل في مرحلتها الأولى .

2 - إقامة حاجز بين عالمي الروح والمادة ، والقيم الروحية لديهم سلبية ، وإقامة الحياة على أساس مادي .

والعلمانيون بهذا المبدأ يفرضون على الإنسان قوانين لا تلائم تكوينه الذاتي ، القائم على التوازن الدقيق بين المادية والروحية ، فإنها تتعرض دائما للتمرد والعصيان ، الأمر الذي يدفعها دائما إلى إعادة النظر في قوانينها ونظمها وتغيير مناهجها ، وذلك من أجل تقبل الناس لها ومحاولة للتوازن والتوافق (3).

والمجتمعات العلمانية عامة تقوم على أساس الإشباع المادي للإنسان ، مع إهمالها تماما للناحية

1- جمعة الخولي ، الإتجاهات الفكرية المعاصرة وموقف الإسلام منها ، مطبعة الجامعة الإسلامية ، المدينة المنورة ، ط الأولى 1407 هـ ، ص 91.

2 - سورة الروم الآية (30) . 3 - العلمانية المنشأ والأثر ، زكرياء فايد ، مرجع سابق ، ص 133 .

الروحية والنفسية ، لأنها إستبعدت الدين من مجال الحياة ، وأقامت حضارة غربية أفقدت الرؤية الواضحة للإنسان ، وحولته إلى حيوان يأكل ويشرب ، ولا هم له غير ذلك ، وأغلب ما يقع اليوم من الجرائم والمآثم ، إنما هو بسبب هذا الإشباع المادي ، وثمره الكفر بالله وباليوم الآخر ، وأثر من أثار التنكر للحق ، والإستهانة بالأخلاق .

ومن ثم كانت هذه النظرة المادية للحياة نظرة من شأنها أن تباعد بين الإنسان وفطرته الخيرة ، وتسلبه من الطيبة والسماحة ، وتميت فيه عاطفة المحبة والرحمة ، وتجعل منه عدوا لنفسه ولل بشرية ، وتجعله شر ما يدب على الأرض : قال تعالى : (إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون) (1).

أما الإنسان في ظل الإسلام المتمسك به عقيدة وشريعة ومنهج حياة ، فإنه سوف مكرما معززا ، لأنه يعيش حياته وفقا لشرع الله الذي يحقق له السعادة في الدنيا والآخرة : قال تعالى : (ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا) (2) وقال تعالى : (من عمل صالحا من ذكرا أو أنثى وهو مؤمن فلنجزيه حياة طيبة ولنجزيهن أجرهن بأحسن ما كانوا يعملون) (3).

3 - فصل الدين عن السياسة ، أو إقامة الحياة على غير الدين .

إن العلمانية يفصلها الدين عن الدولة ، أو إقامة الحياة على غير الدين ، تفتح المجال للانتماءات الوضعية والطبقية والمذهبية والقومية وغيرها .

والهدف من فصل الدين عن السياسة وعن شؤون الحياة ، هو هدم العقيدة الصحيحة ، وإخراج الناس من نور التوحيد إلى ظلمات الشرك الإلحاد ، وإحلال القوانين الوضعية محل الشريعة الإسلامية ، وإبعاد الإسلام عن التطبيق العملي .

وهذه الفكرة بعيدة كل البعد عن عقيدة الإسلام وشريعته ، فالله - تعالى - يخاطب رسوله محمدا - صلى الله عليه وسلم - بقوله : (وأن أحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيرا من الناس لفاسقون) (4) قال تعالى : (ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين) (5) .

1 - سورة الأنفال ، الآيتان (22,23) .

2 - سورة الإسراء ، الآية (70) .

3 - سورة النحل ، الآية (97) .

4 - سورة المائدة ، الآية (49) .

5 - سورة النحل ، الآية (89) .

إن القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فيه كل ما تحتاج إليه البشرية في كل زمان ومكان ، من خيري الدنيا والآخرة .

وفصل الدين عن الدولة أساس العلمانية التي نادى بها الغرب ، ولجأ إليها كرد فعل لإضطهاد الكنيسة للعلم والعلماء ، لا يبرر إبعاده للدين عن شؤون الحياة ، لأنه لو إتجه إلى الإسلام دون تعصب أو غرور لوجد فيه ضالته وهدايته .

4 - العلمانية تقوم على تطبيق مبدأ النفعية (البراجماتية) (1) مع كل شيء في الحياة .

والبراجماتية تقوم على إنكار وجود الله وألوهيته ، وتنكر الدين والأخلاق ، وتجعل المنفعة المادية العاجلة وحدها المسيطرة على هذا المذهب ، وهي أساس أي عمل أو فكرة ، وتجعل مصلحة الإنسان لنفسه فوق مصالح الآخرين حتى ولو أضر بهم (2) .

أما الإسلام فقد جاء بما يكفل الخير والصالح لكل الناس ، وجميع المصالح والمنافع في الإسلام يسودها التعاون والإيثار والمحبة ، وإبتغاء الأجر والثوبة من الله تعالى .

قال تعالى : (لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك إبتغاء مرضات الله فسوف نؤتيه أجرا عظيما) (3) وقال تعالى :

وأحسنوا إن الله يحب المحسنين (4) .

وقال تعالى : (ومما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون) (5) وقال تعالى : (وتعاونوا

على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان) (6) .

وفي الحديث الصحيح عن ابن عمر - رضي الله عنهما - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : " المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه ، من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته ، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة ، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة " (7) .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم : " كل سلامى من الناس عليه صدقة ، كل يوم تطلع فيه الشمس تعدل بين الإثنين صدقة ، وتعين الرجل في دابته فتحمله عليها ، أو ترفع له عليها متاعه صدقه

1 - يتخلص مذهب (البراجماتية) في أنه يقيس القضية بنتائجها العملية ، ويرى أتباعها أن قيمة المعتقدات والقيم الخلقية نابعة من أثرها ، فما حقق منفعة للإنسان ، فهو خير وصحيح ، والعكس بالعكس ، ومن أبرز روادها : وليم جيمس ، وتشارلز بريس ، وجون ديوي .

أنظر : اتجاهات في الفلسفة المعاصرة عزمي إسلام 85 ، العصرانية ص 50 ، والاتجاهات الفكرية المعاصرة وموقف الإسلام منها 65 .

2 - الاتجاهات الفكرية المعاصرة وموقف الإسلام منها 66 ، 68 ، الموسوعة العربية الميسرة 1/335 .

3 - سورة النساء ، الآية (114) .

4 - سورة البقرة ، الآية (195) .

5 - سورة البقرة ، الآية (272) .

6 - سورة المائدة ، الآية (2) .

7 - صحيح البخاري يشرح الفتح 5/97 كتاب المظالم رقم 2442 ، ومسلم 4/1996 كتاب البر والصلة والآداب رقم 2580 .

، والكلمة لطيفة صدقة ، وكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة ، وتميط الأذى عن الطريق صدقة (1) إلى غير ذلك من الأدلة الكثيرة في هذا الشأن .

5 - تعتمد العلمانية على مبدأ (الميكانيكية) (2) في فلسفة الحكم والسياسة والأخلاق . وهو مبدأ يقوم على أن (الغاية تبرر الوسيلة) مهما كانت هذه الوسيلة منافية للدين والأخلاق ، ومهما كانت حسنة أو سيئة (1) .

وهذا الاتجاه المنحرف إذ أخذ على إطلاقه ، فهو طريق كل المنحرفين الظالمين المفسدين في الأرض ، والأخذ بهذا الاتجاه - المستهين بفضائل الأخلاق الإنسانية - لتحقيق غايات الأفراد أو الجماعات هو نذير دمار عام وشامل لكل الشعوب التي تأخذ به .

إن الرذائل الخلقية التي تقتضيها الميكانيكية مقبولة عند دعائها إذا كانوا يمارسونها هم ضد غيرهم ، ومرفوضة إذا كان غيرهم يمارسها ضدهم ، وهذا تناقض منطقي بدهي ، لا يلتزم به من يحكم الأمور بعقله ، ولكن يكابر فيه من يحكم الأمور بأهوائه ، وشهواته ، ومصالحه الخاصة .

إن من المعروف في الحياة أن لكل إنسان ، ولكل مجموعة بشرية ، مطالب نفسية ، وحاجات

جسدية ، وأنه لابد لتحقيق أي مطلب من مطالب النفس ، وأية حاجة من حاجات الجسد من إتخاذ وسيلة إلى ذلك .

فهل يصح في عقل أي إنسان عاقل إتخاذ أي وسيلة في الدنيا ، مهما كان شأنها عظيما ، لأية حاجة مهما كان شأنها حقيرا تافها ؟

فإذا كانت الغايات مطلقا تبرر أية وسيلة دون قيد أو شرط ، فما أجدر المكيافيلي الذي يأخذ هذه الفكرة الفاسدة أن ينحدر إلى أحس مرتبة يمكن أن تتصور في الوجود ويرد إلى أسفل سافلين .

والإسلام يراعي الحق والعدل والفضيلة والخير ، ويأمر المسلمين بالالتزام ما أمر الله به من الخير وإجتنب ما نهى عنه من الشر ، وغايات الإنسان يجب أن تكون مقيدة بشرع الله تعالى ، فلا يجوز الوصول إلى الغاية الشريفة بالوسائل المحرمة .

1 - صحيح البخاري بشرح الفتح 5/309 كتاب الصلح رقم 2707 ، ومسلم 2/699 كتاب الزكاة رقم 1009 واللفظ له .

2 - نبيه إلى ميكافيلي نيقولا (1527 - 1469 م) إيطالي الجنسية ، وهو أول المفكرين السياسيين الأوروبيين ، إشتهر بكتابه (الأمير) الذي فيه دعوة صريحة إلى فصل السياسة عن الدين والأخلاق ، ووضع مبدأ عمليا لها وهو (الغاية تبرر الوسيلة) .

أنظر : كواشف زيوف ص 379 ، وموقف الإسلام من نظرية ماركس ص 612 .

المطلب الثاني : العلمانية أيديولوجية أثارها وكيفية مناهضتها.

والآن: لابد من وقفة أمام مضمون هذا المصطلح (العلمانية) كما عرفته أوروبا الكاثوليكية، لنرى – في إيجاز- هل هناك خيوط تجعل له مكانة في ظل الإسلام ومجتمعاته؟

وذلك قبل أن نعرض لهذه القضية شيء من التفاصيل.. وعلى سبيل المثال: (فيلسوف العلمانية) هاورد بيكر Howard baker قد صاغ مصطلح العلماني secular كي يقابل المصطلح (المقدس) فالدولة العلمانية. إذا هي المقابلة (للدولة الدينية)، و(المجتمع العلماني)

هو المقابل للمجتمع المقدس³ لكن الإسلام لا يعرف (الدولة الدينية) ولا المجتمع المقدس، لأنه لا يعرف (رجل الدين) ولا (المؤسسات الدينية) فهو ينكر الوساطة بين الإنسان وربه، ويرفض الكهنة والكهنوت ثم فهو لا يحتاج لمجتمعاته، كي تتطور، ما يقابل هذه المعاني والأفكار والمؤسسات-أي لا يحتاج العلمانية (ومؤسساتها)- لأنه لم يشهد فكراً على الأقل تلك الثنائية التي شهدتها أوروبا الكاثوليكية حيث نشأت العلمانية.

والمجتمع العلماني كما تحدد في فكر أوروبا (العلمانية) وفي تطبيقات هذا الفكر، له سمات وقسمات:

- أ- فقيمه تتميز بالنفعية⁴. أي أنه يعلى من مقام المصلحة بصدد القيم الأولية للمجتمع.. فماذا بإسلامنا عن هذه القسمة؟
- إن الإسلام هو الدين الذي يقدم في -شؤون المجتمع- يقدم (المصلحة) على النص.. وهو الذي يتحدث على أن الشريعة: مقاصد وغايات.. والذي يجعل المرجع في حسن الأمور وقبحها رأي الأمة، التي ترى وتقرر ما يحقق مصلحتها والله سبحانه، شارع (النصوص) يبارك أمور الأمة، في أمور الدنيا والمجتمع، إذا القاعدة الإسلامية الشهيرة تقول (ماراه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن).
- ب- والمجتمع العلماني (يساند التغيير ويدعو إلى التجديد ويدعمه)⁵.

فماذا في إسلامنا في هذه القسمة؟ إن إيمان الإسلام بقانون التطور، وفي كل الميادين، ليس له حدود.. ودعوته للتجديد ق\ تعات شؤون الدنيا إلى شؤون الدين.. وليس بعد حديث الرسول-صلعم-، (إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة عام من يجدد لها دينها)³

(1): ابن الأثير (الجزري) : أسد الغابة ، طبعة دار الشعب القاهرة سنة 1959م (قاموس علم الاجتماع) مصطلح Secular -علماني-.

(2) و (5): ابن تيمية (الإمام) (مناهج السنة ط القاهرة سنة 1962 (قاموس علم الاجتماع) مصطلح -مجتمع علماني-.

(3): رواه أبو داود.

ليس بعد هذا الحديث دليل على تميز الإسلام وامتياز به بالإيمان بالتطور والتجديد في كل الميادين والذي يقرأ لعمر بن الخطاب -في التربية والتعليم- كلمته: (لا تقفوا بتعليم أولادكم عند علومكم. فإنه قد خلقوا لزمان غير زمانكم) فالذي يقرأ هذه الكلمات وأمثالها يرى التطور والتجديد في الإسلام .

ث ويتميز المجتمع العلماني (بفقدانه الاهتمام بما هو خارق للطبيعة)¹.. فماذا في إسلامنا عن هذه القسمة؟ إن انحياز الإسلام للعقل والعقلانية واضحو وأكيد، والحديث فيه وعنه طويل².. بل إن (خارق الطبيعة- أو خارق العادة- المعجزة- الآية) التي تحدى بها نبي الإسلام قومه -وهو القرآن الكريم- قد جاء ليحتكم إلى العقل الذي جعله الله منطقاً ودليل منه للإنسان لكي يسترشد ببراهينه ويهتدي، حتى أمور الإلهوية والدين، فالعقل هو الحاكم حتى في إطار النصوص، وعليه تعرض آيات القرآن.. (خارقة الطبيعة) الدين الإسلامي الوحيد.

ج والمجتمع العلماني يتميز بعدم (اهتمامه بالقيمة المرتبطة بالنزعة التقليدية والاتجاه المحافظ)³.

هنا يميز الإسلام -ولابد له من ذلك- بين القيم المعوقة للتطور والتقدم (الرجعية) وبين القيم التي تلعب دوراً إيجابياً وتقدمياً في حياة الأمة والمجتمع فيرفض الأولى لضررها -لا لأنها موروثة وتقليدية- ويتبنى الثانية لنفعها - لا لأنه موروثة وتقليدية- فالمعيار هو (المصلحة) ومصلحة الأمة على وجه الخصوص والتحديد. ثم.. هل حدث أن رفض (العلمانيون الأوروبيون) مواريتهم في القيم، لأنها موروثة وتقليدية؟.. إن إحياءهم لثراهم اليوناني. وتمثلهم في حضارتهم الحديثة شاهد على إن مجتمعهم العلماني لم يعمم على رفض كل ما هو تقليدي وموروث..!

تلك هي مضامين (العلمانية)، وهذه هي سمات مجتمعها.. وفي المقارنة -الموجزة- بينها وبين معالم -الإسلام السياسي والاجتماعي- تظهر جلية حقيقة المقولة التي نركبها وهي.. إن لا مكان للعلمانية مع الإسلام، ولا حاجة للمسلمين إليها، إذا كانوا، حقاً مسلمين يسترشدون بالإسلام.

وبعد هذه المقابلة الموجزة بين العلمانية والإسلام، لا نجد بد من بعض هذه التفاصيل والنقاط، وذلك حتى لا يكون الحديث خاصاً بما لا حاجة بهم للأدلة لأنهم سلفاً مقتنعون، أو

(1): مصلح - مجتمع علماني-.

(2): انظر كتاب العرب والتحدّي الفصل الثالث (بالعقل انتصرت العروبة وانتشر الإسلام) ص77-122 طباعة الكويت سلسلة عالم المعرفة 1980م

(3) مصطلح - مجتمع علماني-.

أقرب إلى الاقتناع بما نقول.

ونحن نسوق هذا التفصيل أيضاً، في عدد من النقاط:

1- إن العلمانية (تضع العلم) المرتبط بالعالم، وبما هو واقعي ومدني- تضعه مقابلته، بل ونقيضاً (للدّين).. وذلك لنشأتها وتبلورها في بيئة حضارية شهدت صراعاً شهيراً

ومريرا بين (الدين)، كما قدمه اللاهوت الكنسي الكاثولوكي فيأوروبا، وكما تصوره الرأي الرسمي للكنيسة الكاثوليكية، وبين (العلم) الذي تأسست على قواعده النهضة الأوروبية الحديثة.

ويصر النظر عن الموقف الجوهرى للديانة المسيحية، وعن الظلم الذي أحقته تفسيرات الكنيسة برأى المسيحية الحق في (العلم) فالأمر الذي لا شك فيه إن عدااء (الدين) (للعلم) والصراع بينهما هما (خاصية كاثيولوكية) أوروبية ولا وجه للشبه بين المقدمات والملايسات التي أثمرت هذا العدااء وهذا الصراع وبين واقع الإسلام وموقفه ورأى أغلب تيارات الفكر الإسلامي ومذاهبه في هذا الموضوع فالإسلام لا يمد نطاق (علوم الوحي، والشرع) إلى كل الميادين الدنيوية، التي ترك الفصل فيها والتفسير (لعلوم العقل والتجربة الإنسانية¹⁰) ومن ثم فلقد تأخر فيه (العلم) و(الدين). و(العقل) و(النقل) و(الحكمة) و(الشريعة). و(الدنيا) و(الآخرة) عن طريق تحديد الميادين لكل نمط فكري. وإقامة التوازن بين ماعدا في الحضارة الكاثوليكية- الأوروبية- متناقضات لا سبيل للجمع بينها. فلا عن التوفيق وعن طريق استخدامها جميعا، في نظرة تكاملية، لتهديب الإنسان وتطوير حياته، باعتبار هذا التهديب وذلك التطوير غير ممكنين دون الاستعانة (بالأقطاب المتعدد في ظواهر الفكر والحياة).. وليس بقطب واحد من الظاهرة الواحدة.

2- ويؤكد اختصاص العلمانية (بالواقع الأوروبي) ، ما استقرت عليه المسيحية من نظام (الكهنة، والكهنوت)، ذلك النظام الذي جعل بين الإنسان العادي وبين ربه وسيطا، وهو (رجل الدين)، الكاهن، الأمر الذي جعل هناك طبقة أو فئة احتكرت الرأي الرسمي للدين، بل وحق الحديث باسم السماء!.. وما استتب ذلك من إضفاء القداسة والقادسية على هؤلاء الرجال ومؤسساتهم التي أقاموها لهذا الدين وتلك الأمور لم يعرفها الإسلام بل هو ينكرها ويشن عليها حربا شعواء.

صحيح إن الواقع التاريخي الإسلامي قد شهد تقليد المسيحية في هذه الآفة حين تحول بعض من علماء الدين الإسلامي إلى رجال دين، وزعموا لأنفسهم سلطانا في التحليل و (التحريم) واحتكروا لأرائهم صلاحيات الرأي الوحيد، ومن ثم الرسمي للإسلام- رغم إن اجتهاد (المجتهد)، في الإسلام، لا يلزم غيره من (المجتهدين)، بل ولا يلزم المقلدين لمجتهدين آخرين-.. لكن هذا التقليد في هذه الآفة قد ظل واقعا تاريخيا، لم يعترف به الإسلام، ولم يتحول إلى جزء من الدين. بل ظل واقعا مدانا من تيارات الفكر الإسلامي جميعا، ولم يصبح مقبولا إلا في إطار المهب الشيعي وحده..

(10): انظر كتاب (الإسلام وقضايا العصر) فصل: الإسلام والعلوم التجريبية (طبعة بيروت دار الوحدة).

وهذه الحقيقة تجعل الاحتكام، دائما وأبدا، في علاقة (العلم) (بالدين)، إلى الفكر الإسلامي الذي آخ بينهم.

3- إن مقام (العقل) – الذي هو أداة (العلم) – في الإسلام مقام لا تخطئه البصيرة بل ولا البصر، (فمعجزته) القرآن الكريم، تتوجه إلى العقل، وهو الحاكم بين ظاهر النصوص والبراهين العقلية إذا ما لاح التعارض بينها.. ولقد أدى ذلك إلى تأسيس الحضارة العربية الإسلامية، وهي عقلانية في لبها وجوهرها، على الدين الإسلامي وليس على استبعاده، كما هو حال الحضارة الأوروبية الحديثة.. الأمر الذي جعل الفكر الديني للإسلام والبناء الحضاري الذي أنجزه المسلمون دليل على انتقاء التعارض بين العلم والدين في محيط الإسلام.

4- إن كون الشريعة الإسلامية هي خاتمة الشريعة السماوية للبشيرة إنما يعني بلوغ الإنسانية سن رشدها.. فلم تعد صورة البشر هي صورة الخراف الضالة. وإنما أصبحت صورتها صورة الإنسان الذي كرمه خالقه، وفضله حتى على الملائكة، وسخر له كل عوامل الطبيعة والكون وظواهرهما، وجعله الخليفة والسيد في هذه الحياة.. وبما يعنيه الرشد أيضا، من الاقتصاد في (الغيب والغيبات) وترك الميادين الواسعة، والمجالات الجديدة، والآفاق المستحدثة للعقل الإنساني وللتجربة الإنسانية.. بل لقد أصبح العقل الإسلامي سلطان حتى في بعض مجالات الغيب فقال الأكثرون من علماء الإسلام إن سبيل أدارك الإلهية هو العقل لا النصوص والمأثورات، وصدقت جماهير المسلمين على هذا الرأي عندما جعلت من حكمها الشائعة المأثورة: (ربنا عرفوه بالعقل) ونرى الذين صنفوا العلوم، في حضارتنا يضعون (العلم الإلهي) في باب (المعقولات)، التي لا تتبدل بتبدل الحضارات، ولا تتغير الديانات ولم يضعوا العلم الإلهي في باب (والعلوم الشرعية)11.

5- إن الإسلام (الدين) لم يدع ما لقيصر لقيصر وما لله لله.. أي لم يعتزل أمور الدولة والمجتمع.. وأيضا فهو لم يضع لدولة المسلمين النظم والقوانين والنظريات وإنما اتخذ لنفسه موقفا وسطا في هذا الميدان- متسقا في ذلك مع النمط الذي يتميز به في العديد من الأمور.. فلأنه الشريعة الخاتمة، ولأن أمور الدولة والمجتمع والحياة في تطور مستمر كان هناك استحالة في الوحي بنصوص حكمة مفصلة لتضبط واقعا يحركه التطور باستمرار ولأن لام يتخيل موقف الفصل بين الدين والدنيا والدولة- كان انحيازه في موقف التمييز بينهما فلا فاصل ولا وحدة وإنما تمييز فهو لا يقع (النظم) ولا (النظريات) ولا (القوانين)- التي تركها للعقل والتجربة- وإنما وضع الفلسفة والمثل والمعايير والمقاصد والغايات التي تحكم أثر هذه النظريات والنظم والقوانين..

(11): التهانوي (كشاف اصطلاحات الفنون) ج 1 ص 46-62 طبعة القاهرة 1963م.

فهو قد جعل الشورى فلسفة للنظام السياسي ، دون أن يضع نظاما سياسيا وجعل ملكية المال والثروة لله ، سبحانه والإنسان هو خليفته ونائبه في هذا المال ، وتلك

هي فلسفة نظامه المالي ، الذي يتحدد ويتطور على النحو الذي يقترب بالإنسان من تحقيق هذه الفلسفة : كما جعل (المصلحة) ونفى (الضرر والضرار) المعيار الذي يحكم إطار النظم والقوانين والنظريات ، على إختلاف العصور والحضارات : ومن ثم : فنحن لسنا موجهين بتلك الثنائية المتناقضة ، ولا بذلك الإستقطاب الحاد اللذين شهدتهما الحضارة الأوروبية وواقعها واللذين جعلوا الأمور هناك : أبيض .. أو أسود فقط . والإجابة (بنعم) أو (لا) فحسب فكانت (العلمانية) بما تعني من فصل الدين عن الدولة ، أو السعي لهدمه وإنتراع تأثيره وأثره من الدولة والمجتمع معا – كانت (العلمانية) أو (الكهانة والسلطة الدينية والحكم بالحق الإلهي) ؟ .. إما هذه ؟ .. وإما تلك ؟ .. ولا طريق بينهما هناك ؟ ..

نحن لسنا موجهين بتلك الثنائية ، ولا بأي من المقدمات والملابسات التي أثمرت نشأة (العلمانية) في أحضان الحضارة الأوروبية ، بسببها ...

وحتى عندما نواجه القلة (من علماء) الدين الإسلامي الذين جعلوا من أنفسهم (كهنة ورجال دين) فإننا لا نواجههم (بالعلمانية) التي تعزل الدين عن الدولة ، بل نواجههم (بالإسلام : الدين) ، الذي يمكر الكهنة والسلطة الدينية ، والذي لم يحدد للمسلمين نظاما معيناً ومفصلاً في الحكم ، أو في السياسة أو في الإقتصاد ؟ .. والذي – في ذات الوقت – لم يدر ظهره لأمر الدنيا وشؤون الدولة ، وإنما وضع القواعد العامة والقوانين الكلية .

فالعلمانية ليست سبيلنا إلى التقدم .. بل ولا حتى لمواجهة قوة التخلف .. وإنما السبيل هو الوعي والفقه لحقيقة موقف (الإسلام : الدين) ، ذلك الموقف الذي ينكر (العلمانية) وأيضا ينكر نقيضها ، كما شاهدتهما الواقع الأوروبي .

وما الذين يختارون ، (العلمانية) أو الذين يسعون إلى الدولة (الدينية) إلا مقلدون – بوعي أو بغير وعي الحضارة الغربية غافلين عن أشياء جوهرية ، هي ، بالنسبة للمصلح الثوري والمسلم ، أساسية ، ومن بينها موقف الإسلام (الإسلام : الدين) في هذا الموضوع ..

وحتى عندما مد (الإسلام : الدين) لفكره العقلاني خيوطا تلاقت وتلاحمت بمواريث المم والشعوب التي دخلت في الدولة العربية الإسلامية بعد عصر الفتوحات ، الأمر الذي أثمر بناء (الإسلام : الحضارة) فإن (العلمانية) وعزل (الدين) عن (الدولة) ، والفصل بينهما لم تكن قضية مطروحة على العقل العربي المسلم وهو يقيم بناء حضارته العربية الإسلامية .. وإنما القضية التي طرحت يومئذ هي : ((طبيعة السلطة السياسية في الدولة ومؤسساتها)) .. هل هي (دينية) ؟ .. الحاكم فيها نائب عن السماء ظ .. هل التي تعينه ، ليحكم بقانون إلهي لا دخل للبشر في سنه أو تعديله ؟ كما لا دخل لهم في الشورى أو التعيين أو العزل لهذا الحاكم ؟ .. لأن الإمامة أصل من أصول الدين ؟؟ ..

وبذلك قالت الشيعة ، وإنفردت دون سائر فرق الإسلام ومذاهبه وتياراته الفكرية .. أم أن هذه السلطة العليا في الدولة ذات طبيعة (مدنية) ؟ .. والأمة – بواسطة ممثليها – هي التي تختار صاحبها وتعينه وتبايعه ؟ .. ثم هي الرقيبة عليه والمحاسبة له ، ومن حقها ، بل من واجبها ، عزله ، أن هو خالف العهد ، وإن بالثورة ؟ وهو لا يعدو أن يكون منفذا للقانون الذي هو ثمرة للشورى والرأي والاجتهاد والوضع البشري ، في إطار الكليات والوصايا والمثل العليا والعامة ، التي هي دين ووحى السماء ؟ لأن الإمامة والخلافة من الفروع ، المتعلقة بمصالح الدنيا ، وليست من أصول الدين ؟

وبذلك قالت كل فرق الإسلام غير الشيعة ، على وجه الإجمال ، مع إختلافات مع بعض الجزئيات والتفصيلات ..

فمضمون العلمانية إذا مرفوض من كل التيارات .. لأن الشيعة – رغم إختلاف الدوافع والغايات – قد قالوا في هذه القضية بما قالت به الكنيسة الكاثوليكية في أوروبا العصور الوسطى ، وهو القول الذي نشأت (العلمانية) لتتصبه العداء .. أي أن رفضهم للعلمانية حاسم .

أما غير الشيعة ، من تيارات الإسلام الفكرية ، فهم وإن لم يقولوا بما يساوي (الحكم بالحق الإلهي) ، و (وحدة السلطتين) الدينية والزمنية ، إلا أنهم لم يقولوا بفصل الدين عن الدولة ، أو إستبعاده من شؤون المجتمع السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، وإنما قالوا قولاً وسطاً بين هذين الموقفين المتطرفين . فهذا القول الوسط الذي إختاروه قد جمعوا فيه شيئاً من هذا الطرف وشيئاً من ذلك الطرف ، فكانت نظرتهن في هذه القضية – برأينا – التعبير عن خاصية الحضارة العربية الإسلامية في الموازنة والتوازن ، ورفض التطرف الذي يمسك واحد من أطراف الظاهرة ، غافلاً عن الموقف المؤلف والموفق بين ما يحسبه البعض متناقضات لا سبيل إلى التوفيق بينها .. وهذا الموقف الوسط هو الذي لنسميه : (الدين) و (الدولة) وفيه :

أ أن يكون الحاكم الأعلى في المجتمع (الدولة) – نائباً عن الأمة ووكيلاً لها فيما تفوضه لها من سلطات ولها عليه الرقابة والحساب والعزل ، عند الإخلال بشروط التفويض .

ب كما يكون ، في الأساس ، منفذاً للقانون ، الذي يضعه مجتهدو الأمة بالشورى والنظر ، في إطار كليات الدين ومثله العليا ووصاياه العامة .. أي أن الأمة هنا هي مصدر السلطات ، شريطة أن تتقيد سلطاتها بالوصايا الدينية المتمثلة في النصوص القطعية الثبوت والقطعية الدلالة ، طالما بقيت هذه النصوص محقة لمصلحة الأمة .

تآ (فالدين) مدخل في (الدولة) لكنه لا يرقى إلى مستوى الوحدة كما أن علاقتهما لا تنزل إلى مستوى الفصل بينهما ، إنما هو (التمييز) بين (الدين) ، و (الدولة) .. فالتمييز هو المصطلح الأصح والأدق للتعبير عن نوع هذه العلاقة بينهما ..

ولقد زكى هذا الوسط ، الذي مثل جوهر موقف (الإسلام : الحضارة) في هذه القضية المحورية ، إن (الإسلام : الدين) لم يعترف لبشر بعد الرسول صلى الله عليه وسلم ، بسلطة دينية .. زمن الوحي ، وبلغت الإنسانية زمن الرشد وأوكلها الله إلى وكيله عندها : الكتاب – وهو القرآن الكريم .. والعقل – الذي جعله الله من أجل القوة الإنسانية ..

ومن ثم فقد كان طبيعياً ترفض (العلمانية) وأن يرفض نقيضها – الحكم بالحق الإلهي – ووحدة السلطتين : الدينية والزمنية – لأن كليهما قام في مناخ فكري وعملي كان الإعتقاد (بالكهنة والكهنوت) و (السلطة الدينية) فيه مسلمة من المسلمين .. ولذلك فإننا نستطيع أن نقول : أن موقف (أي الإسلام : الحضارة) هذا ، كان هو التطبيق – في مجال السياسة والدولة – لموقف (الإسلام : الدين) ، الذي ينكر وجود سلطة دينية (لبشر – خارج نطاق الموعظة والإرشاد – الذي لم يحدد للحكم في الدولة نظاماً معيناً بذاته ، ولم يضع له نظرية ، ولم يسن له قانوناً .. كما أنه لم يهمله كلياً ، وإنما توسط في الأمر ، فوقف عند تحديد الفلسفة والمقاصد والغايات ، التي صاغها في سور ، المثل العليا و (وصايا) و (كليات)

المطلب الثالث : رأي الإسلام في مفهوم العلمانية كمعتقد أيديولوجي مذهبي.

الإسلام يرفض العلمانية رفضاً قاطعاً سواءً أكانت العلمانية بمعنى فصل الدين عن الحياة ، أم بمعنى اللاديني ، لأنها دعوة ضد الإسلام .

فالدولة في الإسلام ضرورة لا بد منها ، وذلك لإنفاذ الأحكام الشرعية ، وصيانة الحقوق ، ووصول الدين إلى أهدافه وأغراضه في حفظ الدين والنفوس والعقول والأعراض والمال وغيرها .

أما إذا أبعد الإسلام عن الحكم وعطلت صلاحياته ، فتصبح كثير من أحكامه وتشريعاته حبراً على ورق ، لأنه لا يمكن تنفيذ تلك الأحكام من قبل الفرد وحده ، وذلك كالجهاد في سبيل الله تعالى ، وتنفيذ القصاص ، وجباية الزكاة ، وتأمين الطرق ، ونشر الأمن ، وفض الخصومات وما شابه ذلك .

إن الإسلام جاء عقيدة تنظم علاقة الناس بربهم ، وشريعة تدبير جميع شئون الحياة كلها ، والدين عند الله تعالى هو الإسلام ، والإسلام كما يدل عليه إسمه هو الإسلام هو الإستسلام لله بالتوحيد ، والإنقياد له بالطاعة ، والخلوص من الشرك .

وقد شملت أوامر الله ونواهيه الحياة بأسرها ، فليس هناك جانب من جوانب الحياة أو شيء من نظمها إلا والله تعالى فيه حكم ، فحياتنا العقدية ، والاجتماعية ، والتربوية والاقتصادية ، والسياسية ، وضع لنا أصول التعامل فيها ، وفصل لنا بعض جوانبها تفصيلاً .

قال تعالى : (ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين) (1) .

قال الإمام ابن كثير - رحمه الله - : " قال ابن مسعود : قد بين لنا في هذا القرآن كل علم وكل شيء . وقال مجاهد : كل حلال وكل حرام ، وقول ابن مسعود أعم وأشمل ، فإن القرآن إشتمل على كل نافع من خبر ما سبق ، وعلم ما سيأتي ، وكل حلال وحرام ، وما الناس إليه محتاجون في أمر دنياهم ودينهم ومعاشهم ومعادهم (2) .

ويمكن إيضاح وبيان حكم الإسلام من العلمانية كما يلي :

1 - العلمانية من الجانب العقدي تعني التكر للدين وعدم الإيمان به ، وترك العمل بأحكامه، وحدوده ، وهذا كفر صريح .

1 - سورة النحل ، الآية (89) .

2 - تفسير ابن كثير : (631/2) .

2 - العلمانية في الجانب التشريعي تعني فصل الدين عن الدولة ، أو فصل الدين عن الحياة كلها ، وهذا يعني الحكم بغير ما أنزل الله .

وقد فصل علماء العقيدة الحكم بهذا على النحو التالي :

أ - إذا وقع الحكم بغير ما أنزل الله تعالى والحاكم (سواء أكان فرداً أم مجموعة) يرى أن حكم الله غير صالح أو غير جدير ، أو أن حكم القوانين أصلح وأتم وأشمل لما يحتاجه

الناس ... أو إعتقد أن حكم القوانين مساوية لحكم الله ورسوله ، أو إعتقد جواز الحكم بما يخالف حكم الله ورسوله ونحو ذلك فهو كفر إعتقد مخرج عن الملة (1) .

ب - وإذا وقع الحكم عن جهل ، أو ضعف ، أو لهوى في نفس صاحبه ، أو لغرض دنيوي، مع الإعتقاد بأن حكم الله تعالى ورسوله - صلى الله عليه وسلم - أحق وأصلح وأجدر ، وأنه أفضل من القوانين الوضعية فهذا كفر عملي ، وهو فسق وظلم تقام الحجة على صاحبه ، ويبين له الحق ، ويجب على لمسلم أن يتوب إلى الله تعالى ، ويرجع إليه (2) .

ويدل على ذلك فهم السلف لقوله تعالى : (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) (3) .

حيث قال ابن عباس - رضي الله عنهما : " ليس بكفر ينقل عن الملة " بل إذا فعله فهو به كفر وليس كمن كفر بالله وباليوم الآخر ، وبكذا وكذا (4) .

وقال طاووس مثله ، وقال عطاء : " كفر دون كفر ، وظلم دون ظلم ، وفسق دون فسق (5) .

قال شارح الطحاوية : " وهنا أمر يجب أن يتفطن له ، وهو أن الحكم بغير ما أنزل الله قد يكون كفرا ينقل عن الملة ، وقد يكون معصية كبيرة أو صغيرة " وذلك بحسب حال الحاكم، فإنه إن إعتقد أن الحكم بما أنزل الله غير واجب ، وأنه مخير فيه ، أو إستهان به مع تيقنه أنه حكم الله فهذا كفر أكبر ، وإن إعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله ، وعلمه في هذه الواقعة، وعدل عنه مع إقراره بأنه مستحق للعقوبة فهذا عاص ويسمى كافرا (6) .

1 - أنظر تحكيم القوانين لسماحة الشيخ محمد بن إبراهيم ص 16 - 20 .

2 - أنظر تحكيم القوانين ص 24 ، والموجز في الأديان ص 111 .

3 - سورة المائدة ، الآية (44) .

4 - أنظر كتاب الإيمان لأبي عبيد بن سلام ص 94 (ضمن رسائل أربع) . وتفسير الطبري (256/6) مدارج السالكين (365/364/1) .

5 - كتاب الإيمان لأبي عبيد بن سلام ص 94-95 ، تفسير الطبري (256/6) .

6 - شرح العقيدة الطحاوية ص 363-364 .

ومن المعلوم أن الحكم بما أنزل الله في الشريعة الإسلامية يعني الحكم بالكتاب والسنة على السواء . كما يدل على ذلك قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله وباليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً (1) .

وقال الشيخ عبد العزيز بن باز - رحمه الله :

" ... أما من حكم بغير ما أنزل الله أتباعاً للهوى ، أو لرشوة ، أو لعداوة ينة وبين المحكوم عليه ، أو لأسباب أخرى ، وهو يعلم أنه عاص لله بذلك ، وأن الواجب عليه تحكيم شرع الله فهذا يعتبر من أهل المعاصي والكبائر ويعتبر قد أتى كفرأ أصغر وفسقا أصغر ، كما جاء هذا المعنى عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وعن طاووس وجماعة من السلف الصالح وهو المعروف عند أهل العلم " (2) .

3 – والعلمانية من الجانب الأخلاقي تعني : الإنفلات والفوضى في إشاعة الفاحشة والرذيلة والشذوذ ، والإستهانة بالدين والفضيلة ، وسنن الهدى ، وهذا ضلال مبين وفساد في الأرض ، ومن العلمانيين من يرى أن سنن والآداب الشرعية والأخلاق الإسلامية إنما هي تقاليد موروثة . وهذا تصور جاهلي منحرف (3) .

إن العلمانية في حكم الإسلام دعوة مرفوضة ؛ لأنها دعوة إلى حكم الجاهلية ، أي إلى الحكم بما وضع البشر ، لا بما أنزل الله ، والله تعالى يقول في محكم كتابه العزيز :

{ وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم في ما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون وأن أحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم وإحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل إليك فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيرا من الناس لفاسقون أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون } (4).

يقول ابن كثير – رحمه الله – عند قوله تعالى : { وأن أحكم بينهم بما أنزل الله } : أي فاحكم يا محمد بين الناس : عربهم ، وعجمهم ، أميهم وكتابيهم بما أنزل الله إليك هذا الكتاب العظيم ، وبما قرره لك من حكم من كان قبلك من الأنبياء ، ولم ينسخه في شرعك " (5) .

1- سورة النساء ، الآية (59) .

2- مجموع فتاوى ومقالات متنوعة (416-4) وأنظر (2/326) من نفس الكتاب .

3- أنظر : الموجز في الأديان ص 111.

4- سورة المائدة ، الآيات (48-50) .

5- تفسير ابن كثير (72/2) .

وقال رحمة الله عند قوله تعالى { أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون } : " ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله المحكم المشتمل على كل خير الناهي على كل شر ، وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء والإصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله ؛ كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات مما يضعوها بأرائهم وأهوائهم ... ومن أعدل من الله في حكمه لمن عقل عن الله شرعه ، وآمن به ، وأيقن ، وعلم أن

الله أحكم الحاكمين ، وأرحم بخلقه من الوالدة بولدها ، فإنه تعالى هو العالم بكل شيء ، القادر على كل شيء ، العادل في كل شيء " (1) .

ومن الآيات المبينة لأصول الحكم وقواعده :

قوله تعالى : { إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعما يعظكم به إن الله كان سميعا بصيرا يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله وبالْيَوْمِ الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا } (2) .

وقوله تعالى : { فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين } (3) .

وقوله تعالى : { فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما } (4) .

يقول ابن كثير - رحمه الله تعالى - عند الآية الأخيرة : " يقسم الله تعالى بنفسه الكريمة المقدسة أنه لا يؤمن أحد حتى يحكم الرسول - صلى الله عليه وسلم - في جميع الأمور ، فما حكم به فهو الحق الذي يجب الإنقياد له باطنا وظاهرا " ولهذا قال : { ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما } " أي إذا حكموك يطيعونك في بواطنهم ، فلا

يجدون في أنفسهم حرجا مما حكمت به ، وينقادون ه في الظاهر والباطن ، فيسلمون لذلك تسليما كلياً من غير ممانعة ولا مدافعة ولا منازعة ... " (5) .

وقال تعالى : { إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم الفلاحون } (6) .

1- تفسير ابن كثير (73-72/2) .

2- سورة النساء ، الآيةان (58-59) .

3- سورة آل عمران ، الآية (159) .

4- سورة النساء ، الآية (65) .

5- تفسير ابن كثير (1/553) .

6- سورة النور ، الآية (51) .

وقال عز و جل { ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين } (1) .

إلى غير ذلك من الآيات في هذا الخصوص .

ومن نصوص السنة التي تتعلق بالحكم ما يلي :

- 1 - عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال :
" إنما الإمام جنة (2) يقاتل من ورائه ويتقى به (3) ... " (4) .
- 2 - وعن ابن عمر - رضي الله عنه - أنه أتى ابن مطيع قال : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول " : من خلع يدا من طاعة ، لقي الله يوم القيامة لا حجة له ، ومن مات وليس في عنقه بيعة ، مات ميتة جاهلية " (5) .
- 3 - وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي - صلى الله عليه وسلم - - قال : " من أطاعني فقد أطاع الله ومن أطاعني فقد أطاع الله ومن يعصني فقد عصى الله ، ومن يطع الأمير فقد أطاعني ، ومن يعص الأمير فقد عصاني " (6) .
- 4 - وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : " قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " عليك السمع والطاعة في عسرك ويسرك ، ومنشطك ومكرهك ، وأثرة (7) عليك (8) .
- 5 - وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال :
" إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم " (9) .

-
- 1- سورة آل عمران ، الآية (85) .
 - 2- الإمام جنة أي : كالستر ؛ لأنه يمنع العدو من أذى المسلمين ، ويمتنع الناس بعضهم من بعض ويحمي بيضة الإسلام ؛ ويتقيه الناس ويخافون سطوته . شرح النووي على مسلم (230/12) .
 - 3- ومعنى يتقى به شر العدو وشر أهل الفساد والظلم مطلقا .
 - 4- صحيح البخاري يشرح الفتح 116/6 كتاب الجهاد حديث 2957 ، صحيح مسلم 1471/3 كتاب الإمامة حديث (1841) .
 - 5- صحيح مسلم (1478/3) كتاب الإمامة حديث (1851) .
 - 6- صحيح البخاري يشرح الفتح 116/6 كتاب الجهاد رقم الحديث (2957) صحيح مسلم (1466/3) كتاب الإمامة حديث (1835) .
 - 7- الأثرة هي الإستئثار والإختصاص بأمور الدنيا عليكم ، أي سمعوا وأطيعوا ، وإن إختص الأمراء بالدنيا ولم يوصلوكم حكمكم مما عندهم .
 - أنظر : شرح النووي على مسلم (225/12) .
 - 8- صحيح مسلم (1467/3) كتاب الإمامة حديث (1836) .
 - 9- سنن أبي داود (81/3) كتاب الجهاد حديث (2608-2609) .

- 6 - وعن عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
" ... لا يحل لثلاثة نفر يكونون بأرض فلاة إلا أمروا عليهم أحدهم ... " (1) .

يقول ابن تيمية - رحمه الله : " فإذا كان - أي النبي صلى الله عليه وسلم - قد أوجب في أقل الجماعات وأقصر الاجتماعات أن يولي أحدهم كان هذا تنبيها على وجوب ذلك فيما هو أكثر من ذلك (2) .

إلى غير ذلك من الأدلة الكثيرة من الكتاب والسنة التي تدل على أنه لا بد من إقامة حاكم يرعى حقوق الله تعالى ، ويصون حقوق الناس ، ويسوس الأمة بالعدل ، وينصف المظلوم ، ويؤدي لكل ذي حق حقه .

العلمانية في الفكر العربي خلال عصر النهضة

لعل السؤال المحوري الموجه للفكر العربي خلال عصر النهضة، هو السؤال عن أسباب وعوامل تخلف المسلمين، وإن طرح هذا السؤال بأشكال وصيغ متعددة. كما جاءت الإجابات أيضا متعددة ومختلفة. وفي هذا الإطار يمكن أن نميز بين اتجاهين أساسيين تبلورا خلال القرن التاسع عشر وهما الاتجاه السلفي المعبر عنه اليوم بأدبيات الإسلام السياسي والاتجاه الآخر المُعبر عنه بالعلماني الليبرالي.

ولا بأس أن نُشير أولاً إلى بعض المعطيات الفكرية العامة التي وجهت مشروع الإصلاح السياسي السلفي كما بلورته كتابات جمال الدين الأفغاني (1839-1897) ومحمد عبده خلال القرن التاسع عشر. فقد اعتبر الأفغاني ومحمد عبده أن قوة المسلمين السياسية، التي تمكنهم من مواجهة الأخطار الخارجية تكمن في اتحادهم، وفي هذا الإطار أسسا جمعية العروة الوثقى.⁸ وأيضاً التفكير في مشروع الجامعة الإسلامية وهذا هو البديل الذي يكفل القوة ويحقق التقدم وذلك على أساس أن العودة إلى الإسلام في منابعه الأولى وأصوله الموحى بها، أي الإسلام الحقيقي هو السبيل لعودة الأمجاد القديمة المتجلية في الدولة الإسلامية القوية التي كانت فيها العلوم مزدهرة، بما في ذلك حرية الفكر والتعبير. وهنا نجد رداً قوياً للأفغاني ومحمد عبده على كل المحاولات التي تميل إلى ربط الإسلام بالاستبداد أو تعارضه مع العقل والعلم والفلسفة. أو المحاولات التي تريد تهميش الدين والقضاء عليه، كالنظرية المادية والداروينية وهذا ما يتجسد في كتاب الأفغاني "الرد على الدهريين"، ما نريد التأكيد عليه هنا هو حضور الهاجس السياسي الذي يتأكد أكثر في كتابات الأفغاني وهدفه هو تأسيس دولة

⁸ البرت حوراني، الفكر العربي في عصر النهضة 1798-1939م. ترجمة: كريم عزقول، دار نوفل، بيروت، 1997م، ص122.

عربية إسلامية، أي الربط بين الدين والسياسة رغم أن محمد عبده يؤكد في مواضع كثيرة على مدنية السلطة السياسية.

فإذا كانت النخبة المثقفة في العالم العربي والإسلامي في القرن التاسع عشر، تشترك في الاعتقاد بواقع التأخر والجمود والانحطاط، فإنها لم تكن تفكر بطريقة واحدة في تجاوزه لمرحلة الانحطاط هذه، فقد اعتقد مثقفون آخرون عاصروا أقطاب السلفية الأول، أن إلغاء التأخر لا يتم إلا بتأسيس دولة التنظيمات من خلال إصلاح الجيش والتعليم ونظام جباية الضرائب، والنموذج هنا هو دولة الغرب الليبرالية. ومن هنا فإنه لا يمكن تجاوز وتخطي التأخر بالالتفات إلى النموذج الإسلامي وإنما يجب الاستفادة من كل ما وقع في أوروبا في سياق تجاوزها لعصورها الوسطى من خلال نهضاتها المتتالية.

من هنا جاء دفاع فرح أنطوان و هو من مؤسسي الاختيار الليبرالي العلماني في الخطاب السياسي العربي، عن ضرورة العلمنة باعتبارها جزءاً من اختيارات النهضة الأوروبية، وسبباً يكفل التسامح و حرية الفكر و العقيدة. كما دافع على ضرورة الفصل بين متطلبات الدين ومتطلبات الدنيا، بالإضافة إلى تلوينه بشعارات التسامح و المواطنة، وهو بهذا فإنه يستعيد أطروحات فلسفة الأنوار، ويبرر فرح أنطون ضرورة الفصل بين السلطتين الدينية والدنيوية من خلال بعض القضايا و منها:

- إطلاق الفكر الإنساني من كل قيد خدمة لمستقبل الإنسانية .
- الرغبة في المساواة بين أبناء الأمة، مساواة مطلقة بقطع النظر عن مذاهبهم ومعتقداتهم.
- ليس من شؤون السلطة الدينية، التدخل في الأمور الدنيوية لأن الأديان شرعت لتدبير الآخرة لا لتدبير الدنيا.
- ضعف الأمة و استمرار الضعف فيها، ما دامت جامعة بين السلطتين الدينية والدنيوية.
- استحالة الوحدة الدينية

وبمقابل هذه الرؤية، يرد الشيخ محمد عبده على فرح أنطون لكي يدافع على خصوصية التجربة الإسلامية واختلافها عن المسيحية، أمّا الخلاصة الأساسية لهذا الجدل، فتتجلى في المعالجة المباشرة والصريحة لمسألة العلمنة في الخطاب العربي المعاصر، وهي التي ساهمت في رسم الملامح الكبرى

للتوجهات الفكرية منذ عصر النهضة إلى حتى الآن. ويمكن أن نقول بأن معالجة فرح أنطون لمسألة العلمنة هي معالجة أفقية أي لم تقارب مسألة العلمنة من وجهة نظر تاريخية تطويرية. وهذا ما قام به فعلاً علي عبد الرازق (1888-1966)، فيما بعد وذلك في نصه الشهير "الإسلام وأصول الحكم" الذي حاول التأكيد فيه على أن الخلافة ليست ركناً من أركان الإسلام. ويرى بأن نظام الخلافة كان ضاراً بالإسلام، ووباء بالنسبة للمسلمين، ومصدراً للشروع والفساد. لذلك فمنصب الخليفة غير ضروري. ولا يعتبر جزءاً من الدين الإسلامي، ويؤكد على أن الدين لم يقيد المسلمين بنوع الحكومة سواء أكانت فردية أو جمهورية استبدادية أو شورية ديمقراطية أو اشتراكية أو بلشفية، "وأن الدين لم يقيد المسلمين بأي نوع منها وإنما قد ترك لنا أن نختار منها أحدث ما أنتجته العقول البشرية، وأمتن ما دلت عليه تجارب الأمم على أنه خير أصول الحكم".⁹ ويدافع عبدالرازق فيه على دنيوية وتاريخية الفعل السياسي في الإسلام.

وإذا ما رجعنا محاولين استقراء التاريخ فيما يتعلق بظهور الفكر العلماني الغربي فلا يمكن أن يختلف اثنان على أن الأسباب التي أدت إلى ظهوره هي عدة عوامل منها استحكام الكنيسة ورجال الدين والإقطاع، فلقد عاشت أوروبا في القرون الوسطى فترة قاسية، تحت طغيان رجال الكنيسة وهيمنتهم، وفساد أحوالهم، واستغلال السلطة الدينية لتحقيق أهوائهم، وإرضاء شهواتهم، تحت قناع القداسة التي يصفونها على أنفسهم، ويهيمنون بها على الأمة الساذجة، ثم اضطهادهم الشنيع لكل من يخالف أوامر أو تعليمات الكنيسة المبتدعة في الدين، والتي ما أنزل الله بها من سلطان، حتى لو كانت أموراً تتصل بحقائق كونية تثبتها التجارب والمشاهد العلمية. وقد شمل هيمنة الكنيسة النواحي الدينية، والاقتصادية، والسياسية، والعلمية، وفرضت على عقول الناس وأموالهم وتصرفاتهم وصاية لا نظير لها على الإطلاق. "لا بد من الاعتراف مسبقاً بوجود صعوبات متعددة تقف أمام تقديم تعريف دقيق ونهائي للعلمانية،"¹⁰ وتعود هذه الصعوبات لأسباب يمكن اختصارها بالآتي: أولاً، العلمانية لا تشير إلى حقيقة جوهرية لديها محتوى خاص، بل هي علاقة بين حقيقتين: الدولة والدين.

إذاً هي لا تنتمي إلى فئة الجوهر الخاص بل إلى فئة العلاقة. بمعنى آخر إنها مفهوم نسبي من خلال ذاتها أو جوهرها.

⁹مجمد عمارة، الإسلام وأصول الحكم لعلي عبد الرازق: دراسة ووثائق، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2000، ص 138.

¹⁰Maurice Barbier، "العلمانية"، بالفرنسية، دار Harmattan للنشر، باريس 1995، الصفحة 69.

ثانياً: العلمانية يلبسها طابع سلبي لأنها تقدم إنكاراً للدين داخل الدولة. إذن هي لا تبني علاقة إيجابية، بل فصلاً بين الدولة و الدين، أو بشكل آخر للقول، العلمانية بهذا المعنى لا تشير إلى علاقة واقعة مجسدة، بل إلى غياب للعلاقة.

ثالثاً: العلمانية ليست مفهوماً سكونياً بل تطورياً، أي أنها ترتبط بحقائق تتغير بنفسها وفي العلاقات فيما بينها، ويمكن أن تتطور وأن تأخذ معانٍ مختلفة وفق الزمن والظروف. لهذه الأسباب الثلاثة نقول بأن العلمانية تظهر لنا كمفهوم نسبي، سلبي ومتغير، أي أنه ليس لها محتوى ثابتاً. كل ذلك يقودنا للقول بوجود غموض في العديد من جوانب مفهوم العلمانية، وأننا نستطيع تقديم مفاهيم مختلفة بل متعارضة أحياناً لهذه الكلمة. بالإضافة لذلك، هناك من يخلط بين العلمانية نفسها وبين نتائجها أو تطبيقها عملياً. هذا الخلط يقوم فيه البعض أحياناً بين مفهوم العلمانية مثلاً ومفاهيم قريبة منها مثل حرية العقيدة أو حرية العبادات. ومن أجل الوصول إلى مفهوم للعلمانية لا بد بداية من إبعاد ونقد المفاهيم الخاطئة أو غير الكافية أو تنقية هذه المفاهيم من اللبس والغموض من أجل توضيحها. أيضاً لا بد من تمييز بعض المفاهيم و القيم القريبة لها والتي نقدمها كتعريف أو "هوية" للعلمانية.

المطلب الرابع : نماذج منتقاء من أبرز دعاة العلمانية " حسن حنفي " نموذجاً

" حسن حنفي " نموذجاً .

يعد الدكتور حسن حنفي من أبرز المشتغلين العرب في الفكر العلماني والفلسفة المعاصرة كما يتميز بألماعية وتفرد في معاينة الظواهر .

الدكتور حسن حنفي ولد في القاهرة عام 1935 وفيها نشأ وتعلم وحصل على البكالوريوس سنة 1956 ، ثم سافر إلى فرنسا فنال درجة الدكتوراء من جامعة باريس (السوربون) ، سنة 1966 وعاد ليعمل بقسم الفلسفة بالقاهرة حتى وصل إلى درجة أستاذ متفرغ وعلاوة على إتقانه أصول اللغة العربية يحيد اللغة الإنجليزية و الفرنسية والألمانية وهو ما مكنه من العمل كأستاذ زائر في عدد من الجامعات بالعالم منها جامعة تمبل (فيلاديلفيا) - 1971 - 1975 جامعة فاس (المغرب) 1982 كما عمل مستشاراً علمياً لجامعة الأمم المتحدة في طوكيو (1985-1987) .

إستهل الدكتور حنفي مسيرته العلمية بنشر كتاب (المعتمد في أصول الفقه) لأبي حسن البصري وقد صدر في جزئين بدمشق 1964 كما ترجم عدد من الكتب أبرزها (2):

نماذج من الفلسفة المسيحية ، الإسكندرية - 1968 .

رسالة في اللاهوت والسياسة - أسبينوزا القاهرة - 1973 م .

تربية الحس البشري - لسنج ، القاهرة 1977 تعالي الأنا موجود - سارتر - القاهرة 1977 .

ومن مؤلفاته :

1 - التراث والتجديد ، 1980 م .

1 - أنظر عدد من المقالات في موقع صيد الفوائد على شبكة الإنترنت .

2 - مقابلة شخصية للباحثة مع الدكتور حسن حنفي .

2 - ممن العقيدة إلى الثورة ، 5 ج - القاهرة - 1988 م .

3 - الدين والثورة في مصر - 8 ج - ، 1989 م .

4 - من النقل إلى الإبداع - 9 ج - 1999 م .

5 - مقدمة في علم الإستغراب ، القاهرة - 1999 م .

6 - حوار الأجيال ، القاهرة ، 1998 م .

7 - دراسات إسلامية ، القاهرة ، 1982 م .

8 - دراسات فلسفية ، القاهرة 1987 م .

9 - هموم الفكر والوطن ، 2 ج - الإسكندرية 1997 م .

10 - جمال الدين الأفغاني - القاهرة ، 1998 م .

وصدر له بالإنجليزية :

1 - الحوار بين الدين والثورة - القاهرة ، 1977 م .

2 - الإسلام في العصر الحديث - 2 ج القاهرة 1995 م .

وصدر له وبالفرنسية :

1 - مناهج التأويل - باريس - القاهرة 1965 م .

2 - تأويل الظاهريات (باريس - القاهرة ، 1966 م .

وحظيت أعماله بدراسات متخصصة صدرت فيها كتب منها (أنا والآخر - أحمد عبد الحليم ، القاهرة) .

التراث والغرب والثورة في فكر حسن حنفي ، ناهض حزر ، الأردن (اليسار الإسلامي محسن الملي ، تونس بالإنجليزية أسيموزاكي ، الجامعة الدولية - اليابان .

ومن خلال زيارة الباحثة للأستاذ الدكتور حسن حنفي بتاريخ 25 - 4 - 2014 م وبعد مناقشته مناقشة مستفيضة حول مفهوم العلمانية فتفضل الدكتور بالإجابة عن مفهوم العلمانية من منظور إسلامي قائلا أن العلمانية ظاهرة تنتمي للحضارة الغربية ، تعني الفصل بين الكنيسة والدولة ، أي أنه يأخذ بالتعريف الجزئي دون تحفظ " لنا أن نلاحظ أن معظم من يأخذون بالتعريف الجزئي لا يرون العلمانية باعتبارها ظاهرة عالمية وإنما يرون المجتمعات الغربية المسيحية وخصوصياتها (إنطلاقاً من هذا التعريف يرى الدكتور حنفي أن العلمانيين أغلبهم من النصارى وخاصة نصارى الشام ممن تربوا في المدارس الأجنبية وفي إرساليات التبشير لذا كان ولائهم الحضاري ، للغرب ، ودعوى إلى النمط الغربي في التقدم ثم تابعهم في ذلك بعض المسلمين .

وأدى ذلك بالحركات الإسلامية إلى الرفض للعلمانية (عن الحق) وربطها (بالتغريب) بما يتضمن ذلك من إستعمار وتبشير ورفع شعار الحاكمية فالخطأ الأول نقل العلمانية الغربية ، أحدث في تصويره - رد فعل خاطئ وهو الحاكمية .

ويذهب الدكتور إلى أن " هذا الوضع خلق تصورا خاطئاً بأن تم تعارض بين العلمانية والإسلام (1) .

وهنا نجد ان الدكتور حنفي بدأ يترك نطاق الحضارة الغربية و العلمانية الغربية ، كما بدأت العلمانية عنده تتحول إلى ظاهرة عالمية ، بل حتمية ، ولذا تحدث عن الجوهر العلماني للإسلام ، و لا تختلف هذه العلمانية الإسلامية الجديدة كثيراً عن الغربية الا في انها نابعة

من الداخل و ليس من الخارج ، والاسلام كما يري الدكتور حسن حنفي - دين علماني (بالنعني العالمي لا الغربي) للأسباب التالية :

(ا) النموذج الإسلامي " قائم على العلمانية " (بمعنى غياب الكهنوت).

(ب) الاحكام الشرعية الخمسة (الواجب - المندوب - المحرم - المكروه - المباح) تعبر عن مستويات الفعل الانساني الطبيعي ...و تصف أفعال الانسان الطبيعية ، كما ينبغي العلمانيون ، خارج دائرة الحلال و الحرام الصوريين المفروضين من الخارج ... ثمة تطابق مذهل هنا بين الإسلامي و العلماني ، بينما هو كامن في الإنسان و ماهو متجاوز له ، يذكر المرء بمحاولة الفلسفة المثالية الالمانية بأن تحل كل مشاكلها كلها بأفترض تماثل بين قوانين العقل و قوانين التاريخ و قوانين الطبيعية ، و يري الدكتور حسن حنفي " ثمة تماثل بين المقدس و الزماني .

(ج) الفكر الانساني العلماني الذي حول بؤرة الوجود من الاله الى الانسان " وجد بشكل متخفي في تراثنا القديم ، مغتربا في الله في علم اصول الدين ، و عقلا خالصا في علوم الحكمة ، و تجربة ذوقية في علوم التصوف ، و كسلوك عملي في علم اصول الفقة " و نلاحظ هنا الحلول و الكمون الكامن في الانسان الذي يغترب عن جوهره في الاله المتجاوز ، و كل هذا يشير بأن الدكتور حنفي يقف ضد كل ماهو متجاوز للإنسان يحول الانسان إلى مطلق ، كما فعل الاستاذ محمود امين والدكتور فواد زكريا وغيرهما من العلمانيين العرب ،أي تأكيد المرجعية الانسانية المطلقة المتجاوزة للمادة (وأثر فيورباخ علي أطروحات الدكتور حسن حنفي أمر واضح) (ولكن شبح الطبيعة /المادة رباط دائما في كل الفلسفات دات التوجه الهيجلي، ما لأنسان في كتابات الدكتور حسن حنفي هو الأنسان الطبيعي /المادي الذي لا مرجعية له سوى المرجعية المادية ولا عقل له سوى هذا العقل الدنيوي المادي).

بعد أن تتحول العلمانية إلى ظاهرة عالمية يتسع نطاقها لتصبح علمانية تترك السياسي لتعطي كل مجالات الحياة فالعلمانية في تصور د. حنفي لم تعد مجرد فصل مجرد فصل الدين عن الدولة وإنما أصبحت رؤية كاملة للكون (تحويل بؤرة الوجود من الإله إلى الإنسان) و((جزاء من الحياة اليومية)).

ولدا نجد أن الغرب بتبنيه العلمانية تغطي كل هذه المجالات وتزود الانسان بمنظومة قيمية ومرجعية شاملة،يمكن أن نستخلص ملامحها من كتابات الدكتور حسن حنفي ((ولعل وصفه للعناصر العلمانية في الإسلام هو أيضا وصف لهذه الرؤية للكون)).

رؤية جديدة لمفهوم العلمانية (تحليل ختامي)

كتب القس الألماني "جونفرايد كونزلن" وهو عالم اجتماع أيضا يقول : "لقد مثلت العلمانية : تراجع السلطة المسيحية، وضياح أهميتها الدينية، وتحول معتقدات المسيحية إلى مفاهيم دنيوية، والفصل النهائي بين المعتقدات الدينية والحقوق المدنية، وسيادة مبدأ : دين بلا سياسة وسياسة بلا دين، ويضيف كونزلن من نتائج العلمانية فقدان المسيحية لأهميتها فقداناً كاملاً، وزوال أهمية الدين كسلطة عامة لإضفاء الشرعية على القانون والنظام والسياسة والتربية والتعليم، بل وزوال أهميته أيضا كقوة موجهة فيما يتعلق بأسلوب الحياة الخاصة للسواد الأعظم من الناس، وللحياة بشكل عام. ولقد قدمت العلمانية الحداثة باعتبارها دينا حل محل الدين المسيحي، يفهم الوجود بقوى دنيوية، هي العقل والعلم .. لكن وبعد تلاشي المسيحية، سرعان ما عجزت العلمانية عن الإجابة على أسئلة الإنسان، التي كان الدين يقدم لها الإجابات، فالفناعات العقلية أصبحت مفتقرة إلى اليقين، وغدت الحداثة العلمانية غير واثقة من نفسها، بل وتفكك أنساقها العقلية والعلمية عدمية وما بعد الحداثة .. فدخلت الثقافة العلمانية في أزمة، بعد أن أدخلت الدين المسيحي في أزمة .. فالإنهاك الذي أصاب المسيحية أعقبه إعياء أصاب كل العصر العلماني الحديث .. وتحققت نبوءة نيتشة (1844-1900) عن "إفراز التطور الثقافي الغربي لأناس يفقدون نجمهم الذي فوقهم، ويحيون حياة تافهة، ذات بعد واحد، لا يعرف الواحد منهم شيئا خارج نطاقه!" .. وبعبارة ماكس فيبر (1864-1920) : لقد أصبح هناك أخصائيون لا روح لهم وعلماء لا قلوب لهم !" ولأن الاهتمام الإنساني بالدين لم يتلاشى، بل تزايد .. وفي ظل انحسار المسيحية، .. انفتح باب أوروبا لضروب من الروحانيات وخليط من العقائد الدينية لا علاقة لها بالمسيحية ولا بالكنيسة .. من التنجيم .. إلى عبادة القوى الخفية والخرافة، فالاعتقاد بالأشباح، وطقوس الهنود الحمر، وروحانيات الديانات الأسبوية .. والإسلام، الذي أخذ يحقق نجاحاً متزايداً في المجتمعات الغربية. لقد أزالت العلمانية السيادة الثقافية للمسيحية عن أوروبا .. ثم عجزت عن تحقيق سيادة دينها العلماني على الإنسان الأوروبي، عندما أصبح معبدها العلمي عتيقاً ! .. بالتالي فقد الناس النجم الذي كانوا به يهتدون : وعد الخلاص المسيحي .. ثم وعد الخلاص العلماني.¹¹ .. تلك شهادة خبير أوروبي في الدين والاجتماع على جناية العلمانية على الدين في أوروبا .. نرجو من الذين يدعون إلى هذا التجربة التي قاستها أوروبا وتجنبت تبعاتها ! .. وهناك من الكتاب الذين يحسبون على التيار المعادي للإسلام ممن تنبهوا إلى أن الحياة الأوروبية اليوم بمعناها المتحرر والمُبالغ في رفع القيود على الحريات الخاصة وهم ممن يؤيدون الزواج المثلي وما شابه ذلك، أن في ذلك البعد عن الدين فساد الأمة وضعفها نظراً لعدم احترامهم للقيم والتقاليد العريقة والدين، وقد تناولوا ذلك من زاوية أن المسلمين المقيمين في أوروبا والذين

¹¹ جونفرايد كونزلن، مازق المسيحية والعلمانية في أوروبا، ترجمة وتحقيق محمد عمارة، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1999، صص 17-18.

يحملون جنسية البلد المقيمين فيه يتزايدون بشكل مستمر في الوقت الذي هم يتجهون إلى الفردية والأنانية والمثلية. بل وقد لا يؤمن اليوم في أوروبا بوجود إله مجرد وجود إله سوى 14 % من السكان، وكثير من الكنائس الأوروبية اليوم معروض للبيع، فما الذي صنع هذا الخراب الروحي بقلب العالم المسيحي؟! إن بابا الفاتيكان يتهم العلمانية بأنها السبب الأول في هذا الإفلاس المسيحي الذي أصاب أوروبا، والذي جعلها "فراغاً روحياً" ينتشر فيه الإسلام..!

وفي المقابل هناك رأي آخر يرى بأن المبررات المنطقية لدى غالبية الذين يتبنون العلمانية كفكرة ونظرية ويعتبرونها مخرجاً من مأزق التخلف والهيمنة الفكرية والتبعية الاقتصادية في البلدان العربية والإسلامية، وفك ارتباط سيطرة الفكر الديني الذي يثبت يوماً بعد آخر أنه فكر قائم على العنف والكرهية ونصب العداء للآخر، ذلك الآخر الذي لا ينتمي إليه أو ذلك الذي لا ينضوي فكرياً ولا مادياً تحت لوائه ولا يخضع له... بالتالي فقد رأى هؤلاء بأن الحل يكمن في طريق ثالث وهو أنك لا تجبرني على أن أكون مثلك ولا تمارس العنف ضدي إذا لم يعجبني معتقدك..! لكن الصراع مستمر وإن لم يكن الجانب الأول أقوى .. لكنه أعنف وأصعب ويمارس شتى السبل للقضاء على من يخالفه بل حتى من يفكر قبل أن يفعل ..!

فهذا المفهوم أو اللفظ الذي يمكن تبنيه بما لا يتعارض وقيم ديننا، وخاصة إذا ما أمرنا ونصحنا هذا الدين الحنيف على إتباعه وهو احترام حقوق الآخرين وعدم التعدي عليهم إلا بالحق والتعايش السلمي معهم، كما أكدت ذلك السنة المحمدية وسنة الخلفاء المهديين الذين أمرنا بإتباع سنتهم، التي تكن يوماً معادية لحريات البشر ولا لحقوقهم. فهذه القيم المحمودة إذا شئنا تسميتها أو إطلاق عليها مصطلحاً لا يتعارض وديننا الحنيف، فبإمكاننا أن نقول " اللكم واللنا" استهداءً بقوله تعالى " لكم دينكم ولي دين.. الآية"، فإنها أي "اللكم واللنا" تشكل الحدود الفاصلة بين المواطنة والانتماء الديني، كما أنها الضامن للتعددية في ظل وجود نظام من الحريات والمساواة. لذلك فتستحق أن نعطيها الكثير من الوقت والبحث، لاسيما أنها تتضمن مُركّبات في غاية الأهمية من أجل بناء دولة مدنية وبذلك فهي تعني:

- استقلالية الدولة تجاه جميع الأديان والطوائف، وتمنع هذه الأديان من فرض مفاهيمها الخاصة فيما يتعلق بحرية العقيدة.

- يجب أن تعترف باستقلالية الفرد تجاه الدولة، أي أن الدولة لا تستطيع توجيه الفرد من أجل الانتماء لدين أو طائفة معينة. "إنك لا تهدي من أحبتت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين¹²". صدق الله العظيم.
 - تعمل على إعداد تعد وتهيئة مناخ حرية العقيدة. "ياأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم¹³". صدق الله العظيم
- فهذه "اللكم واللنا" تبرر وجود مدرسة محايدة، والتي تنقل الثقافة من غير خضوع أو امتيازات لدين أو طائفة معينة. وتفرض على الدولة المعاصرة واجب إعداد وتهيئة كل ما يتعلق بحرية الاعتقاد. هذا الواجب لا يعني فقط أن يتم منع فرض دين أو طائفة معينة، بل السماح لكل فرد، وبشكل حقيقي، أن يعيش الفناعات التي يريدھا. أيضاً تتطلب معلمين وتربويين يحترمون الحرية، ولا يحاولون فرض أي اعتقاد محدد وفي نفس الوقت يقدموا ويساعدوا في وجود إمكانيات تساهم وتدعم حرية الاختيار والحوار. ولا مانع من أن تولي الدولة نوعاً من تغليب المصلحة بناءً على التعداد السكاني لمواطنيھا.. فلا بأس من أن توفر الدولة التي يكون فيها الغالبية من المسلمين الرحلات الجوية بشكل مكثف في موسم الحج، أو توفر سلع معينة في رمضان نظراً لكثرة الصائمين، ولكنها بأي حال من الأحوال لا تستطيع أن تفرض رقابة على من يفطر في هذا الشهر.. أو تجبره على الصلاة.. على الرغم مع أنني على قناعة تامة بضرورة فرض الزكاة كما جاءت في السنة الغراء لما لذلك فائدة مهمة جداً في الحد من الفقر والحاجة، التي من الممكن أن تجعل من الفقراء ينحرفون وينجرون إلى الانحراف والجريمة نتيجة فقرهم كما تؤكد الكثير من الأبحاث ونظريات علم اجتماع الجريمة.

إنه وضمن منطق بناء القيم المشتركة لمستقبلنا، يجب أن نتسامح أو ألا نرفض الفصل بين الديني و السياسي. فالفصل بين الديني والسياسي ليس فكراً معادياً للدين أو فكراً صراعياً موجهاً لإلغائه، فاليوم من المستحيل بناء ديمقراطية تحت ظلال السيوف والخلط بين الديني والسياسي. فرفض العبادة أو التعبد ليس رفضاً للدين، بل هو رفض لوجود دين للدولة، أو وجود أخلاق محددة للدولة يتم فرضها من خلال إجراءات قانونية مباشرة أو غير مباشرة. الفصل بين السياسي والديني ليس، فقط، حاجة للطوائف أو الأقليات الدينية "السماوية"، بل هو أيضاً حاجة للأديان "الدنيوية" التي عرفت الكثير من الأهمية مع نهاية القرن العشرين وبداية هذا القرن. إن البحث عن فصل الديني عن السياسي هو العمل على رفض

¹² الآية 56: القصص.

¹³ الآية 105: المائدة.

ضع سلطة الدولة في خدمة دين معين، وبقدر تبني هذا المبدأ بقدر ما نتمكن من إرساء بناء قيمنا المشتركة.

خلاصة القول أن لا سبيل في معركة الحضارة والتجدد الشامل والحدثة المعاصرة إلا من خلال السعي الدائب للانتصار على أزمة فكرنا التي لا يمكن فصلها عن أزمة الواقع العربي نفسه موضوعاً وتاريخياً، أزمة التخلف والتبعية، وأزمة العلاقة بين المجتمع السياسي والمجتمع المدني، وأزمة الهيمنة الخارجية الاستغلالية على منطلقات تنميتنا الاجتماعية والثقافية والقومية ومقدرات حياتنا، وهي في النهاية أزمة فكر نظري نتيجة الأزمات المتداخلة وفقدان الرؤية الإستراتيجية الشاملة لتغيير الواقع وتجديده، وأنا لن نتجاوز تخلفنا وتبعيتنا إلا بالنقد العقلاني والرؤية التاريخية لجذور التخلف والتبعية في فكرنا وواقعنا الراهن، ولن نتجاوز هذا التخلف إلا بالامتلاك المعرفي بحقائق الثورة العلمية الجديدة، ثورة المعلوماتية وبمشروع تنموي نهضوي شامل ذي أبعاد اجتماعية وثقافية وفكرية واقتصادية، مشروع يستوعب تراثنا العربي الإسلامي استيعاباً عقلانياً نقدياً متنوراً، وأيضاً وقف الحرب ضد المتفكرين العقلانيين، أولئك الذين يطالبون بالحوار الفكري المتحضر، ومجابهة الحاضر الظلامي والفكر الضيق، وإنجاز الثورة الثقافية واستعادة قيم التنوير والعقلانية والعلمية والديمقراطية، وتجديد الفكر العربي المعاصر وتأصيله في الحياة العربية، الثقافية والفكرية.

وأخيراً، فإن صورة المستقبل في ظل المناخ الانحطاطي الذي يعيشه العالم العربي، ومع تفاقم التعصب والتحجر تنذر بويلات، وما من خلاص إلا بتحرير العقل والعودة إلى ينباع الحضارة والتصدي لكل أنواع السعار الفكري وألوان التعصب والتطرف الديني الذي يستهدف وأد العقل العربي، والتضامن صفاً واحداً دفاعاً عن حرية الإنسان وحقوقه لبناء مجتمع مدني متطور يحكمه العقل والتنوير، وأن الألوان للتوقف عن الهزل الذي يطالنا به البعض بين فينة وأخرى بحجة الدفاع عن الإسلام، فنحن نعرف ديننا وتراثنا، نعرف إسلامنا وتاريخنا، ولسنا بحاجة إلى المتعصبين من الوعاظ والدعاة الذين ما انفكوا على تأجيج الفتن والحروب الطائفية. وأولئك الذين يؤولون ويفسرون بناءً على ما يُملى لهم، أو تلك التفسيرات الظلامية التي لا تعبر إلا على جهل وقصر نظر، وتلك الفئة التي تتبنى الإسلام السياسي والتي تتاجر بالدين وتعلن الحرب على من لا ينتمي لتعصبهم الأعمى.

ومما لا شك أن أدلجة الدين والتشديد على دنيويته يفضي إلى تفريغه من مضمونه الروحي، ويستغرقه في مجالات بعيدة عن العوالم الداخلية الباطنية للإنسان، وبدلاً من أن يعمل على تطهير الباطن،

وترسيخ النزعة الإنسانية والمعنوية، وتربية الذوق الفني، ومنح العواطف رقة وشفافية، بدلا من ذلك يتحول الدين إلى وسيلة للكرهية، وأداة للاحتراب والصراع.

لا جدال في أننا نمر بمرحلة انتقالية وعاصفة عامرة بالتناقضات واهتزاز القناعات الفكرية ، وبالهزات في كل جوانب الواقع العربي، السياسي والثقافي والفكري والاجتماعي . وهي مرحلة معقدة تحتاج للخطاب النقدي الإصلاحي والتنوير الثقافي العقلاني والتصدي الحازم للمنطقات والأفكار والمعتقدات الرجعية المسيطرة والسائدة في حياتنا وعالمنا، وللممارسات الظلامية، التي تجرنا للوراء وتُشل تفكيرنا وطموحنا وقدرتنا على العطاء والإنتاج والإبداع الحقيقي الخلاق، وتعيق بناء الشخصية الثقافية الحضارية العميقة، القدرة على المواجهة ومجابهة الصعاب وتحديات العصر.

إنّ الوعي التنويري مرتبط بعصر النهضة العربية الذي نشأ وتبلور في أرض الكنانة على يد رفاة الطهطاوي ثم تطور وانعكس على الحياة المدنية والثقافية في الأقطار والبلدان العربية، وهذا العصر تميز بالحوار والجدل الفكري العقلاني والنقاش العنيف بين أنصار القديم والسلفي وبين أنصار الجديد والتجديد والقابلية للتغيير والتطوير. فقد شهدت الحياة الفكرية والثقافية العربية المعاصرة خلال هذه الفترة تحولات في الحياة الثقافية وتشكلت المنابر الفكرية، وزاد الاهتمام بالثقافة الإبداعية التقدمية وبأفكار التنوير والعقلانية والتحرر والتقدم. وأقبلت طلائع الفكر والثقافة على التراث العربي تنهل من كتاباته طه حسين والعقاد والمازني وساطع الحصري والكواكبي واليازجي وغيرهم. وبعد نشوء وتغلغل الأصولية الدينية داخل المجتمعات العربية والإسلامية، في العقود الأخيرة، شهدنا انحطاطاً سياسياً ونكوصاً فكرياً، واستشراء النظم السياسية والطغم الدكتاتورية الحاكمة، واغتيالاً للوعي النقدي ولل فكر التقدمي، وانحساراً للعقلانية والتنوير وتراجع المشروع القومي الاجتماعي النهضوي الواعد، وتزايد الصدام والصراع والاستقطاب والاصطفاف الطائفي والانفراد بالسلطة، وتكريس الفكر الظلامي الاستقصائي والتكفير القمعي المتعصب. كما انتعشت الثقافة البرجوازية والاستهلاكية والفنون الضحلة والهشة والمدججة، وتفاقت الأزمات المادية والروحية والفكرية والثقافية والأخلاقية، وترسخت الأنانية والذاتية والنفعية والنرجسية ورفض بل وإلغاء دور الآخر.

والواقع أننا نشهد تراجعاً وانكماشاً لدور المثقفين العرب في عملية النهضة، وغياب للمداخلات والمساهمات والحوارات الفكرية حول الأجندة والقضايا الشائكة المفصلية الهامة، التي تواجه حركة التنوير العربية في أيامنا هذه. وهذا بالطبع ناتج وناجم عن الانكسارات والهزائم والاحباطات الثورية

والنفسية، والوضع البائس الذي يعيشه ويحياه المثقف العربي في ظل الفقر والاغتراب والقمع السلطوي والإرهاب الأصولي الديني.

أننا نحس بالألم العميق والقلق إزاء ما آلت إليه أوضاع وأحوال حركة التنوير في الوطن العربي، ولا يجوز بأي حال من الأحوال الاستمرار في توظيف الدين في خدمة المأرب والأهداف السياسية والمتاجرة بالمشاعر والعواطف الدينية المتأججة، وتعميق العنصرية والطائفية المقيتة والبغیضة بین شباب هذا العصر. ويجب استكشاف واستنباط مكنونات تراثنا العربي الإسلامي ونشر روح ومبادئ وقيم الإسلام الصحيح وتعاليمه الإنسانية، وتقاليده السمحة الداعية للثورة والرفض والتمرد على الظلم والقهر السياسي والاجتماعي والطبقي. لاسيما وأننا الآن نعيش مرحلة انتقالية خطيرة تتطلب المصارحة والمكاشفة النقدية، وإعادة النظر في الكثير من المسلمات والطروحات والاجتهادات الفكرية، ونشر المعارف الإنسانية، وتأسيس العقلانية والتنوير في الخطاب العربي المعاصر، بالإضافة إلى تعزيز الحوار ودعم المبادرات الرامية إلى إعادة صياغة وكتابة التاريخ العربي، وإحياء وإنعاش الفكر الجدلي التقدمي والثوري النهضوي، حتى نجعل الواقع العربي قابلاً للحياة والتطور والانتصار.

إن الفرصة سانحة الآن وهذا الوقت بالذات بعد ثورات الربيع العربي التي أطاحت بأعتى الديكتاتوريات في التاريخ، فقد أصبح المناخ أكثر ديمقراطية واحتدمت المعارك السياسية والمطارات السياسية والفكرية حول كل القضايا والمسائل الثقافية والدينية والاجتماعية والاقتصادية، وتوسع الإعلام وتحررت الصحافة والنشر العلمي من القيود القديمة البالية. فيا ليت أن نجعل منها فرصة للنهوض بمجتمعاتنا التي رزحت تحت أنظمة مستبدة مما قد أثر في سلوكنا وعلاقاتنا وطغى بشكله السلبي في مقدراتنا التربوية والتعليمية ومنظومة الأخلاق بشكل كامل..

الفصل الثالث

مفهوم السلف والسلفية قديما وحديثا

تمهيد

إن إدراك الحقائق الذهنية رهين الدلالة اللغوية ، ما في ذلك شك ، فالألفاظ أوعية للمعاني ، وهي ترجمان عن خوالج الإنسان ورؤاه ، ومعنى ذلك ، أن هناك علاقة لا انفصام لها بين اللغة والفكر ، ولكن بعض الألفاظ قد يعترىها غموض أو إبهام ، أو يصبح لها دلالات عديدة نتيجة أوضاع تمر بها الأمة الناطقة بتلك اللغة ، إستفاد السفسطائيون من غموض الألفاظ ، وإستغلوها في هدم حقائق العلم ومبادئ الأخلاق ، ولذلك عمد " سقراط " إلى تحديد معاني الألفاظ ، حتى يعيد للحقيقة يقينيتها ، ويدفع عنها الشك والنسبية ، كما نبه " بيكون " إلى الأخطاء التي تنشأ عن غموض اللغة ، والتي تكون كثيراً سببا في إعاقة العقل عن الوصول إلى الحقيقة (1) .

ويعد لفظ (السلفية) من أكثر الألفاظ الغامضة عند الباحثين والمفكرين ، قديما وحديثا ، فكثيرا ما نجد إستعمالات لهذا اللفظ في معان غامضة ، ودلالات مبهمه .

فإبن منظور مثلا : يحدد المعني اللغوي لكلمة سلف بقوله : هو من تقدمك من آبائك وذوي قرابتك الذين هم فوقك في السن والفضل ، ولذا سمي الصدر الأول من التابعين : السلف الصالح (2) .

أما الشهرستاني : فإنه يطلق هذه الألفاظ على مذهب ديني معين ، وهو مذهب أهل السنة ، مبرزاً في الوقت نفسه خصائص هذا المذهب في تقرير المسائل العقدية ، فيقول :

وأما السلف الذين لم يتعرضوا للتأويل ولا تهدفوا للتشبيه ، فهم : مالك بن أنس ، إذ قال : الإبتداء معلوم ، والكيفية مجهولة ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة ، ومثل أحمد بن حنبل ، وسفيان الثوري ، وداود بن علي الأصفهاني ، ومن تابعهم (3) .

(1) توفيق الطويل : أسس الفلسفة ص 190 ، وقد سمي " فرنسيس بيكون " هذا النوع من الأخطاء بأوهام السوق .

(2) لسان العرب مادة سلف ، دار لسان العرب بيروت م2 ص 184 .

(3) الشهرستاني : الملل والنحل 93/1 .

وأيضاً نجد الأستاذ محمد عابد الجابري يستخدم هذا المفهوم في ثلاث دلالات مختلفة :
سلفية دينية ، وسلفية إستشرافية ، وسلفية ماركسية (1) .

كما أن لهذا المصطلح معنى آخر يدل على ما سماه أنور عبد المالك بـ (الأصولية)
(2) إلى غير ذلك من الإستعمالات التي لا تخضع إلى وضوح مفهومي دقيق (3) .

ونظراً إلى ما يكتنف هذا النفط من غموض وعدم تدقيق ، فإننا سنحاول تحديد معناه
وضبط مفهومه ، حسب التطور التاريخي أولاً ، وحسب المنهج و المضمون ثانياً ، حتى
تكون اللغة – بحق – أداة التفاهم والتعبير عن الأفكار .

وعلى هذا الأساس فقد قسمت الباحثة هذا البحث إلى مبحثين رئيسيين ، تناولت في هذا
المبحث الأول الجذور التاريخية لمفهوم السلف والسلفية ، وفي المبحث الثاني حللنا مفهوم
السلف والسلفية عند رائدي النهضة الإسلامية الحديثة (جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده)

.

-
- (1) مرشد محمد : مقال عنوانه : (بحثاً عن الأسس النظرية لفكر الأفغاني وعبده) ، نشر ضمن مقالات أخرى في كتاب
دروس في الحركة السلفية ، منشورات عيون الدار البيضاء ، المغرب ص 51 .
 - (2) الفكر العربي في معركة النهضة ، الترجمة العربية ، دار الآداب بيروت ، ط3 ، 1981 ص 26 .
 - (3) أنظر ص 19 من هذا المبحث .

المبحث الأول

الجذور التاريخية لمفهوم السلف والسلفية

اتفق معظم أصحاب المعاجم اللغوية (1) على أن المراد " بالسلف " : الجماعة المتقدمون وإستدلوا على ذلك بقوله تعالى :

(فَجَعَلْنَاهُمْ سُلَفًا وَ مَثَلًا لِلْآخِرِينَ) (2) .

ولكن هذا اللفظ سرعان ما إكتسب معنى إصطلاحيا ، حيث أطلق على إحدى الطوائف الدينية التي إختصت لنفسها منهجا معيناً للوصول إلى الحقيقة الدينية ، وهو إثثار السمع على العقل ، والإقتصار على الدلالة الظاهرية للنصوص الشرعية ، رافضة بذلك التأويل ، والإحتكام إلى العقل ومقاييسه ، وعلى هذا الأساس صار مصدر العلم عند هذه الطائفة : آية محكمة وحديثا مسندا ، ولا أدري (3) .

ومعنى ذلك أن " لا أدري " تعد من العلم في نظر السلف ، إذ كان صواباً من القول ، قال عبد الله بن عمرو بن العاص : من سئل عما لا يدري فقال : لا أدري ، فقد أحرز نصف العلم ، وقال مالك بن أنس : إذا ترك العالم لا أدري أصيبت مقاتلته (4) .

وقد نشأت هذه الطائفة كرد فعل على إنتشار ظاهرة التأويل التي نشأت بنشوء مقالتي الجهنمية (5) والقدرية (6) في نفي الصفات ، ومسؤولية الإنسان عن أفعاله ، حيث رأت في ظاهرة التأويل تعطيلاً للنصوص ، وإتباعاً للهوى ، وبالأحرى فتنة في الدين ، لأن الإستناد

(1) الراغب الأصفهاني : المفردات ص 239 ، الزمخشري : أساس البلاغة ص 217 ، ابن المنطور : لسان العرب مادة " سلف " .

(2) الزخرف : 56 .

(3) ابن عبد ربه : العقد الفريد 0269/1 ابن قيم الجوزية : إعلام الموقعين ، دار الجيل ، بيروت 1973 ، " ذم الصحابة للرأي " 53/1 .

(4) ابن عبد ربه : العقد الفريد 269/1 .

(5) نسبة إلى جهنم بن صفوان المتوفي سنة 128 هـ / 745 م . ومقاتله ذات شعيتين : إحداهما تتضمن نفي الصفات الإلهية كلها حيث يقول : لا يجوز أن يوصف الباري تعالى بصفات يوصف بها خلقه . والشعبة الثانية : تتضمن الجبر : هو أن الإنسان - في نظره - لا يقدر على شيء ، ولا يوصف بالقدرة ولا الإستطاعة . وقد تبرأ المعتزلة منه لقوله بالجبر . ولمزيد من التوضيح أنظر : البغدادي ((الفرق ص 211)) ، الشهرستاني ((الملل والنحل)) 86/1 : ومن المراجع الحديثة : القاسمي : تاريخ الجهنمية والمعتزلة

مطبعة المنار ، مصر 1331 هـ ، خالد العسلي : جهنم بن صفوان ومكانته في الفكر الإسلامي ، رسالة ماجستير ، المكتبة الأهلية بغداد 1965 .)

(6) القدرية : ظهرت هذه الفرقة في آخر أيام الصحابة على يد معبد الجهني (ت . 80 هـ) ، وغيلان الدمشقي (ت 105 هـ) والجعد بن درهم ، (ت 118 هـ) ، ويزعم هؤلاء أن كل عبد الخالق لفعله ، ولا يرون الكفر والمعاصي بتقدير الله تعالى . (الجرجاني : التعريفات ص 92) ، ولمزيد من التوضيح أنظر : عبد القاهر البغدادي : الفرق بين الفريق ص 18 ، الشهرستاني : الملل والنحل 30/1 ، عبد الجبار الهمداني : فضل الاعتزال ، وطبقات المعتزلة : فصل في ذم القدرية ص 167 ، ومن المراجع الحديثة بحث بعنوان ((موقف السلطة الأموية من القريين الأوائل)) لصاحب البحث ، نشر بالمشقة العلمية للكلية الزيتونية للشرعية وأصول الدين . العدد السابع 1405 . 1984 .

إلى هذا المنهج من شأنه أن يفتح الباب على مصراعيه في وجه النزعات الفلسفية ، ولذلك كان السلف أول من رد على منكري الصفات ، وكذلك القائلين بحرية أفعال العباد ، وصنفوا مؤلفات ورسائل كثيرة في هذا المجال .

ويعد كتاب " عقائد السلف " للأئمة : أحمد بن حنبل ، والبخاري ، وابن تيمية ، والدرايم ، خير دليل على ذلك (1) .

ونحن إذا أمعنا النظر في مصنفات السلف . وبخاصة أهل القرن الثاني والثالث ، وحتى الرابع ، فإننا نلاحظ أن هذه التسمية تنطبق إنطباقاً كلياً على المحدثين ، ومن سار على منهجهم في التمسك بصريح القرآن ، ومنطوق السنة ، ورفض استخدام العقل ، سواء في الأصول أو في الفرع (2) . والأدلة على ذلك كثيرة :

- 1 – استدلال هذه الطائفة على منع الإجتهد ، وذم القول بالرأي في أمر الدين (3) .
 - 2 – ما نجده ماثولاً في أدبيات القرن الثالث والرابع من أشعار وأقوال ، تبرز لنا مدى الصراع بين أهل النقل وأهل الرأي .
- ذكر ابن قتيبة (4) : أن إسماعيل بن حماد بن النعمان (أبو حنيفة) ولي القضاء البصرة للمأمون فمدحه مساور فقال :

إذا ما الناس يوماً قايسونا	بأبدة من الفتيا طريفة
آتيناهم بمقياس صحيح	تلاد من طراز أبي حنيفة
إذا سمع الفقيه بها وعاءها	وأثبتها بحبر في صحيفة

(1) تحقيق على سامي النشار وعمار الطالبي . نشر منشأة المعارف الإسكندرية 1971م وأنظر أيضاً الشهرستاني : الملل والنحل 99/1 . والفصل الثالث . (الصفاتية) .

- (2) قال الشهرستاني : أما أحمد بن حنبل وجماعة من أهل السنة فجروا على منهاج السلف المتقدمين عليهم من أصحاب الحديث ، وسلكوا طريق السلامة ، وقالوا : نؤمن بما ورد في الكتاب والسنة ، ولا نتعرض للتأويل ، الملل والنحل 103/1 ، ومن المراجع الحديثة في هذا الغرض : مقدمة مصطفى حلمي لكتاب نظريات شيخ الإسلام ابن تيمية تأليف هنري (لاوت ، حيث ضبط فيها قواعد المنهج السفلي في الفكر الإسلامي ، دار الأنصار . ط، أولى ، 1977/1396 ، ص 31) .
- (3) من ذلك استدلالهم بقول الرسول صلى الله عليه وسلم : " تفترق أمتي على بعض وسبعين فرقة ، أعظمها فتنة : قوم يقيسون الدين برأيهم ، يحرمون ما أحل الله ، ويحلون ما حرم الله . ابن عبد البر : جامع بيان العلم وفضله . طبعة دار الفكر بيروت ، 163/2 . وأيضاً ما ذكره ابن القيم في كتابه إعلام الموقعين 251/1 . فصل نهى الصحابة عن القياس .
- (4) المعارف ، ص 495 .

فأجاب مجيب من أهل الحديث

إذا ذو الرأي خاصم عن قياس وجاء ببدعه هنة سخيفة
أتيناهم بقول الله فيها وأثار مبرزة شريفة
فكم من فرج محصنة عفيف أحل حرامه بأبي حنيفة
وبين الإمام الشافعي : أن مصدر العلم هو الرواية والسماع ، وأن العلوم التي تستند إلى
مصدر آخر كالعقل مثلاً ليست من الدين في شيء ، حيث قال :
كل العلوم سوى القرآن مشغلة إلا حديث وإلا الفقه في الدين
العلم ما كان فيه قال : حدثنا وما سوى ذلك وسواس الشياطين (1)
وأنشد عبد الله بن أحمد بن حنبل عن أبيه (2) .
دين النبي محمد أثار نعم المطية للفتى الأخبار
لا تخذعن عن الحديث وأهله فالرأي ليل والحديث نهار
ولربما جهل الفتى طرق الهدى والشمس طالعة لها الأنوار
وعلى هذا الأساس فمن اشتغل بعلم الكلام ولو كان من أجل المنافعة عن عقيدة السلف ، فلا
يعد برأيه ، ولا يطمأن إلى معتقده (3) .
ولعل في ذكر هذه الحادثة ما يكشف لنا عن مدى غلو هذه الطائفة وتشدها في الإلتزام
بمنهجها .

ذكرت عدة مصادر : أن الحارث المحاسبي (ت243هـ) ، الزاهد المشهور صنف
مصنفات كثيرة على منهج المتكلمين ، للرد على المعتزلة ، ورغم ذلك فقد كان ابن حنبل
يكرهه ، لإشتغاله بعلم الكلام وتصنيفه فيه ، حتى إضطر إلى

(1) ابن كثير : البداية والنهاية 254/106 .

(2) ابن قيم الجوزية : إعلام الموقعين 79/1 .

(3) قال أبو يوسف : من طلب الدين بالكلام تزندق ، ومن طلب المال بالكيمياء أفلس ، ومن طلب غرائب الحديث كذب . " ابن قتيبة : عيون الأخبار 141/2 ن السطر الأخير . وقال الشافعي : لئن يلقي الله العبد بلك ذنب ما عدا الشرك - حب على من أن يلقاه بعلم الكلام . (ابن الكثير : البداية والنهاية 281/10) .

الإختفاء، خوفا من شغب الحنابلة ، ولما مات لم يصل إليه إلا أربعة نفر (1). وهكذا يتبين لنا : أن هذه الطائفة قد رفضت إستخدام القياس في المسائل الفقهية ، ونهت عن الإشتغال بعلم الكلام ، وقصرت معرفتها على الأحاديث النبوية ولو كانت ضعيفة . (2)

ولعل هذا ما جعلهم يسمون أنفسهم " بأهل السنة " (3) ، ويتهمون خصومهم بترك السنة ، والخروج عن الجماعة (4) ولكن المعتزلة لم يسلموا لهم بهذه التسمية بل نازعواهم فيها ، وإدعوا لها أنها لا تنطبق إلا عليهم (5) ، ويبدو أن العداوة المتأصلة بين هاتين الطائفتين جعلت كلا منهما تلقب نفسها بألقاب المدح والثناء ، وتلقب خصيمتها بألقاب الذم والشنآن ، فالمعتزلة تلقب أهل السنة بالحشوية (6) والقدرية ، والمجبرة والمشبهة ، وغيرها من الألقاب . قال عبد الجبار : فلان من أهل السنة والجماعة : معناه من أصحاب الحديث المشبهة (7) ، وأهل السنة سموا المعتزلية بالقدرية ، والجهنمية ، والمعطلة ، والمعتزلة عن الحق ، وغيرها من الأسماء (8) .

قال الشهرستاني : ولما كان المعتزلة ينفزن الصفات والسلف يثبتون ، سمي السلف صفاتية ، والمعتزلة معطلة (9) . وذكر الصفدي (10) أبياتا من الشعر ، تهجو فيها كل فرقة الأخرى ، تضمنت أشهر هذه الألقاب .

-
- (1) ابن خلكان : وفيات الأعيان 57/2 دار صادر ، ابن الأثير : الكامل 298/5 .
 - (2) محمد أبو زهرة في كتابه : ابن حنبل ، ص 236 ، وانظر كتاب الإجتهد والتجديد في التريع الإسلامي ، تأليف لجنة من الأساتذة ص 244 .
 - (3) المقبلي : العالم الشامخ ص 297 ، 200 .
 - (4) أحمد بن حنبل : المسند 299/2 . دائرة المعارف الإسلامية : مادة سنة م 12 ص 281 .
 - (5) عبد الجبار المهداني : فضل الاعتزال ص 185 ، 186 .
 - (6) م.ن.ص 272 . السطر قبل الأخير .
 - (7) م.ن.ص 187 ، 199 .
 - (8) الملطي : التنبيه والرد ص 129 ، البغدادي : الفرق بين الفرق ص 114 ، المقبلي : العلم الشامخ ص 300 .
 - (9) الملل والنحل 92/1 .

قال بعض أهل العدلية :

لجماعة سموا هواهم سنة وجماعة حمر لعمري موكفة

قد شبهوه بخلقه وتخوفوا شنع الورى فتستروا بالبلكفة (1) .

وأجاب بعض أهل السنة :

عجبا لقوم ظالمين تلقبوا بالعدل ما هم فيه لعمري معرفة

قد جاءهم من حيث لا يدرون تعطيل ذات الله مع نفي الصفة

وهكذا فإن مصطلح السلف أو أهل السنة لا يوحى بالمدح و الإطراء بصفة مطلقة ، بل يوحى أيضا بمعاني الذم والجهل في نظر الخصوم من المعتزلة عندما حاولت فرض مبادئها وخاصة مبدأ " خلق القرآن " أظهرت هذه الطائفة إستماتة قوية في الدفاع عن رأيها ، وتحول زعيمها المضطهد أحمد بن حنبل إلى شخصية دينية ذائعة الصيت ، إلى حد أن نسجت حولها الأساطير (2) .

ولكن يجب أن لا تنسى الجانب السياسي لهذا المصطلح : وهو أنه أطلق مقابلا لمصطلح الشيعة (3) ، كما تتبع الأستاذ " لوي غاردي " النشأة السياسية لهذا المصطلح ، فبين أن " أهل السنة " هم أولئك الذين إرتضوا الأمر الواقع ، التحكيم (4) ، ومعنى ذلك : أن أصلهم قديم ، يرجع إلى بعض الشخصيات الدينية التي ظهرت مع معاوية إبان الفتنة ، وأيدت الحكام الذين أتوا من بعده ، خوفاً من التطرف الشديد لحزبي الخوارج والشيعة .

(1) البلكفة : هي الإيمان بصفات الله ، حسب ظواهر النصوص ، من غير شرح ولا تأويل ، روي عن الوليد بن مسلم أنه قال : (

سألت مالك بن أنس وسفيان ، الثوري ، والليث بن سعد ، عن الأخبار التي جاءت في الصفات (يعني صفات الله) فقالوا :

أمروها كما جاءت ، بلا كيف . أحمد أمين ، ضحى الإسلام 14/3 ، الطبعة العاشرة ، دار الكتاب العربي بيروت) .

(2) ذكر ابن خلكان : إنه عندما توفى أحمد بن حنبل حضر جنازته من الرجال ثمانمائة ألف ، ومن النساء ستون ألف ، وقيل : إنه

أسلم يوم موته عشرون ألفا من النصاري واليهود والمجوس ، وفيات الأعيان 65/1 . دار صادر .

(3) دائرة المعارف الإسلامية م 12 ، 281 .

(4) الإسلام : الأمس والغد ، ص 33 .

وفي النصف الثاني من الحكم الأموي بدأ السنيون يأخذون شكل حركة دينية " عامة " ، يهتم أنصارها بالفقه وعلوم الدين ، ثم دعموا موقفهم تدريجياً في مواجهة الحزبين الأولين ، وضموا الجانب الأكبر من جمهرة المسلمين (1) ، لاسيما بعد أن نصرهم المتوكل (2) وظاهرهم على أعدائهم من المعتزلة ، والفلاسفة ، وسائر المتكلمين . فقد ذكر المسعودي (3) : أن المتوكل أمر بترك النظر والمباحثة في الجدل ، والترك لما كان عليه الناس أيام المعتصم (4) والواثق (5) ، وأمر الناس بالتسليم والتقليد ، وأمر الشيوخ والمتحدثين بالتحديث ، وإظهار السنة والجماعة " .

وإستمر هذا الصراع عنيفاً بين المعتزلة وأهل السنة إلى أن ظهر أبو الحسن الأشعري (6) ، الذي حاول أن يوفق بين السمع والعقل ، وأن يجعل حداً لغلو هاتين الطائفتين ، ولكن آراء الأشعري لقيت نوعاً من المقاومة والتضييق ، كشأن أغلب المذاهب إبان ظهورها، لاسيما من لدن الحنابلة الذين بدا لهم هذا المذهب الجديد ، وكأنه حركة إعتزالية معتدلة ، فهاجموا بشدة ، وكانوا يقولون : إن الأشعري ضل عن مذهب الإعتزال زماناً طويلاً ، ثم تركه وأتى بمقالة خبط بها عقائد الناس (7) .

ولعل هذا ما جعل الأشعري يؤكد : أنه تابع في منهجه وآرائه للإمام أحمد ابن حنبل ، إذ يقول : قولنا الذي تقول به ، وديانتنا التي ندين بها : التمسك بكتاب ربنا عز وجل ، وسنة نبينا – صلى الله عليه وسلم – وما روي عن الصحابة والتابعين، وأئمة الحديث ، ونحن بذلك معتصمون ، وبما كان يقول به أبو

-
- (1) محمد محمود ربيع : النظرية الأساسية لإبن خلدون ، ص 16 .
 - (2) هو المتوكل على الله ، تولى الخلافة سنة (232 هـ / 247) ، وبه يبتدئ العهد العباسي الثاني الذي يعرف عند المؤرخين بعهد نفوذ الأتراك .
 - (3) مروج الذهب ، تحقيق شارل بلا ، بيروت 1974م . 5/5 .
 - (4) المعتصم العباسي (227/179 هـ) هو محمد بن هارون الرشيد ، بويع بالخلافة سنة 218 هـ يوم وفاة أخيه المأمون ، وبعهد منه ، وهو فاتح عمورية ، وباني مدينة سامراء (الزركلي الأعلام 350/7 ط الثانية) .
 - (5) الواثق بالله (200-232 هـ / 815-847) بن المعتصم بالله ، من خلفاء الدولة العباسية تولى الخلافة سنة 227 هـ ، بعد وفاة أبيه ، فامتحن الناس في خلق القرآن ودامت خلافته خمس (الزركلي : الأعلام 44/9) .

(6) أبو الحسن الأشعري (260-324 هـ / 874-936 م) علي بن إسماعيل أبو الحسن ، من نسل الصحابي أبو موسى الأشعري ، مؤسس مذهب الأشاعرة ، كان من الأئمة المتكلمين .

ولد بالبصرة ، وتلقى مذهب المعتزلة ، ثم خالفهم وانفصل عنهم ، له مصنفات عديدة ، منها : مقالات الإسلاميين وقد تابعه في مذهبه عدد من العلماء أمثال : الباقلاني ، والإسفرائيني ، والغزالي ، وغيرهم . (السبكي ، الطبقات 117/3) .

(7) السبكي : طبقات الشافعية 117/3 .

حنبل نضر الله ، وجهه ، ورفع درجته ، وأجزل مثوبته ، قائلون ، ولما خالف قوله مجانبون ، لأنه الإمام الأفضل ، والرئيس الكامل ، الذي أبان الله به الحق ، ودفع به الضلال ، وأوضح به المنهاج ، وقمع به يد المبتدعين ، وزيع الزائغين ، وشك الشاكين ، فرحمة الله عليه من إمام مقدم (1) .

ولكن هذه الفجوة بين الحنابلة والأشاعرة لم تدم طويلا إذ سرعان ما تم بينهما التصالح ، لاسيما عندما وجد الأشاعرة المناصرة من الوزير المشهور ، وبذلك صار مصطلح السلف ، أهل السنة عباءة كبيرة ، يتغذى بها الفقهاء والمحدثون ، والأشاعرة والمتصوفة (2) .

غير أن إنتصار السلف أهل السنة على خصومهم العقلانيين ، وسيطرتهم بالإشتراك مع حركة التصوف على الحياة الدينية والفكرية طيلة قرون عديدة ، لم ينتج عنه أي تطور في التفكير الديني في الإسلام ، بل آل الأمر إلى جمود فكري وتحجر مذهبي ، سواء في الأصول أم في الفروع ، وصار التقليد والإتباع سمة مميزة للحياة الدينية والفكرية في تلك العصور ، إلى أن ظهر ابن تيمية (728هـ ، 1328م) ، الذي هاله ما وجد عليه المسلمين : من ضعف ، وتدهور ، وإنحلال فرأى أن العلاج الوحيد لهذه الآفات لا يكون إلا بالرجوع إلى عقيدة التوحيد الصافية قبل أن يطرأ عليها الفساد ، وتعتريها البدع والخرافات والأوهام . قد تأثر بإبن حنبل في الأصول والفروع ، وتابعه في الدعوة إلى رد الاعتبار إلى الدين ، وإحياء مذهب السلف ، والرد على الفرق المناوئة : كالمعتزلة ، والرافضة ، والمتصوفة الذين إنحرفوا عن منهج التصوف السني ، ولذلك نعتت حركته بالحركة السلفية (3) ، وعلى الرغم من أن ابن تيمية

(1) أنظر : مادة سنة ، دائرة المعارف الإسلامية . م 281/12 .

(2) توفيق الطويل : العرب والعلم ص 160 ، محمد خليل هراس ، ابن تيمية السلفي : نقده لمسالك المتكلمين والفلاسفة في الإلهيات ، ط أولى 1372هـ/1952م ، المطبعة السلفية بطنطا ، هنري لاوست . نظريات شيخ الإسلام ابن تيمية في السياسة والإجتماع ، ترجمة محمد عبد العظيم .

لم ينح في نشر دعوته السلفية في عهده لعوامل عديدة (1) ، فإن أفكاره لم تنتشر من بعده بل ظلت تختمر في الذهنية الإسلامية ، حتى ظهرت من جديد على يد ابن قيم الجوزية (751 هـ / 1350 م) الذي قام بتنظيم وتبويب ونشر الفكر السلفي ولكن إنتشار مبادئ هذه الحركة على نطاق واسع لم يحدث إلا في مطلع القرن الثامن عشر ، حين ظهر محمد بن عبد الوهاب الذي إستخلص من دراسته الدينية ، وأبحاثه في آثار أحمد بن حنبل ، وابن تيمية ، وابن قيم الجوزية ، فهمهم للإسلام ، وتصورهم لعقيدة التوحيد ، وطرق المعرفة عندهم ، وقارن ذلك بما كان سائدا في عصره ، لاسيما فيما يتعلق بالجانب العقدي فتبين له أن العقيدة الإسلامية قد خالطتها مساوئ كثيرة ، لا تمت إلى الدين بصله ، ولذلك دعا إلى تطهير هذه العقيدة ، بإزالة الشبهات عنها ، ودحض الأوهام التي ألصقت بها ، ونبذ البدع والتوسل بالأولياء .

وبهذا الاعتبار تعد دعوة محمد بن عبد الوهاب دعوة سلفية محضة ، نظرا للأسس التي إنبتت عليها ، وهي القيم الإسلامية السلفية ، وقد تابع الدعوة محمد بن علي السنوسي الخطابي ، الجزائري الأصل " 1787 – 1859م " صاحب الدعوة السنوسية ، مع إختلاف ضئيل في المنهج و الأسلوب .

ومن خلال هذا العرض يمكن أن نحدد المعنى الإصطلاحي للفظ " السلفية " فنقول : إنه يطلق على كل حركة دينية يريد إصطحابها أن يردوا الجماعة الإسلامية إلى سن الرعيل الأول والسلف الصالح ، وأن يزيلوا عنها البدع ومستحدثات الأمور ، ومعنى ذلك : أن السلفية هي حركة دينية تطهيرية ، تستند في دعواتها إلى أصل ثابت ، وهو التمسك بالماضي ، والإعجاب به إلى حد التقديس والإجلال ، وأن الخير كله في

(1) من بين هذه العوامل : 1 . الجمود والتقليد اللذان سيطرا على الحياة الدينية والفكرية سيطرة مطلقة 2 . إن الدولة التي وقعت في عهدها هذه الدولة لم تكن دولة عربية بل كانت دولة المماليك ، ليس لها من إتساع الأفق حتى تدرك الإصلاح الديني وأبعاده . 3 . إنشغال المسلمين في الشام – مهد هذه الدعوة بمحاربة الصليبيين والتتار .

الوقوف عند القدماء ، وإتخاذ سلوكهم وعقائدهم وأفكارهم المثل الأعلى الذي ينبغي الاقتداء به ، ومحاكاته في الحياة العملية والفكرية جميعا (1) .

ولكن هذا المعنى الإصطلاحي للسلفية لم يستقر طويلا في الذهنية الإسلامية ، إذ سرعان ما أضيفت إليه دلالات جديدة ، ومضامين إيجابية نتيجة لمجموعة من الأحداث والتفاعلات ، خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، سواء على مستوى العربي الإسلامي ، أما على المستوى العالمي الأشمل ، ويظهر ذلك بصورة جلية في الحركة الإصلاحية التي تزعمها الأفغاني وعبد ، فقد أكد كل منهما في مناسبات عديدة : أن من بين الأهداف التي يسعيان إليها فهم الدين على طريقة سلف الأمة (2) ، وعلى هذ الأساس نعتت هذه الحركة بالحركة السلفية ، وتم تصنيفها ضمن حركات السلفية (3) .

-
- (1) عبد العزيز الأهواني : السلفية الجديدة ، مجلة الثقافة العدد 10 ، 1963/9/24 ، القاهرة ص 4 ، وأنظر أيضا: نيفين عبد الخالق مصطفى ، إشكاليات التراث والعلوم السياسية ، مجلة المستقبل العربي ، العدد 84 ، فيفري 1986 ، ص 5 .
 - (2) رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الإمام محمد عبده ، العدد 84 ، فيفري 1986 ، ص 5 .
 - (3) Laoust : le reformisme orthodoxe de salafyya et les caracteres generaux de son orientation actuelle,

المبحث الثاني

مفهوم السلف والسلفية عند رائدي النهضة الإسلامية الحديثة (الأفغاني وعبد)

إذا تتبعنا مختلف الإستعمالات لكلمة (سلف) عند قطبي الحركة : الأفغاني وعبد ، فإننا نلاحظ أنهما لم يلتزما تحديدا معينا ، ولا مفهوما واضحا لهذه الكلمة فالأفغاني مثلا يستخدم كلمة (السلف) في نفس المعنى الذي إستخدمه الحركة الوهابية ، وهو رد الجماعة الإسلامية خلال عصور الإنحطاط ، وفي هذا المعنى يقول الأفغاني في أحد فصوله بالعروة الوثقى : (... و رجأؤنا في الراسخين من علماء العصر أن يسعدوا جهدهم في تخليص هذه العقيدة الشريفة من بعض ما طرأ عليها من لواحق البدع ، .. ويذكروا العامة بسنن السلف الصالح وما يعملون) (1) . وذلك أثناء حديثه عن إنتشار عقيدة القضاء والقدر في المسلمين المتأخرين بصورة محرفة ، على أنها جبر يؤدي إلى التواكل والتكاسل . وجاءت هذه اللفظة مرة أخرى عند حديثه عن تقلب أحوال المسلمين من القوة إلى الضعف ، دون أن يزول الإسلام منهم ، فكانوا متمسكين (بأصول الفضائل الموروثة عن أسلافهم ، ولهم حسن الإذعان بما جاء به شرعهم ، وكتاب الله متلو على ألسنتهم ، وسنة نبيهم يتناقلونها ، وسيرة الخلفاء الراشدين والسلف الصالح مرسومة على صفحات نفوسهم الخاصة) (2) .

ومرة تستخدم هذه الكلمة للدلالة على أولئك الذين نصرُوا الإسلام ، وجاهدوا في سبيله في عهدي النبوة والخلافة الراشدة ، وبذلك وقع قصر معنى السلف على الجيل الأول من المسلمين ، الذي يمثل العهد الذهبي للإسلام ، أما بعد ذلك فقد حدث الخلاف السياسي بين علي

(1) العروة الوثقى ، نشر دار العرب القاهرة 1957م فصل القضاء والقدر ، ص 49 .

(2) م.ن فصل الفضائل والردائل وأثرهما ، ص 59 .

ومعاوية ، وظهرت بسببه الأحزاب السياسية التي إستخدمت الدين لنصرة مبادئها ، مما أدخل على العقيدة الدينية الإضطراب والإبتداع ، وفي هذا المعنى يقول محمد عبده "وارتفع صوتي بالدعوة إلى أمرين"

الأول : تحرير الفكر من قيد التقليد " أي تقليد أرباب المذاهب " ، وفهم الدين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف ، والرجوع إلى كسب معارفه إلى ينابيعه الأولى ، وإعتباره ضمن موازين العقل البشري (1) .

ولكن محمد عبده لم يقتصر على هذه الدلالة لكلمة " سلف " ، بل إستعملها في موطن آخر للدلالة على التراث الرئيسي للإسلام السني في عهد إزدهاره ، فكبار علماء الكلام وعلماء التفسير في القرن الثالث ، والرابع ، وحتى السادس هجري : كالأشعري ، والباقلاني ، والماتريدي ، والطبري ، والأصفهاني ، والقرطبي ، هم أيضا من السلف (2) . ويرى أن من أسباب الجهل بالدين في عصره إهمال آثار السلف (3) . أي عدم معرفة تراث هؤلاء المتكلمين والمفسرين كما أطلق لفظ السلف على الأشاعرة عند تفسيره لصفحة " الرحمة " (4) وعلى المحدثين عند تفسيره لمعنى الشفاعة (5) ، ولكن المعنى الذي شدد عليه أكثر من غيره هو فهم الدين وأصوله حسب منهج السلف من الصحابة وكبار التابعين ، قبل ظهور الخلاف السياسي بين علي ومعاوية وتوظيف الدين لنصرة الأحزاب والمذاهب ، وهكذا فإن حركة الأفغاني وعبده عندما دعت إلى الرجوع إلى طريقة السلف ، كانت تهدف أساسا إلى الإقتداء بهم في تصورهم للذات الإلهية ، وفهمهم لأصول العقيدة الدينية ، لأنهم آمنوا بالله من غير تشبيه ولا تعطيل ، وآثروا إستدلال القرآن والسنة على منطق الفلاسفة وجدل المتكلمين ، فكانت العقيدة عندهم صافية نقية بعيدة عن هرطقة الفرق المتصوفة : فالدعوة إذن إلى الإيمان بالعقيدة الدينية

(1) شيد رضا : تاريخ الأستاذ الإمام محمد عبده 11/1 ، أما الأمر الثاني فهو إصلاح أساليب اللغة العربية في التحرير .

(2) الإسلام والنصرانية ص 198 .

(3) م.ن .

(4) تفسير المنار . مطبعة المنار . ط أولى 1346هـ / 76 .

(5) م.ن 307/1 .

على شاكلة السلف : هي التي كانت سببا في تسمية هذه الحركة بالحركة السلفية " ولكن الإشتراك في الدعوة إلى تطهير العقيدة لا يعني أنها تابعة في مبادئها ومناهجها إلى الحركة السلفية القديمة ، التي مثلها أحمد بن حنبل وتلاميذه الروحيون ، ومنهم : ابن تيمية ، وابن عبد الوهاب . وإنما لكل منهما مبادئها خاصة ، وأهدافها المعينة ، وأدواتها المعرفية المعتمدة فمن مبادئ الحركة السلفية القديمة : إصلاح العقيدة من الداخل ، أي : تخليص الدين من كل ما طرأ عليه من بدع وخرافات أو هام ، لأن صفاء العقيدة في نظرها من شأنه أن يعيد للإسلام نضارته وإشعاعه ، وبالأحرى يعيد المسلمين قوتهم وعزتهم .

أما أداة المعرفة عندها فهي النقل " دون سواه ، وموقفهم المتشابه : التفويض ، والتسليم (1) ونتيجة لذلك لم تعترف بالعقل كمصدر أساسي من مصادر المعرفة ، بل ناصبته العداء وإتهمت أنصاره من المعتزلة والفلاسفة بالزيغ والضلال ، وليس هذا الموقف خاصاً بإبن تيمية ، بل تابعة في ذلك محمد بن عبد الوهاب ، على الرغم من تباعد الزمن بينهما ، وإختلاف الظروف التي عاش فيها كل منهما ، فإبن تيمية مثلاً عندما حارب الفلسفة لم تكن تمثل في عهده دعامة أساسية في الحياة الفكرية ، بل كانت تعد نوعاً من الترف العقلي ، أما في عهد إبن عبد الوهاب ، فقد صارت الفلسفة أساس النهضة الأوروبية ، والقطب الذي تدور حوله مختلف التيارات السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

ولذلك فالأزورار عنها وتجاهل دورها في الحياة الفكرية إقتداء بالسلف يعد هروبا من الواقع ، وعدم إدراك القوانين الاجتماعية في النهضة والسقوط ، وتبعاً لهذا الموقف فإن الحركة السلفية القديمة لم تحاول أن تمد بصرها خارج العالم الإسلامي وتسعى

(1) أنظر قواعد المنهج السلفي في الفكر الإسلامي . مصطفى حلمي ، مقدمة كتاب نظريات شيخ الإسلام إبن تيمية في السياسة والإجتماع ، تأليف هنري لاووس ، ترجمة محمد عبد العظيم ص 31 (مرجع سابق) .

إلى التعرف على أسباب النهوض والتطور في أوروبا ، وإنما إنكفأت على نفسها ، وإرتدت إلى تقاليدھا القديمة ولم تعبر إلا برد فعل واحد وهو التشبث بالنزعة السلفية ، متخذة منها درعا يحمي هويتها القومية (1) .

ونتيجة لذلك لم تدع هذه الحركة إلى الإهتمام بالإصلاح الشامل لأوضاع المجتمع الإسلامي : خلال القرن التاسع عشر ، حيث كان المسلمون يعانون في هذه الفترة من الإستبداد العثماني ، والغزو الإستعماري بنوعيه : العسكري والثقافي ، ونتيجة لذلك لم تقتصر دعوتهما الإصلاحية على إصلاح العقدة فقط ، كما فعل ابن تيمية وابن عبد الوهاب ، وإنما تناولت مختلف جوانب الحياة الإسلامية ، سياسة كانت أم إجتماعية ، ويظهر ذلك من خلال إستعراضنا لجملة من مبادئ هذه الحركة وهي :

1 – التأكيد على أن نهضة المسلمين لا يمكن أن تحصل إلا بالرجوع إلى العقيدة الإسلامية الصافية زمن النبوة والخلافة الراشدة ، وإتخاذ سلوك السلف الصالح في هذه الفترة قدوة ومثالا ، ولذلك عملت هذه الحركة على إحياء الدين وتصحيح مفاهيمه ، والكشف عن حقائقه ، لأن الإسلام في نظرها بعد تجديد تفكير هو خير الأديان من جميع الوجوه ، وأكثرها صلاحية للعصر الحاضر .

(1) هذا رأي عدد من الباحثين الغربيين ، وقد أطلقوه على بلدان " العالم الثالث " عندما إصطدمت بالغرب ، غير أن هذا الرأي قد حاد عن الصواب نتيجة التعميم والإطلاق ، وقد تنبه إلى ذلك الأستاذ غالي شكري ، ورد على هذه النظرية ، مبينا أنها لا تنطبق إلا على أقلية من البلدان ، بل على قلبية من الحركات الإصلاحية ، (غالي شكري : النهضة والسقوط ، ص 35) .

2 - مقاومة الإستعمار الأوروبي بجميع أشكاله ، السياسية ، والثقافية ، والإقتصادية ، وإعتبار ذلك واجبا دينيا على المسلمين ، وإمتدادا طبيعيا لمبدأ الجهاد الذي فرضه الإسلام لنصرة أهله والذود عن كيانهم وراثتهم .

3 - تجديد اللغة العربية وحمايتها من خطر التغريب ، بإعتبارها أداة هذا الدين ووعاء التراث الحضاري الإسلامي .

4 - التوفيق بين الدين ومقتضيات المدنية الحديثة ، والدعوة إلى الإقتباس من الغرب في حدود ما ينفع المسلمين ، ويدفع عجلة التطور عندهم : كالعلوم الصحيحة ، والصناعات المفيدة ، والتأكيد أن هذه الأشياء هي من روح الإسلام الأصلية ، وليست وليدة الحضارة الغربية .

5 - مناهضة الحكم الإستبدادي الذي كان سببا في تعفن الأوضاع في العالم الإسلامي ، والمطالبة بحياة سياسية حرة ، يمارس فيها الشعب حقوقه السياسية في ظل نظام دستوري برلماني (1) .

أما الأساس المعرفي عند هذه الحركة : فهو النص والعقل معا . وإذا تعارض العقل مع ظاهر الشرع يجب تقديم العقل على ظاهر الشرع (2) . وهذا المنزع يعد إمتدادا للتيار الفكري المتحرر في الإسلام ، الذي مثله المعتزلة والفلاسفة ، وبذلك فإن رائدي هذه الحركة : الأفغاني وعبد ، يؤكدان عدم تعارض النقل مع العقل ، لأن الإسلام شجع العقل ، وأدان التقليد الأعمى ، فلا خلاف في نظرهما بين الدين والفلسفة ، أو بين الدين والعلم .

ونحن إذا قارنا بين مبادئ هاتين الحركتين ومصادر المعرفة عندهما فإننا نلاحظ إختلافا كبيرا بينهما ، فالحركة السلفية القديمة قد إكتفت بإصلاح العقيدة ، ورأت في

(1) من المراجع العامة التي تحدثت عن مبادئ حركة الأفغاني وعبد : جب : الإتجاهات الحديثة في الإسلام ص 60 ، أحمد الخشاب : الإجتماع الديني ، ص 345 ، محمد المراكشي : تفكير محمد رشيد رضا ص 88 تشارلز أدامز : الإسلام والتجديد

في مصر ، نقله

(2) محمد عبده : الإسلام والنصرانية ص 73/72 .

المبحث الثاني

مفهوم السلف والسلفية عند راندي النهضة الإسلامية الحديثة (الأفغاني وعبد) .

إذا تتبعنا مختلف الإستعمالات لكلمة (سلف) عند قطبي الحركة : الأفغاني وعبد ، فإننا نلاحظ أنهما لم يلتزما تحديدا معينا ، ولا مفهوما واضحا لهذه الكلمة فالأفغاني مثلا يستخدم كلمة (السلف) في نفس المعنى الذي إستخدمته الحركة الوهابية ، وهو رد الجماعة الإسلامية إلى سنن الرعيل الأول والسلف الصالح ، وإزالة البدع التي علقت بالعقيدة الإسلامية خلال عصور الانحطاط ، وفي هذا المعنى يقول الأفغاني في أحد فصوله بالعروة الوثقى : (... و رجأونا في الراسخين من علماء العصر أن يسعوا جهدهم في تخليص هذه العقيدة الشريفة من بعض ما طرأ عليها من لواحق البدع ، .. ويذكروا العامة بسنن السلف الصالح وما يعملون) (1) . وذلك أثناء حديثه عن إنتشار عقيدة القضاء والقدر في المسلمين المتأخرين بصورة محرفة ، على أنها جبر يؤدي إلى التواكل والتكاسل .

وجاءت هذه اللفظة مرة أخرى عند حديثه عن تقلب أحوال المسلمين من القوة إلى الضعف ، دون أن يزول الإسلام منهم ، فكانوا متمسكين (بأصول الفضائل الموروثة عن أسلافهم ، ولهم حسن الإذعان بما جاء به شرعهم ، وكتاب الله متلو على ألسنتهم ، وسنة نبيهم يتناقلونها ، وسيرة الخلفاء الراشدين والسلف الصالح مرسومة على صفحات نفوسهم الخاصة) (2) .

ومرة تستخدم هذه الكلمة للدلالة على أولئك الذين نصرُوا الإسلام ، وجاهدوا في سبيله في عهدي النبوة والخلافة الراشدة ، و بذلك وقع قصر معنى السلف على الجيل الأول من المسلمين ، الذي يمثل العهد الذهبي للإسلام . أما بعد ذلك فقد حدث في الوقوف عند القدماء ، واتخاذ سلوكهم وعقائدهم وأفكارهم المثل

(1) العروة الوثقى ، نشر دار العرب القاهرة 1957م فصل القضاء والقدر ، ص 49 .

(2) م.ن فصل الفضائل والردائل وأثرهما ، ص 59 .

الأعلى الذي ينبغي الإقتداء به ، ومحاكاته في الحياة العملية والفكرية جميعا (1) .
ولكن هذا المعنى الإصطلاحي للسلفية لم يستقر طويلا في الذهنية الإسلامية ،
إذ سرعان ما أضيفت إليه دلالات جديدة ، ومضامين إيجابية نتيجة لمجموعة
من الأحداث والتفاعلات ، خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، سواء
على المستوى العربي الإسلامي ، اما على المستوى العالمي الأشمل ، ويظهر
ذلك بصورة جلية في الحركة الإصلاحية التي تزعمها الأفغاني وعبدّه ، فقد أكد
كل منهما في مناسبات عديدة : أن من بين الأهداف التي يسعيان إليها فهم الدين
على طريقة سلف الأمة (2) ، وعلى هذا الأساس نعتت هذه الحركة بالحركة
السلفية ، وتم تصنيفها ضمن حركات السلفية .

- (1) عبدالعزيز الأهواني : السلفية الجديدة ، مجلة الثقافة العدد 10 ، 1963/9/24 ، القاهرة ص4 ، وانظر أيضا : نيفين عبد
الخالق مصطفى ، إشكاليات التراث والعلوم السياسية ، مجلة المستقبل العربي ، العدد 84 ، فيفري 1986 ، ص5،
(2) رشيد رضا : تاريخ الأستا ذ الإمام محمد عبده ، 11/1
(3) laoust : le reformisme orthodoxe de salafyya et les caracteres generaux de son orientation
actuelle , in R.E.II tome-6- وكذلك انظر الكتاب دروس في الحركة السلفية ، وهو عبارة عن مجموعة من المحاضرات
شارك بها أصحابها في ندوة ثقافية بمراكش ، خلال العام الدراسي 81-82 منشورات عيون الدار البيضاء ، المغرب ص11 ،
ص25 - 38 ، ص51-59 وهناك مراجع أخرى تعرضت إلى هذه التسمية ، انظرها في ص19 من هذا البحث .

ذلك هدفها الأسمى وغايتها المثلى ، بينما حركة الأفغاني وعبد له لم تكف بذلك ، بل إتخذت إصلاح العقيدة نقطة إنطلاق في معالجتها لمختلف الشؤون الإسلامية، وبالتالي فقد وظفت العقيدة في إصلاح السياسة والإقتصاد والإجتماع وهكذا كانت نظرتها إلى الإصلاح نظرة شمولية ، وتبعاً لهذه النظرة إعتمدت كل حركة على أساس معرفي معين ، فالحركة السلفية القديمة المصدر الأساسي لرواد هذه الحركة ، وعلى رأسهم محمد بن عبد الوهاب وحمد بن علي السنوسي ، وولي الدين الدهلوي ، وغيرهم (1) .

أما حركة الأفغاني وعبد له فقد بوأت العقل المكانة التي يستحقها ، وإعتبرته مصدراً أساسياً من مصادر المعرفة ، وكان ابن رشد ، ومسكوية ، وابن خلدون ، ولوتر " ، وغيزو (2) ، مصدر إلهام لكل من الأفغاني وعبد له (3) .

وبذلك حل الفكر الإصلاحي الجديد عدة إشكاليات ، إنطلاقاً من إشكالية العلاقة بين الإسلام والعقل ، وإشكالية العلاقة بين الدين والدولة ، والعلاقة بين النموذج الإسلامي والنموذج الغربي . وهذا ما جعل الأستاذ محمد عمارة يطلق على هذه الحركة إسم (السلفية العقلانية) (4) .

أما أنور عبد المالك فقد رفض مصطلح " السلفية " وفضل إستعمال عبارة (أصول إسلامية) Fondamentaliste (5) لأن رائدي هذه الحركة : الأفغاني ، وعبد له ، يتصوران الإصلاح مزيجاً من المحافظة على مصادر الإيمان الخالصة من التحريفات التي نتجت عن عصور الإنحطاط ، والأخذ بمقومات الحضارة الأوروبية

-
- (1) الصعدي : المجددون في الإسلام . ص 431 .
 - (2) كان الأفغاني معجباً بأراء " غزو " ، حتى إنه إستشهد به في كتابه " الرد على الدهريين " ص 112 ولغيزو كتاب التحفة الأدبية في تاريخ تمدن الممالك الأوروبية ، ترجمة نعمة الله خوري . أنظر غالي شكري : النهضة والسقوط ص 183 .
 - (3) كانت مكتبة محمد عبده تحوي فيما تحويه من الكتب العديدة : كتاب إميل ، لروسو . = وكتاب (التربية) ، لسبنسر ، وروايات تولستوي ، ومؤلفاته التعليمية ، وكتاب (حياة يسوع) " لشتراوس ، وتآليف رينان (عثمان أمين ، محمد عبده ص 23) .
 - (4) وكان إتصال ببعض المفكرين الأوروبيين ، فكتب رسالة إلى تولستوي ، وذهب إلى برايتون ، لمقابلة سبنسر ، وكان يزور أوروبا كلما سنحت له الفرصة ، لتجديد نفسه ، كما كان يقول ، ولإنعاش أماله في شفاء العالم الإسلامي من حالته المحاضرة . (رشيد رضا ، تاريخ ... محمد عبده 846/1)
 - (5) التراث في ضوء العقل . دار الوحدة ، بيروت . ط أولى 1980 ص 14 .
 - (6) الفكر العربي في معركة النهضة الترجمة العربية ، دار الآداب . بيروت ط3 ، 1981 . ص 26 .

الحديثة ، وقد وافقه الأستاذ محمد المراكشي على هذه التسمية ، بين أنه وإن إستعمل عبارة السلفية الجديدة فقد إستعملها في الإتجاه والمفهوم أنفسهما (1) . وإستعمل الأستاذ حسن حنفي عبارة " الأصولية الإسلامية في سلسلة من المقالات التي نشرت بجريدة الوطن الكويتية ، ولكن في غير المعنى الذي قصده أنور عبد الملك ، وإنما للدلالة على حركة الإخوان المسلمين ، والفصائل المتفرعة عنها (2) . كما تناول عدد من المستشرقين هذه المسألة بالدرس والتحليل ، ومن هؤلاء : شارني Charnay ، ولاووست Laoust ، ورونو Rondo ، فشارني مثلاً تحدث عن الحركة السلفية بإعتبارها حركة تجديدية ، تسعى إلى تحقيق المواءمة بين الإسلام ومتطلبات العصر ولذلك نعتها " بالسلفية العصرية " معتبرا السيد أمير على بالهند ، والشيخ محمد عبده بمصر ، خير ممثلين لها (3) وأما لاووست (4) ورونو (5) ، فقد أطلق لفظ السلفية على الأفغاني ومحمد عبده ، من غير أن يصفيا هذه الحركة بأي نعت من النعوت . كما نجد بعض الدارسين قد أطلق على حركة الأفغاني وعبده " سلفية الرواد " ، تمييزاً لها عن سلفية شكيب أرسلان ، ورشيد رضا ، ثم الإخوان المسلمين (6) . ولكن هذه التسميات وإن بدت متفقة في الدلالة ، إلا أنها تفتقر إلى الدقة والتحديد ، لأن كل واحدة منها راعت جانباً دون بقية الجوانب الأخرى ، فلا يمكن أن نسميها بالسلفية العقلية لأنها لم تعتمد على العقل وحده ، بل وقفت بين العقل والنقل ، وجعلت كل منهما سنداً للآخر ، كما لا يمكن أن نسميها بالأصولية الإسلامية ، لأن هذه الحركة قد إستعملت لفظ السلفية في مقام الثناء والإطراء ، وكأنها تحبذ الإنتساب إلى ذلك ، فضلاً عن كون مصطلح الأصولية الإسلامية

(1) تفكير محمد رشيد رضا ص 89 .

(2) أنظر بحث فؤاد زكرياء بعنوان مستقبل الأصولية الإسلامية ، وهو بحث نقدي ، في ضوء دراسة للأستاذ حسن حنفي ، مجلة " فكر للأبحاث والدراسات " العدد الرابع فبراير 1985 القاهرة . ص 16 .

(3)

(4)

(5)

(6) كمال عبد اللطيف : الخطاب النهضوي المعاصر ، مجلة الفكر العربي المعاصر العدد 17 .

لم يبق وفقا على الأفغاني وعبد ، بل صار له معنى فضفاضا ، يشمل عدة حركات إسلامية أخرى .

ولا يمكن أيضا أن نطلق عليها إسم " السلفية الجديدة " ، لأن الجديد بعد مدة زمنية يصير قديما ، وفعلا فإننا نجد من يطلق " السلفية الجديدة " علي بن مالك بن نبي ، وعلال الفاسي ، ومحمد المبارك ، وأبي الأعلى المودودي (1) .

ويبدو أن التسمية المناسبة والتي تعد جامعة مانعة كما يقول المنطقة في تعريفهم للحد هي : " السلفية التجديدية " فلفظ السلفية إسم مدح ، لاسيما بالمفهوم الذي حدده كل من الأفغاني وعبد ، وحتى إن أخذناه بصورة مطلقة فإنه لا يطلق إلا على المصلحين الذين حاربوا الخرافة والأوهام والبدع ، لإستجلاء حقيقة الدين وجوهرة حتى تبقى العقيدة الدينية غضة غريضة في النفوس ، كما أن هذا الإستعمال ليس خاصا بالحركات الإصلاحية في الإسلام ، بل نجده في ميادين الأدب والفن ، والكلاسيكية كما عرفتھا الآداب والفنون و الأوروبية ، كانت تحاكي عصرا ذهبيا سابقا ، وهو الأدب الإغريقي في عصر إزدهارة بأثينا .

وحركة التجديد في الشعري العربي على يدي البارودي وشوقي ، كانت تنظر إلى الشعر العباسي على أنه المثل الأعلى في الصياغة والأسلوب ، وبهذا الإعتبار فلسفية الأفغاني وعبد ليست إرتدادا إلى التقاليد القديمة أو لجوءا إلى الماضي لإتخاذ أيدولوجية مقاومة كما زعم بعض الباحثين الغربيين وعلى رأسهم " جيرار شاليان " الذي أدعى بأن هذه النزعة كانت سمة الصفوة التقليدية في البلاد العربية ، أثناء تعرضها إلى الهجمة الإمبريالية للغرب - . (2) وإنما هي الحركة الوحيدة التي كانت على وعي تام بمجريات الأحداث ، ومعطيات الصراع ، ومعرفة دقيقة لقوانين التطور والإنحلال الإجتماعية ، لذلك عندما

(1) م.ن

(2) غالي شكري : النهضة والسقوط ص 38 . كما أورد هذا الرأي الأستاذ هشام شرابي حيث يقول : وبسبب ضعف الإسلام المادي والعسكري الواضح عبرت كبرياء الإتجاه الإصلاحي عن نفسها بموقف دفاعي ، لكنه إتخذ شكلا عدوانيا هو الشكل الأفضل لإخفاء إحساسها المعذب بالعجز ، كان طبيعيا أن تسعى حالة ذهنية كهذه إلى البحث عن الحماية ، بحجز حالها ضمن رؤية الماضي المجيد (المثقفون العرب والغرب ص 46) .

شعرت هذه الحركة بتفوق الإستعمار العربي حضاريا أعادت النظر في القيم المتداولة : عقدية كانت ، أو إجتماعية أو سياسية ، عملت على إزالة كل أسباب التخلف والانحطاط والانتقال مباشرة إلى النضال من أجل تحقيق أهدافها المتمثلة في الحرية ، والإستقلال والنهضة في مختلف المجالات ، مستلهمة في ذلك تجربة الغرب .

وعلى هذا الأساس لم يكن الماضي عند هذه الحركة شيئا مقدسا بذاته ، بل رأينا كلا من الأفغاني وعبدّه يختزلان إثني عشر قرنا من التاريخ الإسلامي ، ليعودا إلى عصر النبوة والخلافة الراشدة ، من أجل بناء أمة إسلامية قوية ، قادرة على رد التحدي الغربي في واجهتيه : العسكرية ، والثقافة .

ولكن اللافت للنظر أن أحد الباحثين (1) تناول هذا الموضوع بالدرس والتحليل مبينا العلاقة بين الإتجاه السلفي الحديث ، وبين الجماعة الإسلامية المتقدمة التي سميت بالسلف ، تساءل عن هذه النسبة ، هل هي مجرد نسبة زمنية ؟ أو هي نسبة محتوى مضمون ؟ تم تطرق الباحث – بعد أن أجاب عن هذه الإشكاليات _ حسب رأيه _ في أزمنة متقاربة ، من غير تنسيق بينها ، وهي حركة الإخوان المسلمين في مصر ، وحركة الجماعة الإسلامية ، مؤسسها أبو الأعلى المودودي في شبه القارة الهندية وحركة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ومؤسسها عبد الحميد بن باديس ، من غير أن يشير إلى الحركة الإصلاحية التي تزعمها السيد جمال الدين الأفغاني ، والشيخ محمد عبده ، والتي نعتها كثير من الباحثين – عربا ومستشرقين – بالحركة السلفية ، فضلا عن الأثر العظيم الذي كان لهذه الحركة في بعث النهضة : الدينية والفكرية ، والسياسية ، والإجتماعية ، في معظم البلدان الإسلامية ويمكن أن نورد عن هذا التأثير حتى يدرك القارئ

(1) راجع الكردي : بحث بعنوان (الإتجاه السلفي بين التأسيس والمواجهة) شارك به في ندوة إتجاهات الفكر الإسلامي المعاصر ، البحرين 3-1405/6 هـ 25 - 1985/2م نشر مكتب التربية العربي لدول الخليج ص 227 .

إختزال حركة كهذه ليس من الموضوعية أو أو الإنصاف في شيء ، ففي مصر
خطب سعد زغلول في بعض الاجتماعات وقال للمصريين : (لست خالق هذه
النهضة كما قال بعض خطبائكم ، لا أقول ذلك ، ولا أدعيه ، بل لا أتصوره ،،
وإنما نهضتكم قديمة من عهد محمد علي عرابي ، والسيد جمال الدين وأتباعه
وتلاميذه أثر كبير ، وهذا حق يجب ألا نكتمه ، لأنه لا يكتم الحق إلا ضعيف)
(1) .

كما أوضح العقاد ما كان لجمال الدين ومحمد عبده في نفوس الجيل اللاحق فقال
(فبعد جمال الدين ومحمد عبده أصبح هم كل شيء ناشيء أن يصبح أستاذا
إماما ، ونمطا آخر من جمال الدين ، ومن هنا نشأت مدرسة رشيد رضا
ومصطفى المراغي ، وطنطاوي جوهري ، وعبد العزيز الزهراوي ، ومحمد
الخضري ، ومحمد المهدي ، والنجار ، وغيرهم ، ولكن الشيخ عبد العزيز كان
يتشبه بجمال الدين ، حيث يتشبه أقرانه بالأستاذ الإمام) (2) .

وعن شكيب أرسلان يقول الشرباصي : (إنه يجمع بين جمال الدين الأفغاني
ومحمد عبده ، في مجال تأثيره البليغ بهما) (3) .

ويرى تشارلز آدمز في عبد العزيز جاويز أنه كان في حياته السياسية العنيفة
أقرب إلى جمال الدين منه إلى الشيخ محمد عبده (4) .

كما كان للأفغاني وعبده أثر ظاهر في بلدان المغرب العربي الإسلامي ففي
تونس كانت بذرة الإصلاح التي بذرها خير الدين التونسي قد نمت وأينعت ،
ولما ظهرت دعوة الأفغاني وعبده زادت قوة وثباتا ، فلم ير رجال الإصلاح
غضاضة من الإلتفاف حولها ، والسير على منهجها ، وكان معظم هؤلاء من

(1)

(2)

(3) شكيب أرسلان : داعية العروبة والإسلام ، سلسلة أعلام العرب ، سبتمبر 1963م ، ص 70 .

(4) الإسلام والتجديد في مصر ، ص 201 .

أمثال سالم بو حاجب ، والشيخ محمد النخلي ، والشيخ محمد الطاهر بن عاشور ، والشيخ محمد بن الخوجة التونسي (1) .

ولكن أكثرهم تأثرا بهذه الدعوة وبخاصة في المجال السياسي ، وهو الشيخ عبد العزيز الثعالبي ، الذي عارض سياسة الاندماج مع المستعمر الفرنسي ، ودعا إلى إستقلال البلاد ، والحفاظ على عروبته وإسلامها ، حيث أنشأ حزبا سياسيا سنة 1920م سماه (الحزب الحر الدستوري التونسي) ودخل في صراع مرير مع المستعمر الفرنسي ، من أجل تحقيق هذه الأهداف (2) .

كما إمتد هذا التأثير إلى رجال الإصلاح بالجزائر ، فكان التناغم والتجاوب بينهم وبين دعوة جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ، ومن أشهر هؤلاء : محمد بن الخوجة ، والشيخ عبد الحميد بن سماعة (3) ، فضلا عن إمام النهضة الإسلامية بالجزائر ، ومؤسس جمعية العلماء الجزائريين ، عبد الحميد بن باديس (4) .

ونحن إذ تأملنا مختلف الأنشطة التي كان يقوم بها هؤلاء الأتباع والمريدون فإننا نلاحظ أنها لا تتعدى الدعوة إلى إصلاح الأوضاع السياسية ، وتجديد المفاهيم الدينية في الإسلام ، والرد على خصومه من علمانيين ومستشرقين ، وهذه مرتكزات الإصلاح عند الأفغاني وعبده .

ومن ثم فإن رائدي الحركة السلفية التجديدية (الأفغاني وعبده) قد وجهها حركتهما الإصلاحية وجهة معينة ، وهي الجمع بين المتجديدين الديني والمدني ، أي ضرورة الربط بين الإصلاح السياسي وبين الإصلاح الديني ، لأن الإقتصاد على أحد النوعين من هذا الإصلاح لن يجدي نفعا ، بل سيكون كالماء ليس له إناء .

(1) رشيد رضا : محمد عبده 1057/1 - 1058 ، وأيضا الشيخ محمد الفاضل بن عاشور : الحركة الأدبية والفكرية في تونس ، دار الهناء القاهرة ، ص 57 .

(2) م.ن

(3) رشيد رضا ، تاريخ .. محمد عبده 872/1 .

(4) الشيخ عبد الحميد بن باديس : مجالس التذكر ، المقدمة ، ط وزارة الشؤون الدينية هـ - 1982م قسنطينة 10/1 .

وهذه الخاصية هي التي ميزت حركة الأفغاني وعنده دون سائر الحركات الإصلاحية الأخرى .

وبهذا الاعتبار لم يعد مصطلح (السلفية) خاصا بتلك الحركة الدينية التي تتمسك بالماضي وتقده ، وتتصرف عن شواغل الحاضر وقضايا المستقبل وتعتمد على التقليد والإتباع ، وإنما صار هذا المصطلح مضمون إيجابي وهو التشديد على مواءمة الإسلام للتمدن الحديث ، وقدرته على تلبية مطالب الحياة العصرية ، بل إستجابته لبناء نهضة إسلامية حديثة ، وفي ذلك تأكيد على ربط الدين بالحياة ، ومزج الزمني بالروحاني .

ولكن هذه الحركة – وإن حققت بعض النجاح في الإصلاح الديني – إلا إنها فشلت في إصلاحها السياسي ، ويرجع ذلك إلى إصطدامها بظروف تاريخية صعبة ، لعل أبرزها تحول الدول الرأسمالية الأوروبية إلى إمبرياليات ، وغزوها وإحتلالها لعدة بلدان إسلامية ومن البديهي أن يخفت الغزاة كل صوت يدعو إلى الإصلاح ، إضافة إلى مناهضة الحكام الملمين لهذه الحركة التي أعلنت ثورتها الجامعة ضد الإستبداد والحكم المطلق (1) .

ويبدو أن مبادئ هذه الحركة لم تذهب بذهاب رائديها ، وإنما ظلت تختمر في الفكرية الإسلامية ، حتى ظهرت في شكل أحزاب سياسية ، كالحزب الحر التونسي ، بزعامة الشيخ عبد العزيز الثعالبي بتونس ، وحزب الإستقلال بزعامة محمد علال الفاسي بالمغرب ، وحركات إصلاحية عديدة ، كجمعية العلماء المسلمين الجزائريين برئاسة الشيخ عبد الحميد بن باديس ، والجماعة الإسلامية بالهند بزعامة الشيخ أبي الأعلى المودودي ، وحركة الإخوان المسلمين بمصر برئاسة الشيخ حسن البناء .

1 (أنظر رشيد رضا ، تاريخ .. محمد عبده ج/1 ، حيث دون المؤلف المحن والشدائد التي تعرض لها الأفغاني وعنده بسبب دعوتها إلى إدخال الأنظمة الدستورية البرلمانية .

وهذا يحق لنا أن نتساءل هل إلتزمت هذه الحركات والأحزاب بالمفهوم الذي حدده الأفغاني وعنده لمصطلح السلفية ، أو رجعت إلى تلك الدلالة التي تبلورت على يد محمد بن عبد الوهاب ، أم أنها تجاوزت هذا وذاك ، وقدمت رؤية إسلامية جديدة لهذا المصطلح ؟ إنطلاقا من ظروف زمنية ، ومكانية معينة ؟ ثم هل سلفية المشرق ككل ، وسلفية أختها ورببتها في المغرب متحدة الرؤى والأساليب ؟ أم أن بينهما تباينا واختلافا ؟ سواء على المستوى النظري أم على المستوى النظري أم على المستوى الفعلي والممارسة ؟

المبحث الثالث

قضية الأصولية

قضية وصولية : معناها العودة إلى الأصول . وهي ظاهرة عالمية بين مختلف أصحاب الديانات ، حتى غير السماوية منها . وربما كان مرجع ذلك إلى فشل النظريات الوضعية من مادية وغيرها (1) .

* والأصولية حركة فكرية بروتستانتية ، ظهرت بالغرب ، في القرن التاسع عشر الميلادي ، بعد مؤتمر نياجرا عام 1895 ، من أجل أن تحيي من جديد أفكار أصحاب عقيدة المجيء الثاني للمسيح عليه السلام ، مجيئاً حرفياً حقيقياً .

* وقد ظهرت لهم كتب صغيرة بعنوان " الأصوليات " دعوا فيها إلى :

التمسك بالتعاليم الدينية القديمة ، والقول بالوهية المسيح ، وعصمة الكتاب المقدس عن الخطأ ووجوب الأخذ به حرفياً ، وولادة المسيح عليه السلام من مريم عليها السلام ، والفصل بين الدين والدولة . هذا مع إعتقادهم بالنبوءات الإنجيلية ، التي تقود حسب إعتقادهم إلى إستيلاء اليهود على فلسطين والقدس ، وأن ذلك شرط للعودة الثانية للمسيح (2).

* وللأصولية في الغرب : تنظيمات ومؤسسات ووسائل . * وللأصولية في الغرب : تنظيمات ومؤسسات ووسائل إعلام قوية تدعو إلى مبادئها . ومن أشهر مؤتمراتها المؤتمر الذي عقد في عام 1985م في مدينة بال بسويسرا .

* وتعتبر الولايات المتحدة الأمريكية ، المركز الرئيسي للإتجاهات الأصولية الإنجيلية التي ينتمي إليها معظم رؤسائها .

* وعبر وسائل الإعلام الغربية أسقط مصطلح الأصولية ، على التيار الإسلامي في العصر الحديث ، بقصد تشويبه ، وللد من تدفق مسيرته ، حيث يذكر في معرض الذم ، وأن أصحابه يوصفون " بالتطرف " هذا مع أن هذه اللوازم للأصولية ، تلزمها معناها عند

(1) أنظر د . مانع ابن حماد الجهني ، الموسوعة المسيرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة ط 3، 1418 هـ - دار الندوة العالمية بالرياض 2:976 .

(2) -

الغرب ، والتي لم تنشأ عندهم إلا تفسيرا لأخطاء في تاريخ الكنيسة يعرفها المنصفون منهم ويقرون بها (1) .

*. إن مصطلح " الأصولية الإسلامية " مصطلح أطلق في الغرب ، ومع هذا فإنه مصطلح محمود وغير مذموم ، وهو يطلق على العالم بأصول الدين ، وعلى العالم بأصول الفقه .

*. وكان المصطلح السائد لدى المسلمين من قبل هو " السلفية " ، وهي العودة إلى الأصول الإسلامية الصحيحة ، والإجتماع عليها والعمل بها والدعوة إليها ، على ما كان عليه سلف الأمة الصالح رضوان الله عليهم .
كما وضعناه سابقا :

*. ولن نخوض في الحديث عن الأصولية اليهودية أو الصهيونية ، والأصولية المسيحية ، فقد كتب عنهما العديد من المؤلفات ، ويجمعهما هدف واحد هو تشويه الإعلام في نفسه ، أو عن طريق أنصاره ممن سموهم المتطرفين أو الأصوليين . لذا فإن دراستنا سوف تقتصر على الأصولية الإسلامية ، مع تقسيمها أولا : إلى أصولية قديمة ، وهي السلفية ، إلى أصولية حديثة وهي التي أطلقها الغرب على التيارات الإسلامية في العصر الحديث والمعاصر .

أولا : السلفية الإسلامية :

السلفية لغة : من مادة "سلف" وهي تعني المضي والإنقضاء .
و"السلف" : كل من تقدمك من أبائك وذوى قرابتك في السن أو الفضل ، وتجمع على "أسلاف" (2) .

والسلفية إصلاحا : هم المسلمون الأوائل من الصحابة والتابعين ، ومن تبعهم من أصحاب القرون المفضلة الثلاثة الأولى . وعكسهم "الخلف" ، وهم المسلمون الذين جاءوا بعدهم . إذ يمكن تسمية الأصولية الحديثة بـ "الخلف" أيضا .

والسلفي : هو من يرجع في الأحكام الشرعية إلى الكتاب والسنة في المقام الأول ، فهو مرادف للأصولي .

(1) -

(2) المعجم الوجيز لمجتمع اللغة العربية .

والسلفية أنواع منها : أهل السنة والجماعة ، وأهل الحديث ، وأهل الأثر ، والطائفة المنصورة ، والفرقة الناجية .

بداية ظهور مصطلح السلفية :

ظهر بعد ما رفع أصحاب المذاهب الكلامية مصطلح أهل السنة والجماعة ، في وجه المعتزلة ، وأدعى الجميع الإنتساب إلى السلف الصالح :

فكان لابد من التمييز ووضع قواعد وأصول واضحة للسلفية ، من أجل التمييز بينها وبين الأدعياء من أصحاب البدع ، فمن غير المنطقي أن يعيش إنسان بين ظهرائي السلف بينما هو يخالف أصولهم ومنهجهم .

*. وأصبحت السلفية من حيث المصطلح ، علما على أصحاب منهج الإقتداء بالسلف الصالح من الصحابة والتابعين ، وكل من تبعهم من الأئمة الأربعة ، وكذلك سفيان الثوري وسفيان بن عيينة والليث بن سعد والأوزاعي وابن المبارك والبخاري ومسلم ، وسائر أصحاب السنن . ويمكن أن نعتبر هؤلاء هم الجيل الأول للسلفية .

*. أما الجيل الثاني : فهم كل من سار على طريقته في التمسك بالكتاب والسنة ، مع تباين العصور وتفجر المشكلات والتحديات مثل : ابن تيمية وابن القيم ، وهما من أبرز علماء السلف من الجيل الثاني . وإن أغلب الذين كتبوا عن السلفية حديثا قد إعتمدوا على آراء هذين العلمين غالباً .

*. ويمكن القول بوجود جيل الثالث للسلفية الآن ، وهم أغلب الإتجاهات السلفية المعاصرة بالجزيرة العربية والهند وشمال أفريقيا والشام ، ومن سوف يلحق بهم في المستقبل .

بعض الأدلة على مشروعية السلفية :

*. (وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ) (1) .

ومحل الشاهد هنا : (وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ) فهؤلاء المتبعون لهم شملهم الرضا الإلهي .

* (وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ) (1) وكل من الصحابة منيت إلى ربه تعالى ،
فيجب إتباع سبيله ، وإن أقواله وإعتقاداته من أكبر سبيله (2) .

* وقال ابن مسعود ؟؟؟؟ : " إتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم " .

* وقال الإمام الأوزاعي (ت157هـ) رحمة الله تعالى :

" أصبر نفسك على السنة ، وقف حيث وقف القوم ، وقل بما قالوا ، وكف عما
كفوا عنه ، واسلك سبيل سلفك الصالح فإنه يسعك " (3) .

* وقال الإمام الأوزاعي (ت157هـ) رحمة الله تعالى :

" أصبر نفسك على السنة ، وقف حيث وقف القوم ، وقل بما قالوا ، وكف عما
كفوا عنه ، واسلك سبيل سلفك الصالح فإنه يسعك " (4) .

وهذا يدل على أن لفظ سلف بمعناه هذا ، كان معروفا في القرن الثاني الهجري .

* ويقول أبو حنيفة رحمة الله تعالى :

" عليك بالأثر وطريقة السلف ، وإياك وكل محدثة ، فإنها بدعة " .

وعلى ذلك فإن السلفي : هو كل من سلك سبيل هؤلاء القوم السابقين ، ونهج
منهجهم في التلقي والإستدلال والإعتقاد والأحكام ، وتابع مسيرتهم في السلوك
والسير إلى الله تعالى ، ويكون شعاره دائما : "ما لم يكن يومئذ ديننا، فليس
اليوم بدين" .

وأهم مزايا السلفية ما يلي :

1 . إن السلفية تمثل منهج الإسلام الصحيح ، والمحافظ على مضمونه ، في ذروته الشامخة وقمته الحضارية السابقة ، ذلك الدين الذي حافظ على التوحيد في جوهره النقي ، فمن تردى العقيدة الإسلامية في أحوال الوثنية . بل إنه حارب النزعة الجبرية التي نتج عنها ركوب الهمم وإضعاف الإرادة الإنسانية ،

(1) لقمان : الآية 15 .

(2) ابن القيم : إعلام الموقعين 4 : 168 .

(3) اللالكاني : شرح أصول اعتقاد أهل السنة 1: 154 () .

(4) اللالكاني : شرح أصول اعتقاد أهل السنة 1: 154 () .

محافظا على مصادره وعقيدته وعبادته ومعاملاته ونظمه .

2 . إن السلفية كانت ولا تزال تأخذ على عاتقها المحافظة على أصالة الأمة الإسلامية ، في عقيدتها وشريعتها ومناهجها ، حتى لا تتميع ولا تهتز ، وذلك بالالتزام بمناهج السلف الصالح في : التوحيد والتلقي والإتباع والإستدلال والتزكية .

3 . وكما تدعو السلفية إلى الأصالة ، فإنها تحتل طابع المعاصرة والسعي الدائم نحو التقدم ، وذلك بالحث على مواكبة النهضة العلمية بالنظر والتجربة ، وغير ذلك .

4 . إن السلفية قد جددت الدعوة الإسلامية دائما ، ووقفت سدا منيعا في وجه الحركات الغربية التي تريد إستعباد الشرق ماديا وروحيا . كما أكدت على أن الإسلام دين ودولة ، ودنيا وآخرة ، وحملت راية تحرير العقول من الوثنية والشرك والتقليد ، ودعت إلى التمسك بكمكارم الأخلاق .

5 . إن السلفية لا تكفر أحدا من أهل القبلة ، لمجرد رأي إرتاه في مسألة تحتل التأويل ، مع إعتباره مخطئا لا غير . فمن حكم بالتكفير سريعا عند أول خلاف شكلي ، فليس من السلفية ، والسلفية براء منه .

تشويه السلفية :

أ . قديما :

بالرغم مما يتصف به أهل السلف من مكارم ومزايا ، فقد أراد أهل الأهواء والبدع تشويههم والإضرار بهم عند السفهاء والجهال : (1) .

فقد لقبوهم بألقاب كان خصومهم هم الأولى بها ، من أمثال :

(1) المتشبهة : سماهم بها كل من : المعطلة والمؤولة من الجهنمية والمعتزلة والأشاعرة . ولا عيب فيهم سوى أنهم أثبتوا ما وصف الله تعالى به نفسه ، أو وصف به رسوله صلى الله عليه وسلم ، من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكيف ولا تمثّل ولا تأويل .

(1) (أحمد بن حنبل : السنة ص 4) .

وهم أيضا أشد الناس تعظيما لله عز وجل ولصفاته سبحانه . يقول نعيم بن حماد ، شيخ البخاري (ت 228 هـ) .

" من شبه الله بشيء من خلقه فقد كفر ، ومن أذكر ما وصف الله به نفسه فقد كفر ، فليس فيما وصف الله به نفسه ، ورسوله : تشبيه " .

(2) المجبرة : أطلقها عليكم المعتزلة والقدرية (نفاة القدر) .

(3) الناصبية : أطلقها عليهم الرافضة (غلاة الشيعة) لتقديمهم أبا بكر وعمر وعثمان على "علي" في الخلافة .

(4) الحشوية : أطلقها عليكم المعتزلة والخوارج (والحشو من الناس : الذي لا يعتمد عليه . والحشية من الناس : أرادلهم .

(5) الشكاك : أطلقها عليهم المرجئة ، لإستننائهم في الإيمان على غير معنى الشك ، مخافة وإحتياطاً للعمل .

(6) العامة والجمهور : أطلقها عليهم الرافضة على أنهم هم الخاصة والمؤمنون .

ب . حديثا :

يرى بعض المفكرين المحدثين أن المعتزلة هم السلف ، لأنهم رواد عصر الإبداع ، الذي تبلورت فيه حضارة الأمة العقلانية المستنيرة قبل عصر المماليك ، وهم يدرجون جماعات التفكير ضمن السلفية . ومن أجل ذلك حاولوا إتباع منهج المستشرقين في تشويه صورة الإسلام ، من خلال تشويه السلفية ، حيث وصموهم بالرجعية والتشدد والنصوصية والأصولية .

* بل يرى بعض أذئاب المستشرقين ، أن السلفية الدينية ، ليست إلا رجعية جسدت مرحلة العقم الحضاري والتحول إلى علاقات بدائية ، ثم الإنكفاء إلى الأصول الدينية الأولى ، في صيغتها العقيدية . وهذا الكلام الفاسد يهاجم الدين قبل أن يهاجم الجنود والأنصار .

* ونقول لهؤلاء الحاقدين : " موتوا بغیظكم " ، فإن السلفية منهج شامل صالح لكل زمان ومكان ، وهي ليست بمرحلة زمنية ، أو طول تاريخي قد إنتهى .

بل هي منهج يحمل في طياته الأصالة مع المعاصرة ، لا الرجوع إلى الوراء .

والسلفية بهذا هي المنهج الوحيد المؤهل لعودة الإسلام إلى دنيا المسلمين ، أو كما يقول الإمام مالك صلى الله عليه وسلم " لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها " .

السلفية فرقة ومذهب :

ليس صحيحا ما ذهب إليه بعض الباحثين ، من السلف ليست فرقة أو مذهباً . ونحن نرى أنهم فرقة ، لأن الحديث قد أشار إلى " قال ما أنا عليه وأصحابي " ، فالحديث سماهم فرقة من ثلاث وسبعين فرقة للأمة الإسلامية .

وهل من المعقول أن يعيش تيار من عهد الخلافة الراشدة مثلاً ، وقد واصل أتباعه المنهج حتى الآن ، ثم يقال إنهم لا يكونون فرقة ولا مذهباً ، ولا هم أنصار للسلفية ؟

*. إن مشكلة الأحزاب إنتساب بعض الأدعياء لها ، فيختلط الحق بالباطل ، مما يوقع في التعصب والبغضاء والفرقة .

*. كذلك فإن الأحزاب دائماً يكون ها تكتلات ، ولا يؤثر فيها النقد ، ولا يقضي عليها قرار سياسي بحلها ، فإن حدث فإنها تتوارى ظاهراً ، لكنها تعمل تحت الأرض ، وتسعى للسيطرة على أي شيء .

ثانياً : الأصولية الإسلامية

هي السلفية الحديثة ، ولها في العصر الحديث تيارات متنوعة ، قد تربو على خمسة وعشرين حزباً وتياراً وإتجاهاً ، وهي موجودة كلها على الساحة الإسلامية ، وهي متداخلة لا يمكن الفصل بينها :

(1) تيار تقليدي ينشغل بإصلاح العقيدة ويرتكز أساساً في المملكة العربية السعودية ، وهو التيار الوهابي .

(2) تيار متشدد : سلفية مجاهدة ، في شمال أفريقيا .

(3) إتجاه تجديدي شامل ، يتمثل في مدرسة الأفغاني ومن أنصاره : الأفغاني نفسه ، ومحمد عبده ، ومحمد رشيد رضا ، ومحب الدين الخطيب ، ومحمد عمارة ، وطارق البشري .

(4) إتجاه جديد شمولي حركي ، يتمثل في حزب الإخوان المسلمين ، ومنهم : الشيخ حسن البنا ، وسيد قطب ، وعبد القادر عودة ، ومحمد الغزالي ، ومحمد قطب ، وأنور الجندي ، ويوسف القرضاوي . وقد تأثر هذا الإتجاه – أو الحزب – بالسلفية وبالصوفية معاً .

(5) إتجاه رافض للحضارة الغربية .

(6) إتجاه تجديدي تطوري ، يؤمن بأن الفقه الإسلامي قابل للتطور ، ويمثله : محمد إقبال ، ومعه : المودودي ، والندوي ، ووحيد الدين خان .

(7) إتجاه تجديدي عقدي ، في غرب العالم الإسلامي ، منهم السنوسي الذي تأثر بإبن عبد الوهاب .

(8) إتجاه علمي حديث ، متأثر بمنهج محمد عبده ، ورشيد رضا ، منهم : الطاهر بن عاشور من عاشور .

(9) إتجاه إصلاحي حضاري ثوري في الجزائر ، منهم : عبد الحميد باديس ، ومالك إبن نبي ، وأبو شعيب الدكالي ، ومحمد حسن الفاسي ، وعلال الفاسي ، والمختار السنوسي .

بالنظر إلى هذه التيارات والفرق والمذاهب ، التي تجاوزت 25 خمسة وعشرين مذهباً ، فإننا نستطيع أن نقرر أننا بإزاء تيارات قد تباينت في مناهجها وأساليبها ، وهي بالطبع لا بد أن تحدث شروخاً في الأمة الإسلامية ، مثلما حدث مع الفرق الإسلامية كالخوارج والمعتزلة والأشاعرة والماتريدية والمراجئة والجبرية ، لكن فرق السلفية مع تعددها لم يحدث منها غلو في جانب العقيدة مثل بعض الفرق السابقة ، لكن نرى أن غلوا قد حدث من بعض الفرق الأصولية المعارضة (1) .

(1) (د - محمد سيد أحمد المسير : الحوار بين الجماعات الإسلامية دار الطباعة المحمدية بالقاهرة) ط 1 ، 1418 هـ 1997م ص 154 .

*. ولأن بعض تلك التيارات السلفية الحديثة يتطلع إلى الحكم بأي ثمن ، فقد الكثيرون منهم على يد السلطات الحاكمة ، التي ترى لنفسها حق الولاء والطاعة من الجميع ، تمكيناً للأمن والاستقرار .

*. وما قلناه هنا ، لا ينطبق على المذاهب الفقهية والصوفية ، فليس لهؤلاء حزبية سياسية تتطلع إلى السيطرة على الحكم ، أو إحياء الخلافة كما تتمنى بعض الإتجاهات السلفية .

*. ونعود للحديث عن السلفية الحديثة ، أو الأصولية الإسلامية وربما أطلق عليها البعض "الصحة الإسلامية" والأصولية عموماً هي مصدر صناعي منسوب إلى " الأصول " .

ولا مانع لدى أصحاب الأصولية الحديثة أن يلقبوا بهذا اللقب ، الذي جاء من الغرب ، لأنه أولا وأخيرا يدل على " ظاهرة الإحياء الإسلامي المعاصرة " .

* ويرى الأصوليون المحدثون أن قبولهم لهذا الوصف ليس عيبا ، لأن هذه طريقة في الجدل مع الخصوم ، إستخدمها المسلمون سابقا ، كقول من قال :

إن كان رفضا حب آل محمد ** فليشهد الثقلان أنني رافضي

*. ثم إن كلمة الأصول محببة في تراثنا ، نظرا لما تدل عليه من " العودة إلى الأصول " فلا مشاحة في الإصطلاح ، ولا سيما أن الأصولية تشير أيضا إلى : "الوسطية الإسلامية" التي هي روح الإسلام ، وهناك مقولة عند علماء الإسلام وهي :

" من أضع الأصول ، حرم الوصول " (1) .

الأصول الثلاثة للإسلام :

وهذه الأصول بمعنى المصادر وهي :

(1) (د يوسف القرضاوي : مستقبل الأصولية الإسلامية ص 9 وأماكن أخرى ط 1417 ، 1هـ 1997 م مكتبة وهبة بالقاهرة) .

الأول : القرآن الكريم : وهو أهل الأصول . وهو وحي منزل من الله تعالى على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو الآية العقلية الكبرى التي أيد تعالى بها نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد وعد الله عز وجل بحفظه إلى يوم الساعة فقال :

(إنا نحن نزلنا الفكر وإنا له لحافظون) (1) .

الثاني : السنة النبوية : وهي ما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقرير ، وهي أيضا الشرح التفصيلي ، والتطبيق العملي للقرآن الكريم ، قال تعالى :

(أنزلنا إليكم الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم) (2) .

الثالث : الإجماع : وهو ما أجمعت عليه الأمة الإسلامية إجماعا يقينيا من أمور الدين ، لأن هذه الأمة لا تجمع على الضلالة ، من أيام الصحابة ، ثم التابعين ومن جاء بعدهم . وقد تظهر قيمة الإجماع فيما بني على مصلحة زمنية تغيرت ، أو عرف دعت الحاجة إلى تعديله .

الأصول الأربعة الدعائم :

1 . أركان الإيمان الستة :

(ومن يكفر بالله وملأنكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا) (3).

يضاف إلى الإيمان بالقضاء والقدر .

2 . العبادات الأساسية : وهي التي بني عليها الإسلام : الصلاة والزكاة الصيام والحج .

3 . الأحكام الفقهية : وهي جاء بها الإسلام في تحديد الحلال والحرام ، والعلاقات بين الأفراد وبين الدول ، والحدود التي منها من أجل حماية الدين والنفوس والعرض والمال والعقل .

4 . مكارم الأخلاق : وهي التي ترسخ الحق والخير والجمال ، وتحفظ على الإنسان آدميته وكرامته .

(1) الآية 9 سورة الحجر .

(2) النحل .

(3) النساء 136 .

فالأصولي هو من يتمسك ويلتزم بكل هذه الأصول السبعة : إعتقادا وعملا وفقها ودعوة .

أبرز فرق الأصولية المعاصرة :-

1 - فرقة التكفير :

ظهرت بمصر ، وتبنت فكرة "تكفير المجتمع" أي جماهير الناس بالجملة ، إلا من انضم إلى ففرقتهم التي سموها "جماعة المسلمين" . ويرون أن جميع الناس غيرهم كفار مرتدون ، وإن قالوا : لا إله إلا الله ويترتب على ذلك إستحلال دماء الآخرين وأموالهم وكراماتهم .

وكانت بداية هذه الجماعة في "السجن الحربي" ، حيث عذبوا وأهينوا كما يدعون ، ورأوا أن الذين عذبوهم وساعدوا على تعذيبهم إنما هم كفار . وقد قيل : ازرع إستبدادا تحصد أصوليات (1) .

وهؤلاء إمتداد لجماعة "الخوارج" الذين ظهروا أيام الإمام علي كرم الله وجهه ، وقد وصفهم الحديث الشريف فقال :

" يحقر أحكم صلاته إلى صلاتهم ، وقيامه إلى قيامهم ، وقراءته إلى قراءته إلى قراءتهم " كما وصفهم بأنهم " يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم " . أي تلاوة بلا تفقه ، وأنهم أيضا : " يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية " ، يقتلون أهل الإسلام ، ويدعون أهل الأوثان " .

وقد كفر الخوارج الإمام عليا رضي الله عنهم ، حين قبل التحكيم فيما بينه وبين معاوية ، ثم دبروا لإغتياله ، فكان لهم ما أرادوا .

2 . فرقة العنف :

وهؤلاء يرون استخدام القوة والسلاح ، في مقاومة ما يعتقد هو أنه باطل ،
وتغيير ما يراه من منكر . والأصل في العنف عند هؤلاء أنه موجه إلى "الحكام"

(1) د . هيثم مناع : الأصوليات الإسلامية وحقوق الإنسان . ص 5 ، طبع 1999م مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان .

لا يحكمون بما أنزل الله ، والذين عطلوا أحكام الشريعة الإسلامية ، وأحلوا
محلها القوانين الوضعية ، فقد صار ولاؤهم لأعداء الإسلام :

(ومن يتولهم منكم فإنه منهم) .

وقد ترتب على تفرد هؤلاء بالرأي ، أن ذهبوا إلى أن من إمتنع عن أداء فريضة
ظاهرة مثل الجهاد ، فهو كافر ، وكذلك من لم يغير المنكر بالقوة .

هذا وإن التفقه في الدين يوجب ترك مثل تلك الأمور لولى الأمر الشرعي ، حتى
لا يرغم على دخول حرب ليست في طاقته ولا في طاقة دولته ، وتلك هي
التهلكة .

3. فرقة التشدد والجمود :

وقد وصف أصحاب هذه الفرقة بالحرفية في الفقه ، والتعسير في الفتوى ،
والتنفير في الدعوة ، والخشونة في التعامل ، وكل ذلك يجافي روح الإسلام .

وهم ينكرون التجديد في الخطاب الديني ، والإجتهد في الفقه ، والتعسير في
الفتوى ، والتبشير في الدعوة ، وتغيب عنهم المقاصد الكلية للشرعية ، وإن أقرب
كلمة عندهم "حرام" أو "بدعة" ، ويظهر عنف هذا الفريق في لسانه لا في يده .

لقد يسر النبي صلى الله عليه وسلم على أمته وشرع لها أمر التجديد فقال : "إن
الله يبعث على رأس كل مائة سنة لهذه الأمة من يجدد لها دينها (1) .

كما شرع لنا الإجتهد ، فالمجتهد إن أصاب له فله أجران ، وإن أخطأ فله أجر ،
بشرط أن يكون من أهل الإجتهد .

*. ولا مانع لدى هؤلاء أن يتركوا القضايا الهامة ، ويدخلوا في معارك ساخنة ، من أجل ترجيح النقاب على الحجاب ، ومن أجل إعفاء اللحية تماما . ومن كتبهم : "توجيه الصحبة في النزول على الركبة" و "الواحة في جلسة الإستراحة" ، أي الإستراحة بعد السجود .

*. وهم يتبنون أشد الآراء تعسيرا على الأمة ، ومنها تحريم الإقامة في بلاد الغرب ، وأخذ الجنسية من البلاد الأجنبية ، لأنها ولاء لهم :
(من يتولهم منكم فإنه منهم) (2) .

(1) رواه داود وغيره .
(2) الآية 51 سورة المائدة

*. ويحرمون على المرأة تولي الوظائف ، أو الإدلاء بصوتها في الانتخابات ، ناهيك عن ترشيح نفسها . ومنهم من حرم هذا الترشيح على الرجل ، وألف كتابا سماه : "القول السديد في أن دخول المجلس ينافي التوحيد" أي مجلس الشعب أو الشورى .

*. هذا وإن عدم اعتدال هذا الفريق وغيره ، جعل كثيرا من القوى المعادية تستهين بهم وبالإسلام معا ، لأن الذين أطلقوا عليهم لقب الأصوليين ، كانت غايتهم الكبرى سب الإسلام نفسه والإساءة إليه (1) .

4. فرقة الوسطية : وهذه تلتزم بمنهج يقوم على التيسير والتجديد ، وتمثل الجمهور الأعظم ممن يمكن تسميتهم بـ "الأصوليين" ، أو "الصحوة الإسلامية" . ويقوم منهج هذا الفريق على ثلاثة أساسية هي :

أ. منهج التيسير والتبشير :

وما يتبع هذا من التيسير في الفتوى ، وهو في هذا يستلهم روح المنهج النبوي حيث قال صلى الله عليه وسلم " يسروا ولا تعسروا ، وبشروا ولا تنفروا " .
(متفق عليه) .

*. ويندرج تحت التيسير : عدم التضيق في الإيجاب والتحرير ، والإفتاء بالرخص ، ورعاية الضرورات والظروف الطارئة ، وإختيار الأيسر – لا الأحوط – لعموم الناس . يقول الإمام الثوري : " إنما الفقه الرخصة من ثقة ، أما التشديد فيحسنه كل أحد " .

*. والوسطية تحتاج إلى : التحرر من العصبية المذهبية ، والعمل بقاعدة تغير الفتوى بتغير الزمان والمكان والعرف والحال ، فيجتهد علماء كل عصر لزمانهم وبيئتهم ، كما فعل السابقون . وكان للإمام الشافعي مذهبان : قديم قبل أن يستقر في مصر ، وجديد بعد أن إستقر فيها . وربما نجد للإمام الواحد في المسألة الواحدة جملة روايات مختلفة ، مثل الإمام أحمد ، ويكون ذلك بسبب رعاية الظروف والأحوال المتغيرة .

(1) د . محمود النجيري : أكلوبة الأصولية الإسلامية . ص 68 ، ط 1998م ، دار البشير بالقاهرة .

(2) يء

(3) يء

*. والتبشير فى الدعوة يوجب : تحبيب الله إلى خلقه ، أي قيادتهم إليه بزماء الحب ، لا بسياط الخوف وحده ، وزرع الأمل فى قلوب الناس ، وإشاعة الرجاء فى إصلاح الحال لا المثبطات عن العمل .

ب. التجديد والإجتهد : (1)

إذا تجدد الدين ، تجددت النفوس والعقول بالمعرفة ، والقلوب بالإيمان ، والحياة بالحركة والتقدم إلى الأمام .

ومن مظاهر التجديد فى الدين : الإجتهد فيه ، وهو باب مفتوح إلى يوم القيامة . ومنه تجديد الخطاب الدينى للداعية نفسه ، لا فى حقائق الدين .

وقد وجد تجديد حتى فى عصور انحطاط الدولة الإسلامية : ففي القرن السابع الهجري : كان ابن دقيق العيد والعز بن عبد السلام .

وفي الثامن : ابن تيمية ومدرسته ، والشاطبي وابن خلدون . فى التاسع : ابن الوزير اليمنى وهكذا . فلا يجوز أن يخلو عصر من مجتهد ، ولا تخلو الأرض من قائم الله بالحجة .

ج. الوسطية المتوازية : (2)

وينتج عن هذا أفكار تتجلى فيه النظرة الوسطية المعتدلة المتكاملة للناس والحياة ، والتي تمثل المنهج الوسط للأمة الوسط ، بعيدا عن الغلو والتقصير .

كذلك فإن هذا الموقف : وسط بين دعاة المذهبية الضيقة ، ودعاة اللامذهبية المنفرطة .

*. وسط بين أتباع التصوف وإن انحرف وإبتدع ، وأعداء التصوف وإن إلتزم وإتبع .

*. وسط بين المحكمين للعقل وإن خالف النص القاطع ، والمغيبين للعقل ولو في شيء قليل مثل فهم نص ما .

(1) -

(2) -

*. وقل مثل ذلك في الذين ينكرون الإلهام مطلقا ، والذين يبالغون في الإعتداد به ، حتى جعلوه مصدرا للأحكام الشرعية .

وكذلك في مجال : التراث ، والفلسفة ، والوسائل والغايات ، والإنتفاح والإغلاق ، والإعتدال والإنحلال ، والإقليمية والعالمية ، والتحليل والتحرير . وكل هذه القضايا تحتاج إلى إجتهد حسب ظروف العصر والمكان .

وأخيرا فإن يجب على كل سلم مهما ظن أنه مصلح ، أن يجعل إصلاحه لوجه الله تعالى ، من أجل مصلحة الأمة والوطن الذي تربى عليه ، وأن يحذر من أن يكون الإصلاح سببا للإضرار بدينه ووطنه ونفسه . وهذا الإضرار لا يحدث إلا تحت عباءة الفرق الخفية التي تعمل تحت الأرض ، وكل ذلك مخالف لروح الإسلام .

المبحث الرابع

السلفية المعاصرة

الجليند نموذجاً

ولد الدكتور محمد السيد الجليند في قرية منشأة الأمراء مركز المحلة الكبرى محافظة الغربية – مصر – في يوم السابع من شهر فبراير سنة 1940 ف .

حفظ القرآن الكريم وأتمه في مكتب تحفيظ القرآن بالقريّة وكان مكتب التحفيظ هو مقر لكبار علماء المسلمين الذين كانت لهم مدارس وحلقات دروس علمية مسائية وأحاديث دينية إلّتحق بالأزهر سنة 1953 م بمعهد سمنود الديني حيث حصل على الشهادة الابتدائية .

إنّقل منه إلى معهد المحلة الكبرى حيث حصل على شهادة الثانوية الأزهرية سنة 1964/63 م ثم إلّتحق بكلية دار العلوم في نفس العام ، تخرج فيها سنة 1967 م بتقدير جيد جدا مع مرتبة الشرف إلّتحق بالسنة التمهيدية للماجستير 1968 م وحصل عليها في نفس العام ثم نال درجة الماجستير في الفلسفة الإسلامية في موضوع (الإمام ابن تيمية وموقفه من قضية التأويل) بإشراف المرحوم الدكتور محمود قاسم سنة 1971 م .

حصل على الدكتوراء في الفلسفة الإسلامية في موضوع قضية الخير والشر بين المعتزلة والأشاعرة سنة 1975 م .

عين معيدا بقسم الفلسفة في 1972/9/29 م .

ثم مدرسا مساعدا في 1972/11/29 م .

ثم أستاذا مساعدا في 1982/10/27 م .

ثم عين رئيسا لقسم الفلسفة في 1987/9/1 م .

ثم عين أستاذا في 1988/2/24 م .

عمل أستاذا للدراسات الإسلامية في :-

- جامعة الملك فهد بن عبد العزيز بجدة 1983/1979 م .
- جامعة أم القرى بالطائف 1984/1983 م .
- جامعة قطر في الفترة ما بين 1993/1990 و 2000/1999 م .

شارك في العديد من المؤتمرات العلمية في العديد من البلاد العربية والإسلامية ثم إنتخب عضوا بمجلس إدارة الجمعية الفلسفية المصرية عام 1988 م كما شارك في العديد من نشاطها الثقافي خلال الندوات والمؤتمرات السنوية وإستطاع بعون الله أن يحول نشاط الجمعية من الإتجاه العلماني إلى الإتجاه الإسلامي وذلك خلال موضوعات الندوة ومؤتمراتها وكان آخر مؤتمراتها في رحاب الأزهر الشريف وكان موضوعه نحو صياغة جديدة لعلم الكلام القضايا والمنهج .

أولا : المؤلفات :-

وفيما عرفت عرضت لأبرز مؤلفاته

- 1 – الإمام ابن تيمية وموقفه من قضية التأويل طبع بمجمع البحوث الإسلامية عام 1973 ف ، ثم طبع بعد ذلك عدة طبعات بمصر وخارجها .
- 2 – قضية الخير والشر في الفكر الإسلامي ، ط الحلبي 1977 م .
- 3 – نظرية المنطق بين فلاسفة الأسلم واليونان ، ط الزهراء 1986 م .
- 4 – من قضايا التصرف في ضوء الكتاب والسنة ، ط التقدم 1987 م .

- 5 - في علم الأخلاق قضايا ونصوص ، ط التقدم 1977 م .
- 6 - من قضايا علم الكلام في ضوء الكتاب والسنة 1988 م .
- 7 - دراسة أساسية لمشروع قانون إسلامي لحماية البيئة بتكليف من الإتحاد العالمي لحماية البيئة التابع للإمام المتحدة ، ط ، بالإنجليزية والفرنسية بجدة ، بالإشتراك مع آخرين 1985 م .
- 8 - المشكلة الأخلاقية لدى مفكري الإسلام ، ط ، دار النهضة .
- 9 - قضية التوحيد بين الدين والفلسفة ، ط ، التقدم 1984 م .
- 10 - قضية المنهج عند الكندي ، دار العلوم 1987 م .
- 11 - سلسلة تصحيح المفاهيم :-
- 12 - الإستشراق والتبشير .
- 13 - منهج السلف بين العقل والتقليد .
- 14 - تأملات في منهج القرآن في تأسيس اليقين .
- 15 - الأصولية والحوار الآخر .
- 16 - فلسفة التنوير بين المشروع الإسلامي والمشروع التغريبي .
- 17 - الوحي والإنسان قراءة معرفية .

ثانيا : في مجال تحقيق التراث :-

وفيما يلي عرض لأبرز مؤلفاته في مجال تحقيق التراث

- 1 - كتاب التوحيد وإخلاص العمل لوجه الله لابن تيمية ، ط ، دار الفكر الحديث سنة 1973 م .

2 – مشكاة الأنوار الهادمة لقواعد الباطنية الأشرار للإمام يحيى بن حمزة العلوي ، ط ، الدار السعودية للنشر ، جدة 1983 م .

3 – دقائق التفسير الجامع لتفسير الإمام ابن تيمية ، جمع وتحقيق (6 أجزاء في ثلاث مجلدات) ط ، أولى دار الأنصار ، مصدر 1977 ف ، ط ، مؤسسة علوم القرآن ببيروت 1986 م .

4 – عيوب النفس ودواؤها للسلمي .

5 – الإنتصار في ذكر أحوال قاصع المبتدعين وآخر المجتهدين شيخ الإسلام ابن تيمية .

6 – كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لابن تيمية ، ط ، دار المجتمع جدة 1985 م .

7 – تقريب درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية ، ط ، مؤسسة الأهرام 1988 ف ، وهو نصوص في المنهج من التراث الإسلامي .

8 – أصول أهل السنة والجماعة المسماة برسالة أهل الثغر لأبي حسن الأشعري ، ط ، التقدم 1987 م .

9 – الإشارة إلى مذهب أهل الحق ، ط ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

ثالثا : بحوث ودراسات نشرت بالمجلات الثقافية :-

وفيما يلي عرض لأبرز مؤلفاته

1 . الدين والدولة بين التاريخ والواقع – مجلة الثقافة ، مصر 1977 م .

2 . رسالة إلى حكومات العالم الإسلامي – مجلة الدعوة 1976 م .

- 3 . الله والعالم بين النظر الفلسفي والحقائق الدينية مقارنة بين منهجين – دار العلوم 1983 م .
- 4 – المنطلقات الفكرية للأصولية المتطرفة ، ط ، مجلة الدراسات العربية للعلوم الإنسانية ، الكويت 1995 م .
- 5 – لغة الحوار بين الإسلام والغرب – المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية 1996 م .
- 6 – خلل في مسيرة الأمة – المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية .
- 7 – أزمة عقل أم أزمة أنظمة – مؤتمر المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية 1997 م .
- 8 – دار العلوم وتاريخ الدرس الفلسفي في مصر ، ط ، الجمعية الفلسفية المصرية 2001 م .
- 9 – نحن والآخر حوار أم صراع – ضمن أعمال المؤتمر الدولي السابع ، ط ، دار الهاني 2002 م .
- 10 – الخطاب الديني المفترى عليه – المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية 2003 م .
- 11 – ابن تيمية الإمام المفترى عليه – جامعة الملك عبد العزيز – كلية الآداب 1982 م .
- 12 – الحضارة الإسلامية وتكريم الإنسان – مدير الإسلام يوليو 2003 م .
- 13 – ابن رشد وأثره في الفلسفة اليهودية – حولية كلية الشريعة 1993 م .
- 14 – محمود قاسم في صحبة ابن رشد – كتاب تذكاري صدر عن قسم الفلسفة الإسلامية ، دار العلوم 1995 م .
- 15 – الإمام الجويني وتطور الفكر الأشعري – مؤتمر الجويني قطر 1997 م .

وقد إختارنا بعضا من الأفكار التي تمثل هذا التوجه المعاصر الذي يحاول فيه تقديم مشروع إسلامي يدخل ضمن المشاريع الإصلاحية المعاصرة وهو ما يسميه بمفهوم التنوير وفي التاريخ له عن المنطق العلماني " .

لذا يحاول أن يوضح مفهوم التنوير في العلمانية ومفهومه في الإسلام بأسلوب سلفي معاصر .

ذلك أن المفهوم العلماني للتنوير كما سبق توضيحه مفهوم غربي إستشراقي في رسائله ومقاصده ، أما المفهوم التنوير في المشروع الإسلامي فهو ينطلق من الركائز الأساسية لأي حركة تنويرية أو نهضوية كما أشرنا إلى ذلك فيما سبق .

فعلى المستوى الثقافي كان منطلقهم ، العلم وسيلة وغاية ، والعقل لغة وإدراكا .

وعلى المستوى الإجتماعي : كانت الحرية فريضة دينية وكان مجال المساواة شعيرة من شعائر الإسلام .

وعلى المستوى السياسي : كان مبدأ العدل أساسا لنظام الحكم ووسيلة لأداء الحقوق وقضاء الأمانات ، وكان نظام الشورى وسيلة ومسلكا لإقرار مبدأ العدل بين الرعية .

وهذا المرتكزات الأساسية يعتبرها الإسلام واجبات دينية ، وأساسا إجتماعية ، وفرائض سياسية ، ويتعلق إستقرار الحكم ، وحسن سياسة الأمة ، وإهمالها أو الإعتداء على واحد منها يحدث بالضرورة خلا في النظام للعام للبنية الإجتماعية للأمة .

ومن الجدير بالذكر أن مفهوم التنوير في هذا المشروع الإسلامي يفتح الأبواب على مصراعيها للحوار والأخذ عن الآخر أيا كانت ديانتته وثقافته وحضارته ، يأخذ عنه النافع والمفيد من كل فن وعلم ، ويجعل ذلك فريضة إسلامية وواجبات دينية عليه أن يأخذ بها ، لأن الحكمة ضالة المؤمن إن وجدها كان أولى بها ، وينفتح على الغرب لينهل من علمه ومعارفه ما يساعده على التقدم ويحقق له

أهدافه وغاياته ، وليس صحيحا ما يروجه العلمانيون أن الإتصال بالغرب أو الأخذ عنه أو الحوار معه أمر محرم شرعا عند الإسلاميين ، أو هو مرفوض عندهم أن هذا محض إفتراء ومن باب التلوث الثقافي الذي سمم الأجواء العقلية والفكرية في بلادنا .

أن التنوير ينبغي أن يكون إسلاميا في أصوله ومتابعة ، في وسائله ومناهجه ، في أهدافه ومقاصده ، وهذا المنهج التنويري يفتح أبوابه للنافع والمفيد من كل أمة شرقية كانت أو غربية كما سبق ، هذا من ناحية مفهوم التنوير .

أما الأمر الآخر الذي يذهب إليه الإسلاميون فهو رفض التاريخ الناهض للنهضة المصرية بالحملة الفرنسية ، أنهم يعترفون بدورها في بعث الإحساس بالحاجة إلى المزيد من العلم والمعرف الغربية .

هذه لمحة موجزة وسريعة عن فلسفة المشروع الذي يقدمه بإبعاده السياسة والإجتماعية والذي يحتوي على فهرس المواضيع الآتية :-

مؤسساتها الدستورية على إعتبار أن الإصلاح السياسي وإقامة الحكم العادل هما المدخل الحقيقي والأساسي لكل أنواع الإصلاح الأخرى .

وقد ساهم في بروز هذه القضايا الدكتور الجليل من وجهة نظر سلفية معاصرة وإخترنا من هذه القضايا التي يعتقد بأنها أساس الإصلاح قضية "الهوية" سؤال الهوية هويتنا الإسلامية في مفترق الطرق (1) .

والنقاط التي تم مناقشتها مع الأستاذ الجليل هي :-

1 - الهوية (الدلالة والمفهوم) .

2 - مقدم الدولة " المدنية " .

3 - مفهوم الدولة العلمانية .

4 - البيرالية .

5 - الدولة الدينية .

6 - هويتنا الإعتقادية .

7 - خصائص العقائد الإسلامية .

1 - د. محمد السيد الجليلند ، المكتبة الأزهرية لل نشر والتوزيع ، ص 14 .

والحقيقة أن عناصر هذا البرنامج التي دعا إلى تحقيقها الجليلند في هذا اللقاء قد تقررت بالقوة في هذا المفهوم القضايا ولنبدأ معه بأولها وهي الهوية "الدلالة" (1).

الهوية (الدلالة والمفهوم) :

والمصطلح مأخوذ من قولهم (هو هو) تعبيراً عن مكوناته وعناصر الذاتية التي لا يكون هو هو إلا بها .

وهذه الخصائص لا يشاركه فيها غيره ، بحيث تكون هي الميزة للشيء عما عداه ، وغالباً ما تطلق على الخصائص والصفات الميزة لهذا الشيء ، ويسأل عنها (بمن) التي يجاب عنها بذكر الذاتيات الميزة وليس العرضيات المشتركة مع الغير .

تأسيس الهوية بمكة :

لقد ظل الرسول - صلى الله عليه وسلم - ثلاثة عشر عاماً في مكة يعمل على صياغة الإنسان على نحو جديد مختلف تماماً عما كان عليه في الجاهلية ، صياغة جديدة في العادات والتقاليد والأعراف ، صياغة تستظل بنور العقيدة الإسلامية التي تدور رحاها حول قطب التوحيد الذي منه تبدأ حركتها وإليه تعود ، وينزل القرآن الكريم لتصحيح عقائد الجاهلية لتحمل الأمة شعلة التوحيد إلى العالم كله ، إنه صياغة جديدة لنظر الإنسان إلى الوجود كله ووظيفة الإنسان في هذا الكون ، وعلاقته به ومسؤوليته عنه ، تعميراً وإنتفاعاً به ، ونظراً وتأملاً فيه ، وإكتشافاً لقوانينه ، وتوظيفها لهذه القوانين ،

إنها بعبارة مجملة مسئولية جديدة تماما يواجهها الإنسان المكي الحامل عبء الرسالة إلى العالم كله بما تشتمل عليه هذه الرسالة من أسئلة يضعها القرآن في العهد المكي أمام الإنسان خلال تأمله في هذا الكون من نحن ، ما وظيفتنا ، من خلق ... ؟ ولماذا خلق ... ؟ ومن يمسك الحياة على المخلوق ؟ من أحكم القوانين الحاكمة ... ؟ من جعل الأسباب فاعلة في المسببات ... ؟ ومن ربط المسببات بالأسباب ... ؟ من أتقن الصنعة وأحكمها ... ؟ من بيده أمر الوجود والعدم في البدء والنهاية ... ؟ كل هذه الأسئلة يطرحها القرآن المكي على المسلم ليؤسس بها ويؤسس عليها البناء لعقيدي للمسلم بإعتبار هذا الإعتقاد أخص خصوصيات الهوية للمسلم على مستوى الفرد وعلى مستوى الجماعة ، إنه أساس البناء ، وهو جذع الشجرة المباركة التي تتفرع منها أغصان الخصوصية الذاتية في الأخلاق ، في البناء الحضاري ، في النظرة إلى الوجود بداية ونهاية ، في العلاقات الاجتماعية ، في علاقة الحاكم بالرعية ، وكما أن الشجرة لا تكتمل فائدتها ، ولا تنضج ثمرتها إلا بإكتمال فروعها وأغصانها ، بل وأوراقها ، فذلك الأمر بالنسبة للعقيدة الإسلامية وشجرتها المباركة لا يكتمل نضجها،

1) أجرى هذا اللقاء الباحثة مع الأستاذ الدكتور محمد الجليند بتاريخ 17-18-19-2013 م بدار العلوم جامعة القاهرة

ولا يستوي عودها إلا بإكتمال فروعها وأغصانها وظلال أوراقها من الفرائض والسنن والمندوبات وإجتنب المحرمات والمكروهات وحسن التعامل معها ، والتعامل بهل مع النفس ومع المجتمع ومع الكون كله لتكتمل بذلك أركان وظيفة الإنسان ومسؤوليته في هذا الكون .

لقد كان تأسيس هذه الهوية العقيدية التوحيدية قطب الرchy للقرآن المكي ، فلقد أحكم البناء بالآيات البينات والدلائل الواضحة وبكل البراهين اليقينية التي تنير للعقل الطريق إلى الإيمان الذي لا يخالفه الشك بالتوحيد المطلق كأساس يقيني للعلاقة بالله ربا خالقا وإلها معبودا ، ثم جاءت الهجرة المباركة إلى المدينة المنورة ليكتمل البناء التشريعي الذي يمثل فروع شجرة التوحيد وأغصانها ، فكان القرآن المدني ينزل بالأوامر والنواهي التي جسدت الأحكام الشرعية من الفرائض والنوافل ، ثم النواهي عن

المحرمات ، وكانت السنة النبوية المطهرة تجسيدا لذلك سلوكا وتطبيقا بين جيل الصحابة ليكتمل بذلك بناء الهوية العقائدية بأركانها وفروعها ، ونزل قوله تعالى ﴿

الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي فَرَضْتُ لَكُمْ بِالإِسْلَامِ دِينًا ۖ ۝

ولذلك فإن أساس هوية المسلم أنه صاحب (عقيدة) والأمة التي ينتمي إليها الفرد المسلم هي أمة (عقيدة) يتفرع عنها ، ويتفرع منها أركان هويته ومكوناتها التي تشكل شجرة هذه العقيدة ، وتحمل أركان هذه الهوية ، والمكونات الثقافية والعلاقات الاجتماعية ، والمكونات السياسية ، أنها كلها تتصل جذورها بالعقيدة أمرا ونهيا وتنظيما وسلوكا ، وتنتهي إلى العقيدة وفاء بها وإلتزاما بأدابها وتطبيقا لمفرداتها على مستوى العلاقات المتنوعة بين الإنسان ونفسه ، وبين المجتمع ، وبينه وبين الكون ، إن أدبيات الفرد المسلم ترتبط بهذه الشجرة العقيدية بداية ونهاية تجسيدا لخصوصيته وهويته التي ينفرد بها إيمانا وإعتقادا وإلتزاما ، وتلك خاصية الهوية والأساس لها التي إذا سئل عنها المسلم أجاب : نعم هويتي أنني مسلم صاحب عقيدة ، ومن منطلق عقيدتي تتفرع وتأسس المبادئ التي تشكل وتنظم علاقته بالآخرين ، وإذا سئل عنها حاكم الدولة أجاب : نعم ، أنا حاكم مسلم لأمة مسلمة .

ولا ننسى أن هذا الأساس العقدي قد صوب الإستعمار نحوه كثيرا من عوامل الهدم وسهام التشكيك وإثارة الشبهات بهدف تغييب الوعي به أحيانا ، وتزييفه أحيانا ، وأخيرا يلجأ الآن لتزوير الوعي به لدى الفرد والمجتمع على حد سواء ، ولا يغيب عن القارئ الكريم الشبهات التي أثارها المستشرقون حول القرآن الكريم المصدر الأساسي لعقيدة المسلم وهويته التي يعتز بها ، وكم من الشكوك التي طرحها على القارئ المسلم حول القرآن ومصدره ، وأنه بشري المصدر وليس من عند الله ، إذا لو كان القرآن من عند

(1) المائدة : 3 .

محمد صلى الله عليه وسلم لما جاءت به الأكاذيب وما تلاها صلى الله عليه وسلم وكان من الأولى يأتي بشهادات تؤيد صدقة بدلا من أكاذيب المشركين وافتراءاتهم .

نعم إن التشكيك في هوية الوطن قضية قديمة تتجدد مع كل أزمة يعيشها المجتمع ، وكأن هناك من يتربص بالأمة ويترصد حالات النوازل التي تقع في المجتمع ، فيشغل بها الأمة تشوياً وتزييفاً لوعي الأمة بهويتها ، وما أكثر ما تنتشره الصحف السيارة – خاصة صحيفة الأهرام – وما يطرح على الشاشات المرئية من تشويش لأصحاب المذهبية المستوردة ، ولعل ما صرح به سلامة موسى في كتابه (ما هي النهضة) في مطلع القرن العشرين ما زال يتكرر الآن عبر الإعلام المرئي والمقروء بأساليب وطرق مختلفة ، وكلها تعمل على تغييب وعي المسلم بذاتيته وتزوير وعيه بهويته ... وتلك قضية يعتبرها أصحاب هذه التوجهات نتيجة مهمة وخطيرة يحرصون عليها ويعملون على شيوعها بين الشباب ، لأنها تمثل مرحلة من مراحل العمل المنهجي لفقدان المسلم إحساسه بهذه الهوية وتغييبه عنها وإحلال البديل المعد سلفاً مكانها .

ف نجد الآن من ينادي بالبديل عن الهوية الإسلامية (كالعلمانية والفرعونية والليبرالية ، والدولة المدنية) وكل هذه البدائل يسكنها بالضرورة ما يتناقض (مادة وروحا) مع الأسس التي تتكون منها هوية المسلم على مستوى المنهج العقدي والتطبيق العملي ، في مصطلحات ليست بريئة من انتمائها لأيديولوجيات معينة تعبر عنها وعن التوجه الاجتماعي والسياسي الذي تهدف إلى تطبيقه في المجتمع ، ويكفي أن نعلم أن مرجعياتها كلها تدور مع أهواء الطبقة الحاكمة أو الحزب الحاكم وجوداً وعدماً على حساب الطبقات الأخرى .

إن أساس الهوية للمسلم (شجرة العقيدة) التي تمثل قاسماً مشتركاً أصيلاً لكل مسلم في أي مكان في بلاد المسلمين أو في غيرها بصرف النظر عن لغته و جنسه و عرقه و موطنه الجغرافي ، فالمسلم في باكستان والمسلم في دول شرق آسيا وأوروبا لا يفترق الواحد منهم عن الآخر في اعتزازه بالانتماء إلى هذا الأصل العقدي وما يتفرع عنه من أوامر ونواه والتزامات أخلاقية واجتماعية فالكل ينتمي إلى هذه الشجرة ويستظل بمفرداتها اعتقاداً وسلوكاً ، فإذا سألت المسلم في أي موقع على ظهر الأرض ... من أنت ؟ كانت إجابته أنا مسلم ، وهذه العبارة وحدها جامعة لكل ما يندرج تحتها من مفردات خاصة به دون غيره تجسد هويته التي ينتمي إليها إيماناً بها والتزاماً بأوامرها.

ولا يوجد مانع بعد تأسيسها لهذه القاعدة وإشارته إليها باعتبارها الأصل للبناء الثقافي له أن يضيف إليها بعد ذلك ما يميز المسلم الباكستاني عن المسلم الهندي عن المسلم المصري من خصائص إقليمية ينفرد بها كل واحد منهم عن الآخر مثل اللغة والموطن والجنس ، وتلك محددات أساسية (اللغة / الوطن / الجنس والعرق) ينفرد بها كل مسلم في بيئته الجغرافية الخاصة به إضافة إلى الأصل العقائدي المؤسس لهويته ثقافيا وحضاريا وهو الإسلام ،

تأسيس الهوية للدولة بالمدينة :

استغرق بناء الشخصية المسلمة في مكة ثلاثة عشر عاما ، واطمأن الرسول صلى الله عليه وسلم إلى أن العقيدة التوحيدية قد ملأت قلوب الصحابة وتمكنت من قيادة الحركة اليومية للصحابة فلا يتحركون إلا تلبية لأمر عقائدي ، و لا يغضبون إلا إذا انتهكت محارم هذه العقيدة ، وأصبح كل واحد منهم مؤهلا وصالحا ، لان يكون لبنة في بناء الأمة ، وعضوا فعالا في تشييد مجتمع جديد يحمل عبء التأسيس لدولة جديدة تطالع العالم كله بمبادئ وقوانين لم يكن للعالم عهد بها من قبل ، وكانت الهجرة إلى المدينة بمثابة الفتح الرباني للبدء في تأسيس هذه الدولة الوليدة التي اذن لها أن تجسد بشكل عملي (الهوية) الجديدة لإنسان جديد صالح لأن يحمل راية هذه الهوية (علما وعملا ، قدوة وسلوكا ، إيمانا بها ودعوة إليها) إلى الإنسان - عالما - أيا كان لونه وجنسه ولغته ، ويجسد شعارها قوله تعالى : (يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم) 1 ، ومبدؤها : (يأيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها) النساء : 1 ومنهجها : (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) 2 ودعوتها بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتتي هي أحسن .

وما أن وصل موكب الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة واستقر به المقام كان أول عمل قام به تأسيس وبناء أو مؤسسة جامعة لشؤون الدين والدنيا معا ، وهو مسجد قباء ، الذي كان مؤسسة سياسية واجتماعية ودينية ، وكان جامعا وجامعة ، فيه يجتمع الرسول القائد والزعيم بمجلس الشورى من الصحابة (مهاجرين وأنصار) للتفكير في الكيفية المناسبة لوضع أسس هذا البناء الجديد لدولة المدينة ، وبدا القرآن المدني ينتزل على قلب الرسول

(1) الحجرات : 13

(2) الكهف : 29

صلى الله عليه وسلم بالأوامر والنواهي التي تحدد واجبات المسلم ، وكانت آيات التشريع تنزل تأسيسا وتعلما وتربية ودروسا لتشكيل نظرة شاملة لبناء مستقبل الدولة .

فكانت التشريعات القرآنية وما واكبها من سنة الرسول صلى الله عليه وسلم بمثابة البيان الإلهي والتفصيل النبوي والدستوري الجامع لما تقضيه عقيدة التوحيد التي تأسست في مكة ، وتشربتها قلوب الصحابة ، وجعلت قلوبهم وعقولهم صالحة ومؤهلة لتقبل هذه التكاليف الشرعية الجديدة التي نزل بها الوحي في المدينة المنورة ، إنها الأوامر والنواهي الشرعية التي حددت معالم الطريق المسلم ، لكي يصحح له الطريق حتى ينخرط في مدارج السالكين إلى الله ، أنها الصلاة والصيام والزكاة والحج والإيمان بالقدر .

إنها أركان العقيدة التي تأسست في مكة ، إنها السنن والنوافل والمندوبات التي جمعها الحديث الشريف : "الإيمان بضع وسبعون شعبة أفضلها لا إله إلا الله ، و أوضعها إمطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان وفي رواية "

الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها لا إله إلا الله ، وأدناها إمطة الأذى عن الطريق " 1 .

أنها قوانين التعامل المدني بين أفراد المجتمع المسلم ، أنها مواد الدستور الحاكم ، إنها شعب هوية المسلم ومكوناتها ، وعناصرها الثقافية التي تتجلى في سلوك المسلم وعلاقاته المتعددة في المجتمع والكون .

إن شئت فقل : إنها تحدد مسؤولية المسلم تجاه المجتمع وما فيه ، ويكون الإيمان بها والعمل بمقتضاها إمارة ناطقة بخصوصيته الذاتية التي تنبئ عن هويته الإسلامية .

وأعود إلى المثال السابق : إذا سمعت من يقول لك : السلام عليكم ورحمته وبركاته فتعلم أن ذلك الشخص مسلم ، لأنه قد أعلن عن هويته (تحية المؤمن السلام) وهذه التحية ليست فريضة ولا ركنا ، وإنما هي نافلة تفتح القلوب لتتشرب رسالة السلام والمحبة ، قال صلى الله عليه وسلم " لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا ، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم أفشوا السلام بينكم " 2 .

- (1) سنن النسائي ، كتاب الإيمان وشرائعه ، باب 12 ، حديث رقم (5005) .
- (2) صحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، باب 22 ، حديث رقم (203) .
- (3) منت

إن هذه الشعب الواردة في حديث الرسول تشكل بناء الأساسي لثقافة المسلم اجتماعيا وسياسيا ، وتربطه بعقيدته بحبل متين ، لأن هذه الشعب تشكل أغصان الشجرة المباركة فروعها ، وهي ثمرتها لتي يجنيها المجتمع المسلم حين تتجلى في سلوك أفراد، يجنيها المجتمع أمانا وأمانا ، وسلاما اجتماعيا ، ورخاء اقتصاديا ، ومودة بين أفراد ، ومحبة تمتلئ بها القلوب ، إذ يصير الكل في مودتهم وتراحيمهم كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى ، ويصبح الكل مسئولا عن حماية الكل والحفاظ عليه ، فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته من الفقراء القوى في محيطه راع ومسئول عن رعيته من الضعفاء .

والحاكم راع ومسئول عن رعيته من المحكومين ... وبقدر إحساس المرء بذاتيته وقوة تأثيره في المحيط الذي يعيش فيه يكون مسئولا عن معاونة المحتاجين وسيادة المبادئ الأخلاقية كما أنه مسئول عن شيوع كل معروف ومحاربة كل فساد ومنكر على قدر استطاعته .

هذه هي محددات هوية المسلم وثقافته وتلك خصوصيته ، وحراسة هذه الشعب الإيمانية وظيفه كل مسلم حسب استطاعته 1 .

وهي من الوظائف الأساسية التي تحدد هوية الدولة المسلمة التي تسوس بها دنيا الناس في حراسة من دينهم .

لقد كان مجتمع المدينة بمثابة النواة الأولى التي أسست المبادئ التي يعيش بها ويعيش عليها المجتمع وكانت التشريعات التي صدرت عن الوحي المدني تشكل عناصر الأساس لخصوصية المجتمع المسلم على مستوى المسؤولية الفردية والجماعية ، وبالتالي فإن هذه التشريعات تشكل عناصر أساسية للهوية الإسلامية التي ينتمي إليها المسلم أيا كان موطنه الجغرافي وجنسه وعرقه ولغته ، وهي تشكل العناصر الجوهرية لثقافة المسلم يؤمن بها ويدافع عنها ويدعوا إليها باعتبارها مطلبا إنسانيا

وفطريا وأمر إلهيا فإذا هذه العناصر لا تختلف عن ثقافته باعتبارها مكونا أساسيا لثقافة كل مسلم في أي مكان وأي زمان ، فالمسلم مكلف شرعا بحراسة هذه العناصر ،

(1) من خلال هذا اللقاء يتضح للباحث بعد ما بين الفاعلية والهوية عند صياغتها للذات وللعالَم الذي يحيط بها ، طرح أشكال الصراع الثقافي الذي تشهده هذه الأمة على جميع مستوياته وأصعدته ، من جراء التقائها التاريخي الثقافي الغربية الذي أفرز أسئلة الأصالة والمعاصرة ، والخصوصية والكونية ، ومختلف حروف الأجدية التي قدمت بها ولقد انتهى الجليند في هذه الحوارات إلى ضرورة تحصين الإنسان العربي عامة والمصري خاصة من كل أشكال الإغتراب والاستلاب وتدعيم هويته عبر استثمار منطق النظرة الإسلامية الشمولية للثقافة ، لتغليب جانب الأصالة على العناصر المستوردة ، وتغليب دوافع الإبداع على ظواهر التقليد وذلك ضمن شروط متداخلة ومتكاملة . أولها تعزيز اللغة العربية ، يجعلها لغة الحياة العامة للفكر والبحث والمؤسسات الوطنية المختلفة وثانيها : تنمية روح الإبداع الثقافي لتحقيق الإستقلال الذاتي تجاه الثقافة الأجنبية وثالثها : جعل الثقافة نطاقا عمومي وإبداعا متحددا وليس مجرد تراثا مجتريا ومنغلقا عن كل المؤثرات العالمية . ولقد تبين للجليند تحليلا شاملا في مسألة علاقة الهوية الإسلامية بغيرتها العربية ، عند معالجته لتأثير الثقافة من خلال شروعه "التنوير" .

وصيانتها من أن تغيب عن محاور التأثير في ثقافة المجتمع أو التزييف لها أو تزويرها أو استبدالها بمكونات ثقافية أخرى تحتل مكانتها في عقيدة المجتمع أو تناهضها بوسائل التأثير المختلفة – وما أكثرها – فإن المسؤولية تقع على الحاكم أو على أصحاب الكلمة الصادقة المؤثرة ثانيا بالتنبيه والتحذير .

ومما تجدر الإشارة إلى هنا أن هذه الهوية الإسلامية لا بد أن تتجلى وتظهر أثارها في سياسة الأمة ، وتكون ضابطة لعلاقات الأفراد وحاكمة لها وحاكمة عليها في نفس الوقت ، وتبدو دلالتها واضحة من المظاهر الكاشفة عن هذه الخصائص التي تميز الأمة عن غيرها من الأمم الأخرى ، فأنت تسمع صوت المؤذن خمس مرات يوميا في الدولة المسلمة ، ولا تسمع ذلك في الدولة غير المسلمة ، وترى المسلمين في أيام الجمعة والأعياد يجتمعون لأداء الشعائر في وقت واحد ولا ترى ذلك في الدول الغير مسلمة ، وتراهم يصومون شهر رمضان كل عام ، ويمتنعون عن شرب الخمر ، ولا ترى ذلك واقعا في الدول غير إسلامية ، كما تنعس أثار هذه الهوية في خصائص الأمة الحضارية والثقافية وخصائصها العقائدية التي لا تجدها في الأمم الأخرى ، فالمسلم يدفع حق الفقير في ماله (زكاة) بإعتباره حقا معلوما فرضته عليه عقيدته الدينية ﴿ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ (19) ﴿ (1) وغير المسلم لا يفعل ذلك وإن قدم

مساعدة للفقير فلا يكون ذلك من منطلق عقائدي بل يكون تنفيذا لقوانين دولته أن كان ذلك موجودا في قوانينها .

وتجد المسلم يؤمن بحرمة الغش والتزوير ، لأن دينه ينهيه عن ذلك ويتوعدده بالعذاب الأليم إن هو فعل ذلك بينما لا تجد ذلك عند غير المسلم وإن إلتزم به فيكون خوفا من تطبيق القانون وتنفيذ العقوبة ... وهكذا تبدو خصوصيات الهوية الإسلامية في ثقافة المسلم وسلوكه الاجتماعي وفي علاقاته ومعاملاته منضبطة بأخلاقيات الإسلام وأوامره ونواهيه ، مما يجسد هويته أمام الآخرين ، وبالتالي ينعكس ذلك كله في هوية الأمة التي تعبر عنها في قوانينها الحاكمة ، في دستورها الضابط لهذه القوانين والمرجعية لها .

إن هوية لمسلم – فردا و جماعة – تظهر خصائصها الذاتية في علاقاته الاجتماعية ، في حضارته ، في أخلاقه بإعتبار أن هذه خصوصيات كل أمة ومكونات هويتها وعناصرها التي تشكل أغصان الشجرة المباركة وفروعها التي تنبثق من جذعها الأساس والأصل المبارك ، وهو عقيدة التوحيد .

(1) الذاريات : 19

مازال يتردد كثيرا في أجهزة الإعلام السؤال عن (هوية مصر) في المستقبل ، وماذا ينبغي أن ينص عليه الدستور : هل مصر إسلامية أو علمانية ديمقراطية أو هي دولة ليبرالية وتعددت ندوات الحوار حول هذا الموضوع ، وبات سؤال الهوية الشغل الشاغل لبعض الكتاب الذين ينصبون أنفسهم وكلاء عن شعب مصر في رسم مستقبلها السياسي وخريطة العلاقات الاجتماعية لهذا الشعب ، ومن المعلوم أن تفشي الأمية – خاصة الأمية السياسية بين الطبقة التي تتلقى ثقافتها من أجهزة الإعلام كان سببا في إحداث نوع من اللبس والتضليل حول سؤال الهوية .

وهل الهوية الإسلامية لشعب مصر يراد لها أن تترك مكانها ومكانتها لهوية الثقافات الوافدة ؟ خاصة أن دوائر الحوار حول هذه القضية لم تخل من التشجيع على كل ما هو إسلامي في السياسة .

فمرة يقولون : لا نريد أن يحكمنا اللاهوت الذي يحلل ويحرم كما يريد ، ومرة لا نريد دولة الملالي في إيران .

وثالثة يقولون : لا نريد العودة إلى فكر البادية وحضارة البدو ، ولا نريد أن تنقل قندهار إلى مصر وبقايا ابن الأردن ، والذي يتابع ما ينشر أو يذاع إعلاميا على لسان هؤلاء الكتاب لابد أن يمتلكه العجب .

ماذا يريدون بمصر ؟

وماذا يزعجهم من الهوية الإسلامية التي استقرت في ضمير الشعب المصري المسلم فيه والمسيحي ؟ ولا يخفى على المتابع لذلك ما يسلكه هؤلاء من استعمال وسائل التنفير والتخويف من كل ما هو إسلامي إذا تحقق على أرض الواقع في مصر .

ولم يجدوا ما يشنعون به على كل ما هو إسلامي إلا خوفهم من تحريم الخمر ، ولباس البحر ، والسياحة الشاطئية ، وما تلتزمه من سلوكيات خاصة أبسط ما يقال عنها : إنها سلوكيات منافية للأداب والأخلاق ، وكأن المشكلات التي تعاني منها مصر سياسيا واقتصاديا ، هي تحريم الخمر أو عدم ذلك ، هي لباس البحر أو عدم ذلك ، هي سلوكيات الشواطئ ، أو عدم ذلك .. وهذا في حد ذاته يدلك على المخزون النفسي والعقلي الذي يشغل فكر هؤلاء ويستحوذ عليهم في صبايحهم ومساءهم حتى في ندواتهم حوارهم الثقافي .

من هنا وجب أن نبين بإيجاز مفهوم هذه المصطلحات السياسية التي ينادي بها هؤلاء بديلا عن الهوية الإسلامية ، وكيف تتعامل أمريكا وأوروبا مع شعوب العالم الثالث

تحت ستار كثيف من هذه المصطلحات التي يروجون لها في مصر (دولة مدنية – علمانية ليبرالية – ديمقراطية) وغير بعيد عن الأذهان ما فعلته أمريكا بشعب العراق تحت مسمى الديمقراطية التي تبشر بها في المنطقة العربية وما تفعله في أفغانستان والسودان الآن تحت هذه المسميات لصالح الدولة العبرية على حساب شعب فلسطين

والمنطقة العربية كلها ، مما يدل على أن الحرية التي يرفعون شعارها حلال لهم محرمة على غيرهم ، ومن يطالب بحريته من هذه الشعوب فإن مصيره ينتظره في سجون "جوانتانامو" وأبو غريب" .

والديمقراطية التي يتحاكمون إليها لا تصلح إلا لشعوبهم ومحرمة على غيرهم ومن يطالب بها في بلده فإن مصيره إلى المجهول .

والأموال التي يقدمونها للجمعيات المدنية تحت هذه المسميات الخادعة لا تخدم إلا مصالحهم في إسناد الحكم إلى من يرفع شعار الولاء لهم والبراءة من كل ما هو إسلامي .. فأين هي حريات الشعوب التي يعملون لصالحها ؟

وأين هي الديمقراطية التي يتحاكمون إليها في البلاد التي أطاحوا بالحكم فيها .. ؟

1 . مفهوم الدولة المدنية :-

من المفيد للقارئ أن ننتبه هنا إلى معنى هذا المصطلح في مصادره الأساسية حتى يعرف الشباب الذين يقرؤون هذه المصطلحات ليست بريئة ولها دلالتها الخاصة بها في المجتمع الذي نشأت فيه ، وهي محملة بهمومه الاجتماعية والثقافية ، ونحن نردها دون تحرر لمعناها ونحاول أن نضفي عليها ما نريد وما نحب من مفاهيم مقبولة حتى نجد لها رواجاً ، وهي في نفس الوقت لا تمت لمعناها الحقيقي بسبب .

تشير المصادر المتخصصة إلى أن أول استعمال للمصطلح "مدني" وصفا للدولة ورد في كتاب الأمير لمكيافيل (1496 – 1527 م) وهو يؤسس لبناء الأمانة المدنية في كتابه المذكور كان مما أشار إليه باهتمام حول مبادئ هذه الإمارة : أن هذه الإمارة لا يجوز أن تخضع لأي مبدأ أو قانون فوقني ، أو أي قيمة مرجعية تحد من سلطة الأمير ، أو تكون فوق قانون الدولة ، أو تكون حاكمة لها أو متحكمة فيها ، ووضع شعاراً عاماً لهذه الإمارة (إن الغاية تبرر الوسيلة) وجعل الباب التاسع في هذه الكتاب – كما أشار إلى ذلك بعض الباحثين (1) – بعنوان (في الإمارة المدنية) وكان ذلك بداية

(1) أنظر تفصيلات أكثر في : الدولة المدنية ، مفاهيم وأحكام أبو قهر ، ط ، عالم النوادر ، سنة 2011 ف ، ص 52،53 .

ظهور مصطلح (مدني) وصفا للإمارة ، ولخص مكيا فيلي خصائص هذه الإمارة في شرطين :-

1 - عدم خضوع هذه الإمارة لأي مفهوم ديني أو قيمي فوقي يتعارض مع سلطة الأمير .

2 - أن يتم اختيار الأمير بواسطة النبلاء ومن طبقتهم .

وإذا توفر هذا الشرطان فيما يصح أن يطلق على الإمارة أنها "إمارة مدنية" فهي رافضة لأي مرجعية دينية أو قيمية تتعارض مع سلطة الأمير أو مع قوانين الإمارة ، ومن المفروض أن نرفض المرجعية الدينية هنا يتعلق أساس بسلطة الكنيسة وما تمليه على شعبها من قوانين ، فالرفض لا يتعلق بالمسيحية كعقيدة ودين ولكن يتعلق بسلطة الكنيسة فقط .

ثم أخذ مفهوم الدولة المدنية يتطور بعد ذلك في كتابات المفكرين ، حتى وصل إلى جون لوك (1632 - 1704 م) الذي يعتبره منظور الفكر السياسي في أوروبا أهم من أسس لنظام الدولة المدنية الحديثة في الغرب ، كتب "لوك" "مقالتان في الحكومة المدنية" سنة 1960 ف وهما من أهم كتابات "لوك" عن الدولة المدنية ، وكان من أهم ما فيه إليه في هاتين المقالتين أنه نص على أنه " ... ما دامت السلطة ذات طابع كنسي فيجب أن تكون مقيدة بحدود الكنيسة ، إذ ليس في إمكانها بأي حال من الأحوال أن تمتد إلى الشؤون الدنيوية ، لأن الكنيسة ذاتها منفصلة عن الدولة ومتميزة عنها تماما ، فالحدود بينهما ثابتة ومستقرة ، ويقول : "ليس من حق أحد أن يقتحم باسم الدين الحقوق المدنية والأمور الدنيوية " (1) .

كما أشار إلى أن نظام الحكم المدني لا يجوز أن يحمل طياته أي معرفة عن الدين ، وكل ما يبيحه القانون في الدولة لا يجوز أن تعتبره الكنيسة محرما أو تعترض عليه ،

لأن القانون الذي ترتضيه الدولة المدنية لا يجوز أن تعارضه أي مرجعيات دينية فوقية (2) .

والذي يلفت النظر هنا أن كل كتابات المفكرين في الغرب عن علاقة الدولة المدنية بالفوقيات المرجعية أو المرجعيات الفوقية تنصب كلها على سلطة الكنيسة وقوانين الكنيسة (3) ، وهذا ما استقر عليه مفهوم الدولة المدنية في كتابات الغرب ، الفصل بين سلطة الكنيسة وسلطة الحكم في الدولة المدنية ، والرفض المطلق لكل مرجعية

(1) المصدر السابق ، ص 64 .
(2) المصدر السابق ، ص 64 .
(3) المصدر السابق ، ص 64 .

فوقية تتعارض مع القانون الذي ترتضيه الدولة المدنية أو تحد من سلطة الحاكم فيها ،
هذه أسس الدولة المدنية التي تقوم عليها مبادئها الدستورية وتمنع كل ما يتعارض معها
من القوانين والأفكار الدينية .

2 . مفهوم الدولة العلمانية :-

ربما كان هذا المصطلح أكثر شيوعا في الكتابات السياسية قبل ثورة 2011/1/25م ،
وازداد شيوعا وانتشارا بين المنظرين للفكر السياسي في مصر بعد هذه الثورة ،
ويخلط الكثيرون في تناولهم لهذا المصطلح بين مفهوم السياسة العلمانية في الغرب
التي يرى البعض أن يستوردها للعمل بها في مصر ، ويحاول أن يوفق بينهما وبين ما
هو منصوص عليه في السياسة الشرعية الإسلامية متناسيا الأصول أو الركائز التي
تأسس عليها الفكر العلماني عموما والسياسة العلمانية بصفة خاصة ، سواء تعلقت هذه
السياسة بثقافة الشعب أو بالتربية والتعليم أو بالنظم الاجتماعية ، فإن الأساس الذي
تقوم عليه السياسة العلمانية هو العمل من أجل الدنيا فقط ولا شيء وراء الدنيا نعمل
من أجله ، ورحم الله محمود عباس العقاد حين ترجم المصطلح Secularism
بالدنيوية ، ومن المهم أن نرجع إلى المصادر التاريخية لمصطلح العلمانية لننتعرف
على دلالاته ، فإن العلمانية كمصطلح سياسي اجتماعي نشأ كنتيجة لطبيعة لقصة
الصراع بين الكنيسة والعلماء في العصور الوسطى في أوروبا ، شأنه في ذلك شأن
أخواته من المصطلحات التي تشاركه نفس هذه الظروف في التأسيس والنشأة (ليبرالية
/ حداثة / مدنية) فكلها مصطلحات محملة بهموم المرحلة التاريخية التي أفرزتها ومن
أهمها إقصاء الحياة السياسية والاجتماعية عن كل ما هو ديني كنسي ، والاهتمام فقط
بكل ما هو دنيوي في مقابل تركيز الكنيسة على العمل فقط من أجل الآخرة والتخلص
مما دنيوي ، وتفصيلات القصة طويلة ومعروفة ، وليس من هنا الآن تفصيل القول
فيها (1) .

جاء في دائرة المعارف البريطانية أن العلمانية (حركة اجتماعية تهدف إلى صرف
وتوجيه الناس عن الاهتمام بالآخرة إلى الاهتمام بالدنيا وحدها) وأخذ المصطلح

يتطور مفهومه السياسي نحو الفصل التام بين كل ما هو ديني عن شئون السياسة في الدولة ، فالمصطلح في أصل نشأته لم يكن محايدا في موقفه من الدين – كما يحاول البعض ذلك – وإنما حدد موقفه سلفا بأنه هو الرفض المطلق لأي علاقة بين الدين وسياسة الدولة فالسياسة العلمانية ليست محايدة ولا المصطلح السياسي محايد في شأن

(1) أنظر معجم اللغة البريطانية 1138/3 ، ومعجم أكسفورد 84/9 ، وتاريخ الإتحاد في الغرب لرمسيس عرض ، ص 251 ، وتشير كل هذه المعاجم إلى أن العلمانية ترفض كل ما هو ديني ، هل هي علمانية خاصة بهم . راجع الفكر الإسلامي في مواجهة التغريب واستلاب الهوية : د : محمد السيد جليند ، فصل (العلمانية) .

العلاقة بين الدين والسياسة ، والأساس المتفق عليه هو الفصل التام بين الديني والسياسي .

وأشار المعجم الدولي الثالث إلى نفس المفهوم الموجود في دائرة المعارف البريطانية وشرح المصطلح Secularism بأنه (... اتجاه في الحياة يقوم على مبدأ أن الدين أو الاعتبارات الدينية يجب ألا تتدخل في الحكومة أو استبعاد الاعتبارات الدينية .. فهي تعني السياسة اللادينية البحتة في الحكومة ، وهي نظام اجتماعي في الأخلاق مؤسس على فكرة وجوب قيام القيم السلوكية والخلقية على اعتبارات الحياة المعاصرة والتضامن الاجتماعي دون النظر إلى الدين ، أو باعتباره مرجعا أو مصدرا لأي قانون يتعلق بسياسة الدولة (1) .

3 . الليبرالية :-

أما الليبرالية فهي مصطلح غير واضح الدلالة ، فهل يدل المصطلح على النزعة الفردية والحرية المطلقة للأفراد تجاه سلطة الدولة ، كما يرى ذلك بعض المفكرين له أم هو علاقة خاصة بين سلطة الدولة والأفراد (2) ؟

لقد أخذ المصطلح يتطور في دلالاته السياسية والاجتماعية خلال القرنين الثامن والتاسع عشر ، ورغم اختلاف الدلالة من مفكر إلى آخر إلا أن القاسم المشترك الذي أجمع عليه المفكرون هو دلالاته على النزعة الفردية تجاه تدخل الدولة في أي شأن من شئون الأفراد سياسيا واقتصاديا ، وهذا المشترك محل إجماع بين أنصار المذهب الليبرالي ، فلا بد من إفساح المجال أمام الأفراد (.. بأن يمضي الفرد قدما إلى الأمام في البحث عن الثروة والملكية الخاصة أو سعادته الخاصة والنفعية)

فهو مذهب نفعي فردي يجسد الحرية المطلقة للأفراد وعدم تدخل الدولة في شئونهم الخاصة ... وليس له أي مرجعية سياسية حاكمة أو ضابطة إلا ما تتفق عليه الجماعة الحاكمة ، أو الحزب ، أو الطائفة ، والرفض المطلق لكل ما يعارض الدستور الحاكم أو يقف أمام تحقيق أهدافه وما زال المصطلح كمفهوم سياسي يحوطه الغموض ، فهل هو مذهب في السياسة أو توجه اجتماعي يعبر عن

آمال الطبقة الوسطى في المجتمع (البرجوازية) أو هو مذهب في الإقتصاد الحر الذي تنشره أمريكا في العالم (اقتصاد السوق) ولشدة غموض المصطلح نجد الذين

-
- (1) راجع العلمانية (بحث دكتوراء) سفر الحوالي ، ص 12 ، وأنظر البحث الممتاز : موقف الفكر العلماني من النص القرآني للدكتور أحمد الطحان ، ص 80-115 .
- (2) أنظر الليبرالية إشكالية المفهوم – ياسر قنصوة – 95 ، وما بعدها ، وهو بحث قيم تناول المصطلح منذ نشأته تاريخيا وتطوره في كتابات السليبيين إلى الآن .

تناولوه بالشرح والتتبع التاريخي له وصفوة بأنه أشبه بالوصفة السحرية التي يسهل ابتلاعها دون معرفة ولا دراية بمكونات هذه الوصفة (1) .

4 . الديمقراطية :-

ولا يبعد عن ذلك مصطلح الديمقراطية ، فهو مصطلح غير محايد وله دلالاته الاجتماعية التي ينعكس أثرها في الفكر السياسي ، فإذا تناولنا المصطلح فيما بينا على أنه حكم الشعب للشعب أو أن يحكم نفسه بنفسه فإن السؤال الذي يطرحه المصطلح من واقع نشأته التاريخية هو ، من هو الشعب الذي يحكم ... ؟ ومن هو الشعب المحكوم .. ؟ لو رجعنا إلى تاريخ نشأة المصطلح – وهو يوناني الأصل – سوف نجد أن المصطلح كان يقصد به حكم الطبقة المالكة (الملاك) أو أصحاب الحيازة الملكية ، لأنهم وحدهم الذين لهم حق الانتخاب ، ومنهم فقط تتكون الطبقة المالكة الموجودة فيما يسمى الآن بالدائرة الانتخابية ، فمن لا يملك عقارا (حيازة) لا يكون له حق التصويت في الانتخابات ، والكلمة الرنانة الكامنة في مصطلح الديمقراطية (المساواة) ليست مساواة بين كل البشر كما يظن الكثيرون . وإنما هي مساواة بين أفراد الطبقة المالكة (النخبة) ، ولذلك فإن الذين لا يملكون شيئا لا يتمتعون بهذه المساواة (2) .

وليس القصد هنا تفصيل القول في بيان هذه المصطلحات أو دلالاتها السياسية والاجتماعية ، وإنما هي إشارة إلى أن كل مصطلح سياسي أو ثقافي نشأ في مجتمع معين يكون محملا بهوم هذا المجتمع ثقافيا واجتماعيا وسياسيا ، دلا على خصوصيته في هذا المجتمع وحده ، وقد لا توجد هذه الخصوصية في غيره من المجتمعات الأخرى تبعا للإختلاف الثقافات واختلاف العقيدة . ولا شك أن المجتمعات تتباين فيما بينها وتختلف مع احتفاظها بالمشارك الإنساني بين كل الشعوب .

هويات متباينة :-

وهنا نقطة جديرة بالتنبيه والإشارة إليها ، فمن المعروف أن النظرية السياسية لكل أمة تجسد بالضرورة ثقافة هذه الأمة وتدل على مرجعيتها الثقافية (من العقيدة واللغة والجنس) وبالتالي يكون ضروريا أن نظريات السياسة للأمم والشعوب تتباين فيما بينها بحسب تباين مرجعياتها الثقافية والاجتماعية ، وبحسب نظرتها

(1) نفس المصدر .

(2) المرجع السابق ، ص 112 ، 113 .

الفلسفية العامة للوجود ، والإنسان ، ووظيفة الإنسان في هذا الكون ، وفلسفة العلاقات الاجتماعية بين أفراد المجتمع من حيث مقاصدها وغاياتها ، ومن حيث أسسها العقائدية والدينية ، ويترتب على اختلاف هذه المنطلقات اختلاف القوانين الحاكمة من حيث توجيه حركة المجتمع نحو تحقيق المقاصد والغايات التي ترشد إليها المرجعيات والمصادر التي تؤسس لها خصوصياتها وتجسد هويتها وذاتيتها التي تعمل على صيانتها من أن تذوب أو تتلاش في ثقافات الآخرين .

وهذه الخصوصيات التي تتباين بها النظم السياسية بين الشعوب لا تمنع من وجود القدر المشترك العام بين كل هذه النظم ، والذي يجسد المشترك الإنساني بين كل الشعوب ، فالإنسان هو الإنسان في كل زمان ومكان له حقوقه وعليه واجباته ، وقد أشار إلى كل ذلك علماء الاجتماع السياسي كما نبهت إليها الأديان السماوية ، وحذت من الاعتداء عليها باعتبارها حقا مشروعا أو واجبا مأمورا به ، ونصت عليها شريعة الإسلام باعتبارها ضروريات حياة يجب حفظها ، واعتبرت الاعتداء عليها من المحرمات والكبائر ، وأطلق عليها فقهاء الأصول مصطلح المقاصد أو الضروريات الخمس المتمثلة في حفظ (النفس – العقل – المال – العرض – والدين) ، وانفرد بها الإسلام بأن حافظ عليها بوضع الحدود عقابا لمن انتهك حرمتها وتحذيرا من الاعتداء عليها ، واعتبرت الشريعة الإسلامية أن مقاصد الشريعة كلها تدور حول صيانة هذه الحقوق والحفاظ عليها وسمتها بمقاصد الشريعة ، وكانت القوانين والأحكام التشريعية تدور كلها حول المحافظة عليها

لكل أفراد المجتمع سواء كان المواطن المقيم بالدولة يدين بالإسلام أو باليهودية أو المسيحية ، أو لا دين له ، لأن المقصد الأسمى هو تحقيق كرامة الإنسان المقيم تحت شعار المجتمع المسلم بصرف النظر عن دينه وجنسه .

ونشير هنا إلى أن القدر المشترك بين الشعوب لا يعيبه أبداً أن يكون مجالاً لتبادل الأفكار والتأثير والتأثر وأن يخضع لعوامل التلقيح الثقافي بهدف تبادل الآليات والأدوات بين الشعوب المتقدمة والمتخلفة ، فلا يضر المجتمع صناعياً أن يأخذ عن المجتمع المتقدم أدواته وآلياته .

كما لا يضير المجتمع المتقدم صناعياً أن يقدم للمجتمعات المتخلفة صناعياً الأدوات الحربية والصناعية لأن هذه الآليات وتلك الأدوات لا تعبر عن الخصوصيات التي تتباين بها الشعوب ، فهي صناعة بشرية وليست مرجعيات يستمد منها البشر ثقافته الاجتماعية ولا تؤسس عليها نظريته السياسية ، فالشعب المتقدم صناعياً في هذا القرن قد يتقدم عليه ويسبقه شعب آخر في قرن قادم ، وربما سبقه شعب آخر في قرن ماض ، وهذا أمر واقع ومعروف بين الشعوب ، ولا يحتاج إلى بيّنة .

أما هويات الشعوب الثقافية وخصوصياتها المؤسسة على مرجعيتها المقدسة تظل حاکمة وفاصلة ، تتباين بها الشعوب ، وتعتز بها الأمم سواء كانت متقدمة صناعياً أم متخلفة ، وتظل هذه الخصوصيات مصدر فخر واعتزاز وانتماء لكل شعوبها ، أنها : (العقيدة – اللغة – الجنس) هي العناصر المكونة لهوية الشعوب والأمم وهي الأساس الذي تبنى عليه شبكة العلاقات الاجتماعية بين أفراد المجتمع وهي المصدر الأساسي للعلاقة بين الحاكم والمحكوم في المجتمع المسلم ، وهي مصدر القيم الأخلاقية التي تحكم سلوك الأفراد ، وتضبط حركته داخل مجتمعه ، وقد تتشابه النظم السياسية والقيم الأخلاقية بين الشعوب كما هو شأن القدر المشترك الإنساني الذي أشرنا إليه سابقاً ، لكن تظل المصادر والمنطلقات مختلفة ، كما تكون الغايات والمقاصد متباينة ، فهي إن تشابهت في الشكل والمظهر لكنها

تختلف في المضمون والجوهر ، فالمسلم يقوم بحقوق والديه وبحقوق جاره وبحقوق الفقير في ماله ، ويعمل على نظافة بيئته ، لأن العقيدة التي يؤمن بها تأمره بذلك ، فهو يقوم بها تقربا إلى الله وتعبدا له ، وطمعا في ثوابه في الآخرة ، أما غير المسلم فهو قد لا يفعل ذلك أبدا ، وإن فعله فقد يفعله إما تنفيذا للقانون أو طمعا للمدح من الناس ، أو شهرة في المجتمع .

لكنه لا يفعل ذلك لا تقربا إلى الله ولا طمعا في ثوابه في الآخرة ، ومن هنا تختلف المنطلقات والمصادر كما تختلف البواعث والغايات .

المسيحية في أوروبا : -

وإذا تجاوزنا ذلك إلى طرح سؤال أراه ضروريا هنا : هل الدول الأوروبية تنازلت عن هويتها المسيحية لصالح هذه المصطلحات ؟ أم أن هناك تزييفا للواقع الذي تعيشه أوروبا في كتابات أصحاب هذه الإنتماءات في بلادنا ؟

إن واقع الدول الأوروبية باعتبارها الموقع الجغرافي الذي أفرز هذه المصطلحات لم ترفض أبدا أثار عقيدتها في قوانينها ولا في دساتيرها ، ولم يتنكر فلاسفتها ولا منظروها للمرجعيات العقيدية وإن كانوا قد نصوا على ذلك في كتاباتهم ، ولعل أكبر دليل على ذلك ما نجده في دساتير معظم هذه الدول من النص على ديانة الدولة ، بل والنص على ديانة رئيس الدولة في الدستور .

وهذا لم يدفع الأقليات الموجودة بهذه الدول إلى الشعور بالعزلة أو الإحساس بالإضطهاد وهذه الأقليات لم تكن من المسلمين بل مسيحيين من مذاهب مختلفة ، ومنهم يهود ومنهم لا دينيون ، وإليك بعض النماذج : -

1- ينص دستور الدنمارك في المادة الرابعة منه على أن الكنيسة الإنجيلية اللوثرية هي كنيسة الدولة الرسمية ولا بد أن تحظى بتأييد الدولة ، وتنص المادة السادسة على أن الملك لا بد أن يكون من اتباع هذه الكنيسة .

- 2- ينص الدستور البريطاني في القسم (18) في المادة (4) وهو دستور عرقي على أن الملك يكون من اتباع المذهب البروتستانتي وأن كنيسة إنجلترا واسكتلندا هما الكنيسة الرسمية للدولة ، وأن إليزابيث هي الرئيس الأعلى للكنيسة .
- 3- يبدأ الدستور اليوناني بعبارة : باسم الرب المقدس واعتقادنا بجوهرية وتوحد أقانيم الرب والثالوث الخفي ، وينص في المادة الثالثة منه على أن المذهب الأرثوذكسي الشرقي هو الدين الرسمي للدولة .
- 4- ينص الدستور في دولة السويد في المادة الثالثة منه على أن الفقرة الرابعة من الرسوم الصادر من الملك كارل على أن الملك لا بد أن يكون من اتباع المذهب داخل المملكة ، وأن أي أمير أو أميرة من أفراد العائلة المالكة لا يقر بهذا الإعتقاد يحرم من كل حقوق الخلافة أو التوريث .
- 5- ينص الدستور في دولة النرويج في المادة الثانية منه على أن المذهب الإنجيلي اللوثيري هو المذهب الرسمي للدولة ، ويجبر المقيمين في البلاد المتبعين لهذا المذهب على تنشئة أولادهم على هذا المذهب ، كما تنص المادة الرابعة من الدستور على أن الملك يجب أن يكون من اتباع المذهب وأن يعمل على حمايته

والذي أشير إليه هنا أنه إذا استعرنا مصطلحا ما من بيئة ما إلى بيئة أخرى فلا بد من تحييصه أولا انعرف ما هو مشترك فيه وما هو خاص ببيئته هو ، فنقبل العام والمشارك منه إذا لم يتعارض مع خصوصيتنا ، أما ما هو خاص ببيئته هو فيجب التخلص منه وأن يحل مكانه ما هو خاص بنا وما يميز خصوصيتنا نحن ويجلي هويتنا نحن ، حتى لا يغيب وعينا بذواتنا وذاتيتنا و لا تذوب في خصوصيات الآخرين .

الدولة الدينية :-

أما الحديث عن الدولة الدينية التي يضعها البعض كمقابل لهذه المصطلحات و يعتبر أن المفهوم الإسلامي للدولة هو (الدولة الدينية) فهذا خطأ في التصور وخطأ في مفهوم السياسة الشرعية في الإسلام ، أما أنه خطأ في التصور فإن مفهوم الدولة الدينية كما يتردد في كتابات البعض ليست من الإسلام في شيء ، فلم يعرفها الإسلام تاريخيا ، ولم يدع إليها في نصوصه و لا تعاليمه ، بل حذر منه صراحة .

إن مفهوم الدولة الدينية قد عرفته العصور الوسطى في أوروبا خلال سلطة الكنيسة ودعوى أن الكنيسة وحي مقدس ، ومن هذا المنطلق كان القسيس هو الذي يعين الإمبراطور ويعزله ، ويملي عليه ما يشاء من سياسات وأفكار لا تقبل النقد أو الرفض ، ومن يقف ضد عقيدة الكنيسة أو يرفض رأيها فجزاؤه الحرمان من رحمة الكنيسة ، وظل هذا المفهوم سائدا إلى أن ثار العلماء في وجه الكنيسة وتحررت سياسة الدولة من سطوتها ، ومن المعلوم عند فقهاء الدستور أن مفهوم الدولة الدينية بمستوياتها المتعددة لا مكان له في الفكر السياسي الإسلامي أبدا 1 .

ثم أن الدولة بالمفهوم الديني الشيعي التي يحكمها الفقيه نيابة عن الإمام الغائب ليس لها مكان في الفكر السياسي عند أهل السنة ، فلا عصمة للإمام ولا ولاية للفقيه ، والحاكم بشر يصيب ويخطئ ، ويتولى الحكم بالإختيار المباشر ، وتعزله الأمة إن لم يحقق مصالح الناس أو لم يدرأ عنهم المفسد ، ولعل عبارة أبي بكر أول خليفة على المسلمين بعد المعصوم صلى الله عليه وسلم قد حددت مكانة الحاكم ووظيفته حين قال : (وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أصبت فأعينوني ، وإن أسأت فقوموني) وفي عبارة عمر : أطيعوني ما أطعت الله فيكم فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم) .

1 انظر الدولة المدنية مفاهيم وأحكام - أبو فهر ، ص 120 - 123
1 انظر في ذلك المفهوم : البحث الممتاز عن مفهوم الدولة المدنية ، المبحث الثاني عن الدولة الدينية لأبي فهر - ص 35 - 36 وراجع الأنظمة السياسية - ثروت بدوي 6/1 ، والنظم السياسية لعاطف البنا ، ص 53 ، وتاريخ الفكر السياسي لشوقيه ، ص 204 - 206 .

وعند مقارنة هذه المفاهيم السابقة بمفهوم السياسة الشرعية في الإسلام سوف نجد أن كل معنى حسن وإنساني في هذه المصطلحات قد تضمنته السياسة الشرعية في الإسلام ونصت عليه اعتبرته مكوناً أساسياً من مفهوم السياسة الشرعية ، فإذا كان مصطلح الليبرالية يجعل الأولوية للحرية الفردية ، فإن الحرية في الإسلام فريضة دينية لا ينبغي لأحد حاكمها أن يحكمها أو يتجاوزها أو يفرط فيها ، لكنها الحرية المسؤولة المنضبطة بضوابطها الشرعية التي لا تتجاوز حريات الآخرين أو تعلو فوق حقوقهم .

وإذا كانت الديمقراطية تعني المساواة في الحقوق والواجبات فإن مبدأ المساواة حق شرعي بل هو من الضروريات التي نص عليها الشرع ، لكنه حق الناس ، وليس لطبقة معينة أو لحزب حاكم دون غيره ، كما هو الشأن في الممارسات التي نعيشها في الواقع الحزبي .

إن مكونات مصطلح السياسة الشرعية يشتمل على كل ما هو حق للإنسان من حيث هو إنسان بصرف النظر عن لغته وجنسه ودينه ، وبصرف النظر عن انتمائه الحزبي أو الإيديولوجي ؛ لأن المشرع هنا حزبا يحرص على حقوقه ولا يسمح لأحد أن يطالبه بالواجبات .. وليس طبقة تشرع لمصالحها الخاصة ولو على حساب الطبقات الأخرى في المجتمع .. وليس فردا حاكما يمتد سلطاته إلى التشريع ، فيقبل منه ما يمد سلطاته ويرفض منه ما يعارض أهواءه ورغباته

إن المشرع في السياسة الشرعية هو الله ، وتدور مقاصد التشريع السياسي في الإسلام حول تحقيق المصالح وتكثيرها ودرء المفساد وتقليلها ، ولذلك كان تعريفها عند فقهاء السياسة : هو سياسة الدنيا وحراسة الدين (الدستور) أو سياسة الدنيا في حراسة الدين ، والقصد من العبارة الأخيرة حفظ الدين وحراسته باعتباره الدستور الحاكم والمحقق لمصالح الأمة ؛ وإن تعارض ذلك مع أهواء الحاكم .

إن من أهم الخصائص التي يتميز بها الشرع في الدولة الإسلامية أنه مقدس عن الأهواء الحزبية والطائفية والفئوية ، وهدفه الانتصار لمبدأ العدل وتحقيقه بين سواد الرعية ، وحراسة الحق من جور المسؤولين وطغيانهم وحماية الضعفاء من تسلط الأغنياء وأصحاب رؤوس الأموال .

وفي الدولة الإسلامية يستمد الدستور الإسلامي قداسته من قداسة واضعه وهو الله ، ويرتبط تنفيذ بنوده وقراراته بعقيدة الأمة وإحيائها في نفوس الأفراد ؛ ليكونوا هم الحراس الأمناء على تنفيذه باعتبار ذلك مقصدا أساسيا من مقاصد السياسة في الدولة الإسلامية .

إن من وظيفة الدولة الإسلامية أن تربي الأفراد على حراسة المبادئ والقوانين خوفا أن تنتهك حرمتها أو تموت قداستها في نفوس الأفراد ؛ لأن حراسة هذه القوانين جزء مكمل لإيمان الأفراد ، وعنوان لكمال عقيدتهم الدينية ؛ لأن التعامل مع هذه القوانين عندهم مؤسسة على حكم الحلال والحرام ، والسنة والمكروه ، وإيمانهم بها مستمد من إيمانهم بوضعها وهو الله .

وهذه الأحكام ترتبط بعقيدة الأفراد وقوتها في النفوس وتشيع القلوب بها إيمانا واعتقادا ، فإذا حاول الإنسان انتهاك حرمتها أو تجاوز مبدأ قانونيا أو قرار ما ، فإنه يتردد ألف مرة في ذلك قبل أن يقدم على الفعل لإيمانه بأن انتهاك هذا المبدأ أو القانون يخدش عقيدته وينال من كمال إيمانه ، ويضعه في موقف مساءلة أمام الله قبل المساءلة أمام القانون أو الحاكم ، وتربية الفرد على الإيمان بهذه المعاني الدينية الراقية والمتسامية جزء أساسي من وظيفة الدولة في الإسلام ؛ لأن ذلك يجعل الإنسان حارسا بنفسه على نفسه ، فلا يحتاج إلى مراقبة الشرطي أو غيره

وذلك يؤدي إلى بناء مجتمع مسئول بنفسه عن إصلاح نفسه ، مجتمع حارس لقيمه ومبادئه وليس خارجا عليها أو معتديا عليها ، مجتمع يبني ولا يهدم ، مجتمع لا يحتاج إلى حراسة الشرطة أو القوانين وإنما يكون هو الحارس لها الأمين عليها ، لأن ذلك كله مقصد شرعي تفرضه على المجتمع عقيدته ويامره به دينه .

وهذا النوع من الإيمان المقدس بمسئولية الفرد عن حراسة القوانين لا نظير له في أي نظام سياسي آخر ؛ سواء كان (مدنيا أو ليبراليا أو علمانيا أو ديمقراطيا)

لأن كل هذه الأنظمة ليس لها مرجعية عقيدية تقديسها ، ليس لها مرجعية تؤمن بها ، ليس وراء هذا الوجود الدنيوي وجود دائم يحاسب فيه المرء على ما قدمه من أعماله في الحياة الدنيا ، فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ، هذا المعنى الديني ليس محل إيمان في هذه الأنظمة السياسية التي يدعوننا إليها . لا مكان لها ولا مكانة في الدولة (المدينة والعلمانية والديمقراطية والليبرالية) لأنه لا محل للإيمان بالغيبات (الله واليوم الآخر) بل هو محض خرافة يجب التخلص منه تحت مسمى التنوير .

وقد أجمعت المصادر والمعاجم التي عرفت النظم السياسية العلمانية بأنها كلها تعمل من أجل الدنيا فقط ، وقد صرح بذلك سلامة موسى في كتابه "ما هي النهضة" حيث قال : "ليس وراء الدنيا شيء نعمل من أجله ، وأن أوروبا لم تنهض إلا بعد أن تخلصت من هذه الخرافة " هكذا كانت أوروبا ، وهذا هو ما يدعوننا إليه .

ليس في النظم العلمانية مكان ولا مكانة لأي مقدس تؤمن به وتعمل من أجله ؛ سواء تسترت هذه النظم بإسم (الدولة المدنية أو الليبرالية أو العلمانية) . إنها كلها أسماء لمسمى واحد هو إقصاء الدين عن شؤون الحكم ونظام المجتمع ، ولعل من يتابع ما ينشر في يوميات الأهرام الأسبوعية¹ ، وما يستعمله أصحابها من ألفاظ وعبارات تشين كل ما هو إسلامي ، أو من يتابع أو يتتبع الوجوه التي تتولى إثم التشنيع والتنفير والتخويف من الدولة الإسلامية على شاشات التلفاز يدرك أننا الآن نعيش مرحلة بيتوا لها بليل ، وأخذ بعض القائمين على الإعلام يستنهض همم هؤلاء المتحدثين ؛ ليحكموا قبضتهم على كثير من وسائل التأثير في المجتمع واستحثاثا له واستعدادا وكرهية وتخويفا من كل ما هو إسلامي ، وبات كل حسن يقوم به الإسلاميون عندهم قبيحا ، وكل طيب خبيثا ، وكل كلمة طيبة تخفي وراءها مقصدا سيئا ، ولا يغيب عن القارئ المتابع لما يجري من أحداث في هذه المرحلة التاريخية في مصر من تنوع المفردات المنفردة واستحداث الألفاظ التي لم نجدها إلا في قواميس هؤلاء ،

1 راجع يوميات الاثنين في الأهرام

2 راجع يوميات الأربعاء في الأهرام

فالدولة الإسلامية عند بعضهم دولة تسلطية¹ أو هي دولة الملالي أو هي الدولة القمعية ، ومبدأ الشورى عند بعضهم يؤسس للتسلط والطغيان² ، والدولة الإسلامية استدعاء لحياة البادية وعقلية البداوة والحكم الإسلامي عند بعضهم يعني أن ترجع للتخلف فنركب الناقة بدل الطائرة والسيارة ، وإذا أضفنا إلى استدعاء الإعلام للصوت النسوي لديهم في هذه الحملة سوف نجد بينهم من تنادي برفض الدولة الإسلامية لأنها دولة كورية تقوم على قهر المرأة واقتناص حقوقها ...و...و... إلى الإدعاءات والإفتراءات التي يروج لها هؤلاء في هذه اللحظة من تاريخ مصر .

ولا يزال الادعاء قائما بأن الدولة الإسلامية هي الدولة الدينية ، وقد تحدث كثير من المفكرين ، وكتب الكثير من العلماء الليبيين لهؤلاء وأولئك أن الدولة الدينية لا مكان لها في الإسلام السياسي ، ولا في السياسة الشرعية في الإسلام ، ولكنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء .

إن الدولة الدينية التي عرفت الكنيسة في العصور الوسطى يرفضها الإسلام جملة وتفصيلا ، كما أن الدولة التي يلمحون إليها في إيران (دولة الملالي) كما يقول بعضهم لا مكان لها في السياسة الشرعية ، فالإسلام لا يعرف الإمام المعصوم ولا يعرف الحكم بالحق الإلهي الذي عاشت به الكنيسة ، ولا يعرف الحكم بالحق الطبيعي الذي عرفته أوروبا في العصور الوسطى ، فلماذا الإصرار على إشعال نار الفتنة في الوطن ، ولصالح من تتردد نفس الإدعاءات لصالح من ؟ ولماذا هذا الإصرار ؟ وماذا يريدون لمصر المسلمة .

إن أخوتنا في الوطن من النصارى أعلنوا صراحة براءتهم من هذه الأصوات حتى لا يتخذونها ذريعة أو حيلة يدعون بها أنهم يحافظون على حقوق الأقليات فالدولة الإسلامية لا تعرف مصطلح الأقليات ، وإنما تعرف مصطلح شركاء ، مواطنون ، فماذا يريدون لمصر إذن هل يريدون الإعلان في الدستور أن مصر دولة غير إسلامية ؟

(1) راجع اليوميات الاثنين في الأهرام .

(2) راجع اليوميات الاربعاء في الأهرام .

هل يريدون أن ينص في الدستور تناول على أن تناول الخمر حلال ومباح فنحل ما
حرم الله ؟

هل يريدون أن ينص في الدستور على جواز زواج المثل ؟

هل يريدون أن ينص في الدستور على إباحة الشذوذ الجنسي تحقيقا لمبدأ الليبرالية
والحرية الشخصية ؟

هل يريدون أن ينص في الدستور على أن حق المرأة في الميراث يجب أن يساوي
الرجل ؟

هل يريدون تحريم تعدد الزوجات وإباحة الشقيقات ؟

ماذا يريدون لمصر ؟ ولماذا الإصرار على محاربة كل ما هو إسلامي ؟ ليست
الأسئلة التي طرحتها سابقا من عندي وإنما هي نفس الأسئلة التي تتردد على ألسنتهم
وفي ندواتهم سرا وعلانية .

إن هذه الأسئلة هي التي تشغل عقولهم في الندوات والمؤتمرات تحت شعار الحرية
الشخصية التي ينادون بها ؟ كما نادوا بها في مؤتمر السكان الذي عقد في مصر في
العقد الثامن من القرن العشرين ، ورفض شيخ الأزهر المرحوم جاد الحق أن يوقع
بالموافقة على قراراته معلنا - رحمه الله - أن هذا لن يكون أبدا وأنا على قيد الحياة ،
وهي نفس الأسئلة التي عقدوا لها نفس المؤتمرات في بكين تحت رعاية الأمم المتحدة ،
وما رفضه شيخ الأزهر في مصر لتجد طريقها إلى التنفيذ في حراسة النظام السابق
وفي غيبة من وعي المجتمع بها ويجعلونها تحت مسمى حقوق الطفل ، حقوق المرأة
، حقوق الإنسان ، وبدأت الآثار السيئة تظهر خطورتها في الأسرة المصرية على
مرأى ومسمع من الجميع .

أعود إلى سؤال الهوية لنسأل هؤلاء ، ماذا يريدون لمصر ، هل يريدون أن تكون
علمانية لا دينية . بلا مرجعية دينية حتى يتاح للمشرع أن يرضى رغبات هؤلاء
ويسن القوانين والتشريعات التي تشبع رغباتهم ؟

إن هويات الأمم وخصوصياتها لابد أن تميزها عن هويات غيرهم الشعوب والأمم الأخرى ، تتميز بها في عقائدها ، في علاقاتها الاجتماعية وفي نظرتها للوجود ، وفي

قيمتها الأخلاقية التي تتجسد في سلوكها على مستوى الأفراد والجماعات ، وتشكل منظومة العلاقات الاجتماعية بين الأفراد ...

وهويتها الإسلامية لابد أن تظهر وتتجسد في المعالم والمظاهر العامة لثقافة الأمة لكنها أكثر ما تكون وضوحا في :-

أ . هويتنا العقائدية .

ب . هويتنا الأخلاقية .

ج . هويتنا الفلسفية .

وسوف أركز الحديث في القضايا الثلاث وتجليتها لأهميتها من جانب ، ونظرا لما أصابها من غش وتدليس باستعمال كثير من المصطلحات في غير مرادها من جانب آخر ، وبالإضافة إلى ذلك فإنها تبرز أهم خصوصيات الهوية الإسلامية في النظرة العامة إلى الإنسان والوجود والأخلاق .

هويتها الاعتقادية

التوحيد دين جميع الأنبياء :-

تأسست العقيدة الإسلامية على التوحيد الخالص لله تعالى ، والإيمان به ربا خالقا وإلها معبودا ، وجسدت عقيدة التوحيد جوهر الأديان السماوية الثلاثة ، اليهودية ، المسيحية ، والإسلام ، وهي قطب الرchy في الخطاب الإلهي لجميع الرسل والأنبياء ، كلمتهم على ذلك واحدة من أولهم إلى آخرهم ، ونداؤهم إليها واحدا :

﴿يَقُومُواْ عِبَادُواْ اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ (50)﴾ (1) خاطب بها كل نبي قومه وأشار إليها القرآن الكريم

باعتبارها العقيدة الجامعة لدين الأنبياء والمرسلين قال تعالى :

{ إن الدين عند الله الإسلام (19) } (2) وقال سبحانه : ﴿ومن يتبع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة

من الخاسرين﴾ (3) . كما تواصى بها جميع الأنبياء فيما بينهم ، ابتداء من أبي الأنبياء ابراهيم إلى

خاتمهم محمد – صلى الله عليهم جميعا وسلم – قال تعالى : ﴿ووصى بها إبراهيم بنيه يعقوب يا بني إن

الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون (132)﴾ (4) ، وتوارث هذه الوصية ذريته من بعده ،

فقال يعقوب لذريته : ﴿ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلها واحدا ونحن له

مسلمون (133)﴾ (5) ، ودعا بها موسى ربه فقال : ﴿ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين (126)﴾ (6) ، كما

دعا إليها عيسى قومه فقال لهم : (من أنصاري إلى الله) واستجاب الحواريون فقالوا لعيسى عليه

السلام ﴿نحن أنصار الله ءامنا بالله وأشهد بأننا مسلمون (52)﴾ (7) ، ومن قلبهم دعا بها نوح عليه السلام

فقال لقومه : (وأمرت أن أكون من المسلمين) (8)

(1) هود : 50 .

(2) آل عمران : 19 .

(3) آل عمران : 85 .

(4) البقرة : 132 .

(5) البقرة : 133 .

(6) الأعراف : 126 .

(7) آل عمران : 52 .

(8) يونس : 52

وكانت هذه العقيدة هي الدعوة الجامعة على لسان أبي الأنبياء إبراهيم لذريته من بعده فقال :

{ ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم (128) } (1) ،

فاستجاب له ربه وبعث في الذرية من يحمل لواء هذه الدعوة الخاتمة ، دعوة التوحيد ملة إبراهيم حنيفا وجاءت الرسالة الخاتمة تصديقا لدعوة الرسل السابقين إلى التوحيد الخالص لله ، وحملت شعار الأنبياء السابقين : ﴿ قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين (162) ﴾ (2) .

ومن ثم فقد استقرت عقيدة التوحيد على أنها دين جميع الأنبياء والمرسلين قال تعالى : ﴿

شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن يقيموا الدين

ولا تتفرقوا فيه (13) ﴾ (3) ، كان الاعتقاد فيها والإيمان بها هو الحد الفاصل بين الإيمان بدين

الأنبياء قاطبة والجنود بها قال تعالى : ﴿ ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ﴾ (4) ،

وأصبحت هذه العقيدة أساسا ومحورا لكل تشريع ضابط لحركة الإنسان اليومية في صباحه ومساءله ، في غدوه ورواحه وفي علاقاته المختلفة سواء في ذلك علاقته بالله والكون ، علاقته بنفسه ، وبالمجتمع وما فيه ، وجسد الرسول صلى الله عليه وسلم هذه الأسس الجامعة في قوله : " لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به " (5) .

ولقد بين القرآن الكريم الأصول الجامعة لهذه العقيدة والمسائل المتفرعة عنها ، كما أشار في آياته الكريمة إلى دلائل هذه المسائل وأقام البراهين على صحتها ، فجمع في آياته بين أصول الاعتقاد ، ومسائل الاعتقاد ، ودلائل هذه المسائل ، ولم يترك لأحد فيها مقالا بالزيادة عليها ، أو النقصان منها ، واجتمع عليها جيل الصحابة في عصر النبوة ، ومن بعدهم جيل التابعين

وتابعوا التابعين ، وتلقاها خلف الأمة جيلا بعد جيل عن سلفهم ، وينقلها السابق منهم إلى اللاحق ، بدون تحريف ولا تبديل ، فحملها من كل جيل عدوله حفظا لها وعملا بمقتضاها ،

-
- (1) البقرة : 128 .
 - (2) الأنعام : 162 .
 - (3) الشورى : 13 .
 - (4) البقرة : 13 .
 - (5) أخرجه البخاري في جزء رفع اليدين في الصلاة للبخاري حديث رقم 93 .

مؤمنين بحفظ الله لها في كتابه الكريم الذي تعهد الله بحفظه وبيانه ، قال تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا

الذكر وَإِنَّا لَهُ لَحَفَظُونَ ﴾ (9) (1) .

أصول العقيدة :-

وقد جمع القرآن الكريم أصول هذه العقيدة في قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قَبْلَ

الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمَوْفُونَ

بِعَهْدِهِمْ إِذْ عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (177) ﴾ (2)

، وفي آخر سورة البقرة يقول سبحانه : ﴿ ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ

وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ ﴾ (285) (3) .

وفي الحديث المتفق عليه أن جبريل أتى إلى الرسول صلى الله عليه وسلم في صورة دحية الكلبي ، فسأله : " ما الإسلام ؟ ، فقال : الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله ، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إلى ذلك سبيلا ،

فقال له : ما الإيمان ؟ ، فقال : الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ،
وان تؤمن بالقدر خيره وشره : حلوه ومره " (4) .

وأجمعت الأمة خلفا عن سلف على الإيمان بهذه الأصول ، واتفقت عليها كلمتهم وتلقاها
الأئمة بالقبول والإذعان فدعوا إليها ، وحرروا مسائلها وضبطوا أدلتها وبراهينها جامعين
فيها بين أدلة النقل الصحيح والعقل الصريح ، مهتدين بنور الوحي ونور العقل دون مظنة
للتعارض أو التضاد بين النورين ، معتقدين أن المؤمنين بهذه العقيدة هم أهل الولاية لله
ورسوله ، وان الإيمان بها اسم جامع لاعتقاد القلب ويقينه ، ونطق اللسان وإقراره ، وعمل
الجوارح وإذعانها ، وان يقين القلب بها هو الأساس لعمل الجوارح واشتغالها بالأوامر فعلا ،
والنواهي تركا وكرها ، ومؤمنين أن كمال الإيمان وتمامه ، لا يكون إلا بالجمع بين أعمال
القلب تيقنا وإيماننا ، وأعمال الجوارح خضوعا وإذعانا .

(1) الحجر : 9 .

(2) البقرة : 179 .

(3) البقرة : 285 .

(4) مسند الإمام أحمد 435/1 ح 367 .

وإن المعاصي لا تخرج المؤمن عن الملة صغيرة كانت أو كبيرة ، ما دام القلب بالله مؤمنا ،
وبالأوامر والنواهي مقرا ومتيقنا ، ولا كفران إلا بجحود ونكران لما هو معلوم من دين
الله بالضرورة .

وأهل القبلة هم أهل الملة ، يصلون وراء البر منهم والفاجر ، ووراء مستور الحال ، ولا يقطع
على واحد منهم بالجنة أو النار ، ف"من صلى صلاتنا ، واستقبل قبلتنا ، واكل ذبيحتنا ، فهو
مسلم له ذمة الله ورسوله " (1) .

وشفاعة الرسول حق لأهل الملة ، تنال أهل الكبائر ، فلا يحرمون من شفاعته صلى الله عليه
وسلم ، قال صلى الله عليه وسلم : " شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي " (2) .

وأصل الإيمان بالله تعالى يتضمن الإيمان بوجوده سبحانه ، والإيمان بوحديته وأنه واحد في
ذاته ، فلا ند له ، وواحد في أسمائه ، فلا مسمى له ، وواحد في صفاته ، فلا مثيل له ، وواحد

في أفعاله ، لا شريك له ، وجماع توحيده سبحانه ، أن يقر المؤمن بأفراده سبحانه بالعبادة والإخلاص في القصد في طاعته فيما أمر ونهى .

وأنه سبحانه أول بلا ابتداء ، وآخر بلا انتهاء ، وأدلة وجوده سبحانه فاقت الحصر فلا يحيط بها عد فقد فطر القلوب على معرفته ، وجبلها على محبته والإيمان به ، وجاء الوحي فزاد الفطرة نورا وهداية ، ونبهها إلى ما هو مغروز فيها وأصيل في بنيتها ، قال صلى الله عليه وسلم : " كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه " (3) ، ثم نبه الوحي العقول إلى دلائل وجوده سبحانه ، ودلائل وحدانيته بما ابهر العقول ، وحير الألباب من الآيات الماثلة في الأفق والأنفس ، في كتاب الكون المنظور ، وخاطبهم بلغة البرهان ودلائل اليقين : { أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون } (4) ، ﴿ هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه ﴾ (5) .

كما نبه القرآن الكريم إلى الإيمان بصفات الله العليا ، وأسمائه الحسنى ، كما ورد بها الذكر الحكيم من غير تحريف ولا تبديل ، سواء في ذلك ، صفات الذات ، كالسمع ، والبصر ، والعلم ، والإرادة ، والحياة ، أم صفات الأفعال ، كالخلق ، والرزق ، والأحياء ، والأمانة ، أم الصفات الخبرية ، كالمجيء ، والإتيان والاستواء .

- (1) صحيح البخاري 83/1 حديث رقم 381 .
- (2) مسند الإمام أحمد 439/20 حديث رقم 13222 .
- (3) مسند الإمام أحمد 104/12 حديث رقم 7181 .
- (4) الطور : 35 .
- (5) لقمان : 11 .

وأنه تعالى : ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾ (11) ﴿ (1) فاثبت لنفسه أصل الصفات ونفي

المماثلة مع خلقه ، فيؤمن المسلم بجميع ما وصف نفسه به في كتابه ، وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم دون تساؤل عن كيف فيثبتونها على ما يليق به سبحانه من الكمال والجلال دون تمثيل ، ولا تعطيل ، ولا تحريف ، وكما أن 1اته ليس كمثله شيء ، فإن صفاته سبحانه ليس كمثله شيء ، وأن القول في صفاته وأسمائه كالقول في ذاته سبحانه ،

يحتذي فيها حذوه ، فما أثبتته القرآن أثبتوه ، وما نفاه القرآن نفوه دون سؤال عن الكيفية ، فلا يحيط بها ، وهو مجمعون على الإثبات بلا تمثيل والتنزيه بلا تعطيل .

الإيمان بالغيب :-

واجمعوا على الإيمان بكل ما اخبر به القرآن ، وجاءت به السنة الصحيحة من أمور الغيب .

ومنها الإيمان بالملائكة وأنهم عباد الله مكرمون مفطورون على طاعته : ﴿ لا يعصون الله ما

أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾ (6) ﴿ (2) ، وأنهم مخلوقون من نور ، وهم مكلفون بما أمرهم الله به من

أعمال ، فمنهم حملة العرش : ﴿ والملك على أرجاءها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية ﴾ (17) ﴿ (3) ،

ومنهم حملة الوحي كجبريل : ﴿ نزل به الروح الأمين ﴾ (193) على قلبك لتكون من المنذرين ﴿ (4) ، ومنهم ملك

الموت ، ومنهم خازن الجنان ، ومنهم الحفظة ، والكرام الكاتبين .

ومن الإيمان بالغيب ، الإيمان بعالم الجن ، وأنهم مكلفون ، فمنهم المسلم والكافر ، قال تعالى

: ﴿ قل أوحى إلى أنه أستمع نقر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرءانا عجبا ﴾ (1) يهدي إلى الرشد فنأمن به ولن نشرك بربنا

أحدا ﴾ (2) ﴿ (5) ﴿ وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا ﴾ (14) ﴿ (6) .

(1) الشورى : 11 .

(2) التحريم : 6 .

(3) الحاقة : 17 .

(4) الشعراء : 193-194 .

(5) الجن : 1-2 .

(6) الجن : 14 .

ومن الإيمان بالغيب ، الإيمان باليوم الآخر ، وبالبرزخ ، وعذاب القبر ، وأن القبر أما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار ، قال تعالى : ﴿ النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب (46) ﴾ (1) .

وأن القبر أول منازل الآخرة ، وللساعة أشراتها وعلامتها ، منها الاشرط الكبرى ، كخروج الدابة ، ونزول المسيح عيسى ابن مريم يدعو إلى الإسلام ، وقبله نزول المسيح الدجال ، ومنها العلامات الصغرى ، كبعثة محمد صلى الله عليه وسلم وتطاول رعاة الإبل في البنيان . ومن مسائل اليوم الآخر الإيمان بالبعث والحساب ، والجنة والنار ، والصراط والميزان ، والحوض ، لورود النصوص الصحيحة الصريحة بذلك .

الإيمان بالقدر :-

والإيمان بالقضاء والقدر ، الذي هو سر من أسرار الله في خلقه ، حجب علمه عن النبي المرسل والملك المقرب ، فلا يعلمه إلا هو ، والإيمان به أصل في الإقرار لله بربوبيته على خلقه قضاء وقدرًا وتدبيرًا ، وإرادة وحكمة ومشئئة ، فلنؤمن بالعلم الشامل ما كان وما يكون وما هو كائن ، وأن كل ذلك مكتوب ومقدر في اللوح المحفوظ وفقا لعلمه السابق بذلك ، وأن مشيئته نافذة في خلقه إلى يوم القيامة ، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، فيهدي المؤمنين به تفضلا منه ورحمة ، ويضل من عصاه عدلا منه وحكمة ، فلا راد لقضائه ، ولا معقب لحكمه ، ولا غالب لأمره ، وإن للعباد مشيئة : ﴿ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر (29) ﴾ (2) ، ﴿

وما تشاءون إلا أن يشاء الله (30) ﴾ (3) ، وما أصاب العبد لم يكن ليخطئه ، وما أخطاه لم يكن

ليصيبه ، وما قضى الله به كونا فهو كائن لا محالة ، ولا يجوز لأخذ الاحتجاج بالقدر على معصية ارتكبتها أو سيئة نالها ، لأن تلك الحجة داحضة غير نافعة لأصحابها .

وقد جمع الإمام أبو الحسن الأشعري وغيره ، هذه الأصول في رسالته إلى أهل الثغر لما سألوه أن يبين لهم أصول الإيمان التي أجمع عليها أهل السنة والجماعة ، ولا خلاف بين الأئمة حولها ، فذكرها صلى الله عليه وسلم مسألة مسألة فذكر في مقام الإلهيات ما اجمع

عليه سلف الأمة من الإيمان بوجود الله ، ووحدانيته ، وأسمائه وصفاته ، فذكر صفات الذات ، والصفات الخبرية،

(1) غافر : 46 .

(2) الكهف : 29 .

(3) الإنسان : 30 .

وقال أن صفاته سبحانه كلها على الحقيقة ، ولا شيء منها على المجاز ، لأن المجاز نوع من الكذب ، وأن وصفه بها من غير تكليف ، وإن الإيمان به واجب وترك التكليف لازم (2) ، وإن أمره وقوله غير محدث ولا مخلوق ، وهو سبحانه وتعالى يرضى عن الطائعين ويحبهم ، ويغضب عن العصاة ويسخطهم ، وأنه فوق سماواته على عرشه : ﴿إليه يصعد الكلم

الطيب والعمل الصالح يرفعه (10)﴾ ، و أسواؤه على عرشه ليس استيلاء لأنه سبحانه لم يزل

مستوليا على كل شيء ، وأن المؤمنين يرونه يوم القيامة على ما أخبر سبحانه : ﴿وجوه يومئذ

ناضرة (22) إلى ربها ناظرة (23)﴾ 2 ، و إنه يضل من يشاء ويهدي من يشاء فلا يسأل عما يفعل

لأنه سبحانه فعال لما يريد ، وإنه عادل في جميع أفعاله وأحكامه ساءنا ذلك أم سرنا ، نفعا ذلك أم ضرنا ، وأنه قدر جميع أفعال خلقه وآجالهم وأرزاقهم قبل خلقه لهم ، وأثبت ذلك في اللوح المحفوظ ، كما قال سبحانه ، ﴿وكل شيء فعلوه في الزبر (52)﴾ 3 وأنه سبحانه كلف عباده

فعل الطاعات ونهاهم عن فعل المعاصي بعد أن أقدرهم على ذلك بسلامة الأدوات وصحة الأبدان ، لأنه سبحانه عدل ، فلا يكلف نفسا إلا وسعها وأنه سبحانه تفضل على من يشاء فحبب إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم ، وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان تفضلا منه ونعمة ، وأنه لم يضل إلا الضالين والفاسقين والظالمين والكافرين ، فهدى من اهتدى ، وضل من أضل نفسه بسلوكه سبل الضلالة والغواية ، وليس لأحد أن يعترض على الله في شيء من تدبيره ، ولا إنكار شيء من أفعاله لأنه سبحانه حكيم ، قبل أن يفعل سائر الأفعال ، وأن جميع أفعاله لا تخرج عن الحكمة ، وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب على الأمة

بأيديهم وألسنتهم ، إن استطاعوا ذلك ، وإلا فبقلوبهم ، وأنه لا يجب ذلك عليهم بالسيف ، ولا بالقتال ، إلا في النصوص والقطاع بعد مناشدتهم .

الإيمان بجميع الأنبياء و كتبهم : -

كما أجمعوا على وجوب الإيمان بكتب الله المنزلة على رسله ، كصحف إبراهيم ، والثورة ، والإنجيل ، وزبور داوود ، والقرآن الكريم ، وأن إنكار الواحد منها كالإنكار لجميعها ، وأن كلها كلام الله منه بدأ وإليه يعود ، وأن ما نالته يد التحريف ليس مما نزل به وحيه على رسله وما صح منها يصدق بعضه بعضا ، وأن القرآن آخرها جاء مصدقا لما بين يديه من الكتب

1 فاطر : 10 . 2- القيامة : 22 – 23 . 3- القمر : 52 .

السابقة كما قال سبحانه : ﴿ إن هذا لفي الصحف الأولى (18) صحف إبراهيم وموسى (19) ﴾ 1

وكذلك يجب الإيمان بجميع النبيين والمرسلين ، وما ورد ذكره إجمالا ، فلا نفرق بين أحد من رسله ، وتكذيب الواحد منهم كالتكذيب لجميعهم ، وهم أفضل الخلق وأكرمهم على الله ، ومنهم أولوا العزم الذين ورد ذكرهم تفصيلا في القرآن الكريم ، ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على

المشركين ما ندعوههم الله يجتى إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب (13) ﴾ (2)،

وقد أيد الله جميعهم بالمعجزات الدالة على صدقهم ، في دعوتهم إلى الله برسالاته ووحيه ، وأنهم معصومون من الدنيا والخطايا كبيرها وصغيرها بعد بعثتهم ، وذلك بحفظ الله لهم وعصمتهم من القبائح ، وهم موصوفون بأحسن الأوصاف وأفضلها ، من الصدق والفتانة ، والتبليغ ، وشأن الدعوة والرسالة ، وهم كبقية البشر يمرضون ويصحون ويجري عليهم ما يجري على غيرهم ، من الفقر ، والمرض ، والأكل ، والشرب ، والنوم ، والزواج ، والإنجاب ، والحياة ، والموت ، قال تعالى : ﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي (110) ﴾ (3) ، وهم في

الأفضلية على ترتيب القرآن لهم ، قال تعالى : ﴿ تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض (253) ﴾

(4) ، أفضلهم أولو العزم ، وأولو العزم منهم خمسة أشارت إليهم الآية .

(شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذين أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وعيسى وموسى أن أقيم الدين ولا تتفرقوا فيه) وأفضل أولو العزم محمد صلى الله عليه وسلم وهم جميعاً إخوة علاة دينهم واحد وهو التوحيد والإسلام وأمهاتهم شتى ، وخص الله كل رسول بمعجزة تأييداً له وتصديقاً له في دعوته ، فكانت معجزة إبراهيم في عدم إحراق النار له ، ومعجزة موسى تعددت مظاهرها من العصا واليد ، ومعجزة عيسى إبراء الأكمه ، والأبرص ، وإحياء الموتى

(1) الأعلى : 18-19 .

(2) الشورى : 13 .

(3) الكهف : 110 .

(4) البقرة : 253 .

وكلها كانت معجزات حسية ، ومؤقتة انقضت أثرها بانقضاء زمانها أم خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم فقد أيدته الله بما سبق لإخوانه من الأنبياء بمعجزات حسية ، كتسبيح

الحصى ، وتكثير الطعام ، والإسراء والمعراج ، ثم أيده بمعجزة معنوية ، خالدة خلود الأبد ، وهو القرآن الكريم ، فوجب الإيمان بها جملة وتفصيلا .

واجمعوا على أن خير القرون ، قرن الصحابة ثم الذين يلونهم ، وخير الصحابة أهل بدر ، وخير بدر العشرة المبشرون بالجنة ، وخير العشرة الخلفاء الراشدون الأربعة ، وأن ترتيبهم في الفضل حسب ترتيبهم في الخلافة ، أبو بكر ، فعمر ، فعثمان ، فعلي ، وإن إمامتهم كانت عن رضي عنهم جميعا ، وأن جيل الصحابة ، خير من جيل التابعين ، واجمعوا على الكف عما شجر بين الصحابة ، فلا يذكرون الصحابة إلا بخير ، وإنه ما حق أن تنتشر محاسنهم ، وتتلصص لهم أحسن المعاذير وأفضل المخرجات لأفعالهم ، وأن نظن بهم الظن الحسن لقوله صلى الله عليه وسلم : "إذا ذكر أصحابي فامسكوا " (1) .

وقوله : " ولا تؤذوني في أصحابي هو الذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه " (2) ما وقع بينهم من خلافات دنيوية لا يسقط حقهم في الفضل والخير .

واجمعوا على وجوب النصيحة للمسلمين ، وأئمتهم والدعاء لهم ، والتبري من ذم أحد من أصحاب رسول الله وأهل بيته . يقول أبو الحسن الأشعري : " فهذه الأصول التي مضى الأسلاف عليها ، واتبعوا حكم الكتاب والسنة بها ، واقتدى بهم الخلف الصالح في مناقبها ، نفعا الله إياكم بأجره ، والحمد لله وحده ، وهو حسبي ونعم الوكيل " (3) .

وهذه المسائل التي ذكرها الأشعري تمثل ثوابت العقيدة الإسلامية التي اجمع على الإيمان بها سلف الأمة ، وهذه الأصول الإيمانية لا مجال فيها للقول بالرأي والاجتهاد ، وقد حفظ القرآن الكريم لنا هذه الأصول ، وتلقاها الأجيال بالقبول جيلا بعد جيل ، واستقرت عليها كلمة المسلمين ، ولا يجوز لأحد أن يتقدم بين يدي الله ورسوله ، بالقول فيها بالزيادة عليها أو النقص منها ، بل كلهم مجمعون على الإيمان بها ، فجزاهم الله عن الإسلام والمسلمين خير

-
- (1) رواه مسلم 188/7 باب تحريم سب الصحابة .
(2) رواه البخاري بلفظ مختلف 8/5 كتاب أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم .
(3) راجع الرسالة ، ص 990 .

الجزاء ، كما اجتهدوا - رضي الله عنهم - في بيان أن القرآن الكريم قد جمع في حديثه عن هذه الأصول الإيمانية بين أمرين منهجين :-

الأمر الأول : ذكر هذه المسائل وبيانها للأمة .

الأمر الثاني : دلائل هذه المسائل وبراهينها ، فلم يذكر القرآن مسألة من مسائل العقيدة إلا ذكر معها برهانها العقلي الذي تضمنه دليلها النقلي ، و الأمثلة على ذلك كثيرة في القرآن الكريم ، كأدلة القرآن على وجود الله ووحدانيته ، ودلائل البعث والحساب ، فإن القرآن الكريم يقدم الآية كدليل نقلي معصوم ، وفي نفس الآية نجدها تتضمن البرهان العقلي المعلوم وذلك كاستدلال القرآن على التوحيد بضرب الأمثلة البرهانية التي هي في صميمها قياس منطقي ضمني ، وكاستدلال القرآن على وجود الله بالإستفهام الإنكاري المتضمن للإقرار الضروري بوجود الخالق ، قال تعالى : (أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون) ، وكاستدلال القرآن على البعث بالنشأة الأولى فإن ذلك قياس عقلي برهاني يسمى قياس الأولى وهكذا نجد القرآن الكريم حين يذكر مسائل العقيدة يذكر معها دلائلها نقلا وعقلا .

خصائص العقيدة الإسلامية :

تتميز العقيدة الإسلامية بخصائص باينت بها جميع العقائد الأخرى ، وضعية كانت أو سماوية طالتها يد التحريف والتبديل :-

أ. عقيدة ربانية :-

من أهم خصائص العقيدة أنها عقيدة ربانية ، تكفل الحق سبحانه وتعالى بحفظها من التبديل والتحريف ؛ بالزيادة عليها أو النقصان منها ، ذلك أن مصدرها هو الوحي من

كتاب الله ، وسنة رسوله ، وقد حفظ الله كتابه الكريم من أن تتأله يد التحريف والتبديل كما وقع في الكتب الأخرى قال تعالى : ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ (9) ﴿1﴾ ، قد توارثت بها النصوص ، وتناقلتها الأجيال محفوظة في الصدور ، ومسطورة في الكتب تحوطها عناية المشتغلين بها ، يحملها من كل جيل عدو له ، يحدوهم في ذلك قوله تعالى : ﴿ومآءاتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾ (7) 2

1 الحجر : 9

2 الحشر : 7

وقوله : ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾ (31) ﴿1﴾ . والرسول صلى الله عليه وسلم قد بين لهم هذه الأصول الإيمانية ؛ أفضل بيان وأقومه ، قبل أن يموت صلى الله عليه وسلم نزل قوله تعالى : ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾ (3) ﴿2﴾ ، فما زادوا ، ولا بدلوا ، ولا حرفوا ، وقال صلى الله عليه وسلم : "لقد تركتكم على مثل البيضاء ، ليلها كنهارها ، لا يزيغ بعدي عنها إلا هالك" 3 فاعتصموا رضي الله عنهم بما جاءهم به نبيهم عن ربهم سبحانه وتعالى عن ذاته وصفاته ، وعن القدر وأحواله ، وعن اليوم الآخر وما جاء عنه ، ولم يترك الرسول صلى الله عليه وسلم لأحد في ذلك مقالا ؛ يتقدم به بين يديه الله ورسوله ، وكل من قال في ذلك بغير ما جاء به الوحي المعصوم ، فقد قال عن الله وفي الله وعلى الله ما لم ينزل به عليهم سلطان وقال على الله بغير علم ، وكل ما تنازع فيه الناس في ذلك يجب رده إلى الله ورسوله ، فجاءت هذه العقيدة بأصولها وفروعها نصا من كتاب الله وما صح من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فتمسكت بها الأجيال وتناقلتها العلماء ، محفوظة في صدورهم بحفظ الله لها ، أو مسطورة في مؤلفاتهم أمنا وأمانا لها من التبديل أو التحريف ، فهي ربانية المصدر ، قرآنية الأصل ، مأخوذة من مشكاة أنوار النبوة المعصومة ونسأل الله أن نموت عليها ، وأن نبعث عليها ، وأن تكون حجة لنا لا علينا .

ب - أنها عقيدة فطرية : -

قريبة من القلب ، سهلة المأخذ ، بسيطة في تناول قضاياها ، بعيدة عن تعقيدات الفلاسفة وجدل المتكلمين ، وخالية من أسرار الكهنوت وشعوذتهم وخرافاتهم ، ينفث لها القلب إيمانا

وتقبلا لها وانتناسا بها ، فلا يحس معها المؤمن بغربة ، لأن أصل هذه العقيدة أمر فطري مغروز في كل بني آدم مؤمنا كان أو كافرا ، قال تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتِ اللَّهِ الَّتِي

فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله (30) ﴾ 4 ، وأشار إلى ذلك صلى الله عليه وسلم في الحديث

الصحيح الذي رواه البخاري ومسلم : "كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه" 5 ، فعقيدة التوحيد ليست غريبة على فطرة الإنسان لأنه ولد عليها ، وتجدر في فطرته والرسول – صلوات الله عليهم- جاءوا ليذكروا بني آدم بهذه الفطر

(1) آل عمران : 31

(2) المائدة : 3

(3) السنة لابن أبي عاصم 26/1 حديث 48.

(4) الروم : 30 .

(5) رواه البخاري (319) ومسلم (2658) .

ومن مظاهر قربها إلى الفطرة ، ما تتميز به هذه العقيدة من عوامل التيسير ، ورفع الحرج ، ودفع المشقة عن الإنسان ، مراعاة لظروف أحواله . قال تعالى : ﴿ وما جعل

عليكم في الدين من حرج (68) ﴾ 1 ، وقال سبحانه : ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم

العسر (185) ﴾ 2 . وقال صلى الله عليه وسلم لمعاذ حين بعثه إلى اليمن : "يسروا ولا

تعسروا ، بشروا ولا تنفروا ، أن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه" 3 .

وهذا الأمر قد فصل القول فيه علماء الأصول والفقهاء ، مما يدل على مراعاة هذه العقيدة ظروف الإنسان وأحواله بما جبلت عليه من الإيمان بالله ربا خالقا وإلها معبودا فلم تكن دعوة الرسل غريبة على هذه الفطرة ولا معارضة لها . وجاء في الحديث القدسي : "واني خلقت عبادي حنفاء كلهم وأنهم وأتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم" 4 أي : حنفاء على ملة الإسلام وعقيدة التوحيد ، وقد ربط كثير من العلماء

قضية الفطرة بالآية الكريمة : ﴿ وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيمة إنا كنا عن هذا غافلين ﴾ (172) 5 .

فقد أقر كل بني آدم بالله بالربوبية في مرحلة وجودية سابقة ؛ تسمى مرحلة (الذر) سابقة على الوجود العيني الحسي للإنسان ، وكان هذا الإقرار السابق بمثابة الجذور والأساس للفطرة الإنسانية العارفة بربها المقررة له بالتوحيد ، ولذلك لم تجد هذه الفطرة غرابة في دعوة الرسل لها بالدعوة إلى الله والإيمان به ، وأن ما طرأ على الفطرة من عوامل فساد البيئة من الشكوك والشبهات فإنه قابل للإزالة والشفاء منه . يتقبل دعوة الرسول ، ومن هنا كان القرآن الكريم شفاء لما في الصدور ، قال تعالى : ﴿ يا أيها الناس قد جاءكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين ﴾ (57) 6 .

وكانت دعوة الرسل تذكيرا والقرآن نفسه قد سماء الله تذكرة وذكرى ، قال تعالى : ﴿ كلا إنها تذكرة (11) فمن شاء ذكره ﴾ (12) 7 وقال سبحانه : ﴿ إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾ (37) 8 ، والقرآن الكريم سمي وظيفته الرسول بالبلاغ والتذكير .

- (1) الحج : 78
- (2) البقرة : 185
- (3) رواه البخاري (39)
- (4) مسند أبي داود الطيالسي 404/2 حديث رقم 1175
- (5) الأعراف : 172 .
- (6) يونس : 57 .
- (7) عبس : 12 - 11 .
- (8) ق 37 .

قال سبحانه وتعالى : ﴿ فذكر إنما أنت مذكر ﴾ (21) لست عليهم بمسيطر ﴾ (22) 1 ، فالفطرة في الإنسان أساس البناء المعرفي بالله في الإنسان ، والوحي مذكر بما في هذه الفطرة من معرفة سابقة .

ج - أنها عقيدة وسطية :-

فهي وسط بين عقيدة التجسيم ، وعقيدة التعطيل ، وكانت الأمة الإسلامية وسطا بين الأمم بعقيدتها قال تعالى : ﴿ وكذلك جعلكم أمة وسطا لتكونوا

شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا ﴾ (143) 2 ، فهي وسط في مسائل الأصول ومسائل الفروع فلا إفراط فيها ولا تفريط ، ولذلك كان الإسلام وسطا بين الملل الأخرى ، سواء أهل كتاب منزل أم كانوا أهل فلسفات وضعية .

فعقيدتنا وسطية بين اليهود الذين شبهوا الله بالإنسان ، فوصفوا الله بالفقر فقالوا : ﴿إن الله فقير ونحن الأغنياء﴾ (181) 3 ووصفوا بالبخل فقالوا : (يد الله مغلولة) 4 والنصارى الذين شبهوا المخلوق بالخالق فجعلوا لله إبنًا وجعلوا إلها ، أو جزء من إله ، أو ثالث ثلاثة : ﴿وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله﴾ (30) 5 .

وعقيدتنا وسط في النبوة والإيمان بالأنبياء ، فإن اليهود فرطوا في حق الأنبياء ، فإن اليهود فرطوا في حق الأنبياء : ﴿كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فرىقا كذبوا و فرىقا يقتلون﴾ (70) 6 . ووصفوا رسل الله بالزنا والكذب والخديعة .

أما النصارى فغلوا في المسيح وجعلوه إلها ، يعبد من دون الله : ﴿اتخذوا أخبارهم ومرهبهم أمربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو سبحانه﴾ (31) 7 .

- (1) الغاشية : 22-21 .
- (2) البقرة : 143 .
- (3) آل عمران : 181 .
- (4) المائدة : 64 .
- (5) التوبة : 30 .
- (6) المائدة : 70 .
- (7) التوبة : 31 .

أما المسلمون فآمنوا بهم جميعا ؛ على أنهم بشر و رسل اصطفاهم الله لتبليغ رسالته : ﴿لا تفرق بين أحد منهم﴾ (136) 1 .

وعقيدتنا وسط في فروع الشريعة ، في مسائل الحلال والحرام ، فاليهود قد حرم الله عليهم بعض الحلال بسبب كفرهم وصددهم عن سبيل الله ؛ قال تعالى : (فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات حرمت عليهم و بصددهم عن سبيل الله عليهم ؛ قال تعالى : ﴿ولا حل لكم بعض الذي حرم

عليكم﴾ (4) 2 .

أما المسلمون فقد أحل لهم كل الطيبات وحرك عليهم كل الخبائث ، قال تعالى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون (173) ﴾ 3 ،

وقال تعالى : ﴿ قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده (32) ﴾ 4 ، ولذلك كانت العقيدة

الإسلامية وسطا بين المغالي فيها والجافي عنها ، فالمغالي فيها منبوذ والجافي لها منبوذ والوسطى فيها ممدوح ومأجور .
د. أنها عقيدة برهانية :-

تأسست هذا البرهان الصادق المؤسس لليقين الحازم ، فلا مجال فيها لتقليد الرأي ، أو المذهب ، أو الشيخ ، ولا مجال فيها للكهنوت والخرافة والشعوذة ، فالعقل في عقيدتنا نور من نور الله في الإنسان ، كما أن الوحي نور من نور الله للإنسان والنور لا يضاد النور ولا ينفيه ، ولا يعارضه بل يقويه ويرفده ويؤديه ، ولذلك كانت العقيدة الإسلامية مؤسسة على الجمع بين نور العقل ونور الوحي ، والقرآن الكريم قد جعل في الإنسان أساسا للتكليف الشرعي ، فلا يكلف المجنون ، ولا النائم ، لا الصبي قبل البلوغ . وإذا ذهب العقل من الإنسان سقط عنه التكليف بالشريعة أمرا ونهيا وغنى عن التفصيل هذا حديث القرآن عن العقل وأهميته ووظيفته في الخطاب القرآني 5 .

ومن المفيد هنا ، أن نشير إلى القرآن الكريم ، قد كلف العقل بالنظر والتأمل والتفكر في عالم الشهادة . وجعل ذلك لعالم من سمائه إلى أرضه مجالا لعمل العقل ، وطلب منه الإيمان به ، والبحث فيه وصولا إلى اكتشاف قوانينه ،

(1) البقرة : 136 .

(2) آل عمران : 50 .

(3) البقرة : 172 .

(4) الأعراف : 32 .

(5) راجع كتاب الوحي والإنسان العدد السادس من سلسلة تصحيح المفاهيم .

المؤمنين به أن كل قضية عقدية أمر بها القرآن ، ساق بين يديها براهين صدقها ودلائل يقينها ، علم ذلك من علمه ، وجهل ذلك من جهله ، حتى مسائل البعث والحساب ، وكان من أظهر دلائل القرآن على ذلك ، هو الاستدلال بالنشأة الأولى على النشأة الثانية ، ول كان تراجع آخر سورة يس والآيات التي ختمت بها هذه السورة الكريمة ، لتقف على دلائل قدرة الله على البعث واليوم الآخر ، قال تعالى : ﴿ وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحيى

العظام وهي رميم (78) قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم (79) الذي

جعل لكم من الشجر الأخضر ناعرا فإذا أنتم منه توقدون (80) أوليس الذي خلق

السموات والأرض بقدر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخالق العليم (81) إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون (82) فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون (83) ﴿ 1 .

فآيات قدمت أكثر من برهان يقيني على إمكان البعث ، والحساب والجنة والنار ، وورد مثل ذلك في القرآن كثير .

واهتم القرآن الكريم بالأدلة العقلية ، التي برهن بها على العقيدة ومسائلها بأكثر من صورة ، أحيانا في صورة ضرب الأمثال ، التي هي في جوهرها قياس عقلي ضماني ، وأحيانا في صورة المقدمات التي يلزم عنها نتائجها بالضرورة ، وأحيانا في صورة الاستفهام الإنكاري ، وهذا التنوع في الاستدلال يتناسب مع تنوع الطبائع البشرية ، فكل عقل مورده ، المناسب له ، وبلغ من اهتمام بإقامة البرهان وصحة العقيدة أن إيمان المقلد منهي عنه ، وللعلماء فيه كلام طويل شرحه ، وتقليد الآباء والعلماء والأئمة حتى في مسائل الأصول منهي عنه ، ومن ظن أن المسلمين يتبنون مسائل العقيدة تبعا لإمام معين أو تقليدا لصاحب مذهب ، فذلك ظن الجاهلين .

والإمام أحمد بن حنبل وهو إمام في السلف قد نهى عن ذلك ، وقال حكمته المشهورة : لا يقلد دينك الرجال فإنهم لن يسلموا أن يغلطوا ، لا تقلدني ، ولا مالكا ، ولا الثوري ، ولا الشافعي ، وكل الأئمة الكبار قد نهوا عن التقليد في أصول الدين ولا يقبلون كلام العالم إلا مقرونا بحجته وبرهانه ، وجميع سلف الأمة يؤمنون بالبرهان ويجعلونه أساسا في بناء العقيدة ، ودليلا على مسائلها ، ويحاربها التقليد ويذمونه ، ويجمعون في مواقفهم بين نور العقل الصريح ، ونور النص الصحيح دون مظنة للتعارض أو التناقض .

(1) يس : 83-78 .

هـ . الشمولية :-

من أهم خصائص هذه العقيدة أنها شاملة جامعة لأمر الدين والدنيا ، فالدنيا فيها مزرعة للآخرة ، وسلوك الإنسان في الدنيا مقدمة ضرورية لحسابه أمام الله في الآخرة ، وجزائه فيها ثوابا وعقابا ، قال تعالى : (وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا) ، فهي عقيدة جامعة بين المادة والروح ، شاملة لكل عمل يقوم به الإنسان في هذه الحياة الدنيا إذا اقترن عمله بنية التقرب إلى الله ، فالإنسان إذا تكلم أو سكت ، إذا أحب أو كره ، إذا قبل أو رفض إذا تحرك أو سكن ، فإن ذلك كله مشمول بهذه العقيدة قال صلى الله عليه وسلم : لا يؤمن

أحدكم حتى يكون هواء تبعاً لما جئت به ، وعلاقة الإنسان بالإنسان وبالمجتمع وبالحاكم وعلاقته بالكون وما فيه ، يجب أن تكون مشمولة بهذه العقيدة ، ولذلك فقد ربط الإسلام سلوك الفرد وعلاقاته المتنوعة بالعقيدة الصحيحة ، كما يربطها بالإيمان زيادة ونقصاناً ، أو وجوداً وعدماً ، وقد جاءت الأحاديث الكثيرة لتؤكد شمول العقيدة لكل هذه العلاقات قال صلى الله عليه وسلم :-

- (1) " لا يؤمن أحدكم حتى يحب نفسه " 1 .
- (2) " لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده ، وولده ، والناس أجمعين " 2 .
- (3) " ما يؤمن من بات شعبان وجاره طأو إلى جنبه " 3 .
- (4) " من غشنا فليس منا " 4 .
- (5) " تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم " 5 .
- (6) " من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم " 6 .
- (7) " عدلت شهادة الزور بالشرك بالله " 7 .
- (8) " قيل للنبي صلى الله عليه وسلم أيكون المؤمن كذاباً ؟ فقال " لا " 8 .

-
- (1) مسند الإمام أحمد 389/21 حديث رقم 13963 .
 - (2) مسند الإمام أحمد 202/20 حديث رقم 12814 .
 - (3) مصنف ابن أبي شيبة حديث رقم 12814 .
 - (4) سنن ابن ماجه 749/2 حديث رقم 29768 .
 - (5) المعجم الأوسط 94/3 حديث رقم 2225 .
 - (6) المعجم الأوسط 270/7 حديث رقم 7473 .
 - (7) سنن ابن ماجه 2/794 حديث رقم 2372 .
 - (8) موطأ الإمام مالك 169/2 حديث رقم 2088 .

كما جسد القرآن الكريم شمولية هذه العقيدة ؛ لكل سلوك إنساني في شكل الأوامر و النواهي التي جاءت بها الشريعة الإسلامية ، قال تعالى : -

- 1 . (وعلى الله قصد السبيل و منها جابر و لو شاء لهدكم أجمعين (9) 1
- 2 . (إن الله يأمركم أن تؤدوا الامانات إلي أهلها و إذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعما يعظكم به إن الله كان سميعا بصيرا (58) 2 .
- 3 . (ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا وتعاونوا على البر و التقوى (2) 3
- 4 . (يأيها الذين ءامنوا لا يسخر قوم من قوم (18) 4
- 5 . (ويل لكل همزه لمزه (1) 5
- 6 . (ويل للمطففين 1 الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون (2) 6
- 7 . (إن الله يأمر بالعدل و الإحسان و إيتاي ذي القربي و ينهى عن الفحشاء و المنكر و البغى (90) 7 .
- 8 . (قول معروف و مغفرة خير من صدقة يتبعها أذى و الله غنى حلیم (263) 8

و على سبيل الإجمال ، فإن العقيدة الإسلامية شاملة لكل سلوك أخلاقي سلبا أو إيجابيا ، و كانت القيم ؟الأخلاقية في مجالها العلمي السلوكي تطبيقا واقعيا للإيمان بهذه العقيدة ، و اثرا من أثارها ، و لذلك كانت الأخلاق في الإسلام مظهرا لكمال الدين ،

وبخاصة كما قال صل الله عليه و سلم : " إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق " 1 ،
و قال : " ليس الإيمان بالتمني و لكن ما وقر في القلب و صدقة العمل "
و أحيل القارئ الكريم ؛ إلي الرابط القراني بين هذه العقيدة و شمولها لكل ما
أمر الله به و نهى عنه ، قال تعالى : (قل تعالوا اتل ما حرم ربكم عليكم ألا
تشرکوا به شيئاً و بالوالدين إحسنا و لا تقتلوا اولدکممن إملق نحن نرزقکم و
إياهم و لا تقربوا الفواحش ما ظهر منها و ما بطن و لا تقتلوا النفس التي حرم
الله إلا بالحق ذلكم وصاکم به لعلکم تعقلون 151 و لا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي
هي أحسن حتى يبلغ أشده و اوفوا الكيل و الميزان بالقسط لا نكلف نفسا إلا
وسعها و إذا قلتم فاعدلوا و لو كان ذا قربي و بعهد الله اوفوا ذلكم و صاکم به
لعلکم تذكرون 152 و ان صرطى مستقيما فاتبعوه و لا تتبعوا السبل فتفرق بکم
عن سبيله الکم و صاکم به لعلکم تتقون 153) 3
و تكرر هذا في القرآن الكريم كثيرا حيث تجد الأوامر و النواهي الأخلاقية تلبس
ثوب العقيدة الدينية لتكسب بها قداستها في الاعتقاد بها و وجوب تنفيذها
باعتبارها مظهر الكمال الإيمان و صحيح الاعتقاد .
و .كرامة الإنسان في حرية الاعتقاد :-
احتل الإنسان في العقيدة الإسلامية مكانة و مكانا لا نظير لهما في أي عقيدة
أخرى ، فلقد كرمه الله و جعله خليفة له في الارض ، و انتمئه على هذا الكون
ليعمره بمنهج الله ، جاء ذلك في القرآن الكريم في صيغة القرار الإلهي الملزم
لكل مؤمن بالله و رسوله قال تعالى : (ولقد كرمنا بني ادم و حملنهم في البر و
البحر 70)

الخاتمة

وهنا نضع القلم بعد ما قدمنا ما أعاننا الله عليه من عمل، وما وفقنا إليه من بحث مستعنيين بالله في إخراجه إلى الناس جميعا في صورة صادقة، مؤيدة بأقدم البراهين، وفي سبيل الله ما أنفقنا من وقت وجهد وعناء وسفر في قراءة مئات المصادر التي رجعنا إليها، وما بذلنا من جهد في تناول ما يصح لكتابتنا منها، ولمرضاته تعالى ما نلنا من مشقة في تهيئة مواده، وتنسيق فصوله، وبخاصة لأن هذا البحث لم يكن له من قبل مثال نحتذي به، ولا طريق عبده لنا أحد ممهد سبقنا فنتبعه ونسير عليه. وتقسيم هذا البحث وتبويبه كما قالوا أكبر خطوة في سبيل تألقه فإن يقع عملنا هذا لدى المستنيرين ورجال الفكر المثقفين في مكان الرضا والقبول وهذا ما نرجوه وهو حسبنا وإن كان غير ذلك بمراده عجزنا والله المستعان.

وبعد حمد الله تعالى - وتوفيقه لي على إتمام هذا البحث المتواضع وأنا لندرجو أن نكون بما قدمنا قد وضعنا أمام القراء و البحوث أهم ما أشتمل عليه هذا البحث من توصيات ونتائج وألخص ذلك فيما يلي:

أولاً : أن العلمانية اصطلاح جاهلي لا صلة له بالعلم وإن ما سماه أعداء الإسلام بذلك إمعانا منهم في التضليل والخداع، وإلا فإن عزل الدين عن العقيدة والشريعة وجميع نواحي الحياة يعني في الإسلام الكفر، والمروق من الدين وحكم الجاهلية وتعطيل حدود الله وشرعه.

ثانياً: أن أهم الأسباب التي أدت إلى ظهور العلمانية في أوروبا هو التحريف في أصول الدين، وتصلت رجال الكنيسة دينياً، واقتصادياً ، وسياسياً ولا يخفى ما لليهود من دور بارز في ذلك.

ثالثاً : أن ظروف نشأة العلمانية في أوروبا لا تنطبق على الإسلام والمجتمعات الإسلامية، وذلك لأن بحمده ليس للإسلام تحريف بمصدر عقيدته وليس في كهنوت ولا واسطة بين الخالق وخلقه، وإنه لا عصمة لأحد إلا الرسل عليهم الصلاة والسلام- يبلغونه على الله- تبارك وتعالى.

رابعاً: أنه ليس في الإسلام صارع أو خصام بين الدين والعلم بل أن الإسلام يدعو إلى العلم النافع المثمر ويحث عليه، كما أن الإسلام صالح للتطبيق في كل زمان ومجتمع ومكان.

خامساً: أن أسباب انتقال العلمانية إلى العالم الإسلامي انحراف كثير من المسلمين عن العقيدة الصحيحة المستمدة من الكتاب والسنة وسيرة السلف الصالح ، وسيطرة الاستعمار الغربي والشرقي على كثير من أقطاره عسكرياً، وثقافياً، واقتصادياً، بالإضافة إلى إعجاب كثير من المسلمين بتقدم الغرب الهائل في مضمار العالم المادي.

سادساً: إن إبعاد الدين عن مجالات الحياة في المجتمعات الأوروبية قد حولها إلى الإفلاس والحيرة والضياع ، وحياة الضنك وعدم الطمأنينة وذلك بسبب ابتعادها عن الإيمان بالله تعالى - وشرعه كما أنه كان لتسرب العلمانية إلى المجتمعات الإسلامية أسوأ الآثار على المسلمين في دينهم ودنياهم، وذلك بابتعادهم عن نور الكتاب والسنة.

سابعاً: إن العلمانية تتعارض مع الإسلام تعارضاً تاماً في شتى المجالات، ولا وجه للمقارنة بينهما على الإطلاق، وذلك لأن الإسلام نظام إلا هي شرعه رب الخلق الذي يعلم أحوال عباده وما يصلح معاشهم وما يحقق لهم الخير في دنياهم وآخرتهم، والعلمانية هي من وضع البشر يخضعون إلى الأهواء والشهوات وتتغلى عليهم العواطف البشرية التي تحيد عن الحق والصواب.

هذا وأسأل الله تعالى أن يعز دينه ويعلي كلمته وأن يحق الحق ويبطل الباطل، وأسأل الله عز وجل أن يوفقني إلى طاعته أولاً وأخيراً، وأن يتقبل مني جهدي هذا خالصاً لوجهه الكريم وأن يوفقنا وجميع المسلمين لما يرضيه، ويعافينا من أسباب غضبه، أنه ولي ذلك والقادر عليه صلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه والحمد لله رب العالمين.

قائمة المصادر و المراجع

— القرآن الكريم

- 1— جمعة الخولي ، الاتجاهات الفكرية المعاصرة و موقف الإسلام منها : الطبعة الأولى ، مطابع الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة 1407هـ .
- 2 — على جريشة ، الاتجاهات الفكرية المعاصرة ، ط الأولى ، دار الوفاء ، المنصورة ، 1407 هـ .
- 3 — وليام كار ، أحجار على رقعة شطرنج : دار النفائس ، ط الأولى .
- 4 — سعد الدين السيد صالح ، احذروا الأساليب الحديثة في مواجهة الإسلام : ط الثانية ، دار الأرقم ، الوقازيق ، 1993م — 1413هـ .
- 5 — صابر طعيمة ، أخطار الغزو الفكري على العالم الإسلامي : عالم الكتب ، بيروت ، ط الأولى ، 1404 هـ — 1984 م .

- 6 — على جريشة و زميلة ، أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي ، دار الاعتصام ، القاهرة .
- 7 — إبراهيم خليل ، الاستشراف و التبشير و صلتها بالإمبريالية العالمية : القاهرة .
- 8 — محمد زقزوق ، الاستشراف و الخلفية الفكرية للصراع الحضاري : دار المنار ، ط الثانية ، 1409 هـ — 1989 م .
- 9 — لأبي العباس تقي الدين أحمد عبد الحليم ، الاستقامة لابن تيمية : ط الثانية ، مكتبة ابن تيمية ، 1409 هـ .
- 10 — محمد أمان الجامي ، أضواء على طريق الدعوة إلي الإسلام ، دار البحوث العلمية و الدعوة و الإرشاد ، الرياض ، 1404 هـ .
- 11 — لابن قيم الجوزية ، أعلام الموقعين : دار الجبل ، بيروت ، 1973 م .
- 12 — ابن تيمية ، الأيمان : دار الكتب العلمية ، الطبعة الأولى ، بيروت ، 1403 هـ .
- 13 أ. هـ . فيشر ، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى : ترجمة مصطفى زيادة ، مصر ، 1966 م .
- 14 — حسين بن غنام ، تاريخ نجد : تحقيق ناصر الدين الاسد ، دار الشروق ، ط 4 .

- 15 — مصطفى خالدي وعمر فروج ، التبشير و الاستعمار في البلاد العربية : المكتبة
العصرية ، بيروت .
- 16 — الإمام الحافظ زكي الدين المنذري ، الترغيب و الترهيب ، دار أحياء التراث
العربي ، بيروت ، ط3 ، 1388 م .
- 17 — ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم : دار المكتبة الحديثة ، القاهرة ، ط 1، 1384هـ—
.
- 18 — سالم بهنساوي ، تهافت العلمانية في الصحافة العربية : دار الوفاء ، ط 110 هـ—
— 1990 م .
- 19 — صلاح الصاوي ، تهافت العلمانية في مناظرة نقابة المهندسين بالاسكندرية : دار
الافاق الدولية ، القاهرة .
- 20 — عماد الدين خليل ، تهافت العلمانية : مؤسسة الرسالة ، بيروت ، 1403، 1983 م
.
- 21— أبي جعفر محمد بن جرير الطبري ، جامع البيان عن تأويل القرآن المعروف
بتفسير الطبري :مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، مصر ، ط 3 .
- 22 — الحافظ أبي عيسى محمد الترمذي (279 هـ) الجامع الصحيح : دار احياء التراث
العربي .

- 23 — الجامع الفريد يحتوي كتباً ورسائل لأئمة الدعوة الإسلامية طبع على نفقة محمد بن إبراهيم النعمان ،دار الأصفهاني .
- 24 — السيد أحمد فرج ،جدور العلمانية :دار الوفاء للطباعة والنشر ، المنصورة ط5 ، 1413هـ —1993م .
- 25 — ابن تيمية ،الحسبة في الإسلام:دار العلمية ، بيروت ، ط1 ، 1412هـ —1992م.
- 26 — أحمد عبد الوهاب ، حقيقة التبشير بين الماضي والحاضر:مكتبة وهبة ، القاهرة ، ط1 ، 1401 هـ —1988م.
- 27 — محمد خليفة التونسي ،الخطر اليهودي (بروتوكولات حكماء صهيون): دار الكتاب العربي ، بيروت .
- 28 — محمد الغزالي ، ركائز الأيمان: القاهرة 1974م.
- 29 — الحافظ أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي (ت 275هـ)، سنن أبي داود:إعداد وتعليق الدعاس، دار الحديث للطباعة والنشر ، بيروت ، ط 1،1388هـ.
- 30 — سنن الدارمي:دار الريان للتراث ،القاهرة ، ط 1 ، 1407هـ .
- 31 — أبي أسامة حسن بن علي العواجي ، شرح نواقض الإسلام:ط1 ، أضوء المنار ، المدينة المنورة ، 1413هـ —1993م.

- 32 — شرح النووي علي صحيح مسلم: دار الفكر ، بيروت .
- 33 — محمد بن إسماعيل البخاري (ت 256 هـ) دار المكتبة السلفية .
- 34 — الإمام الحافظ أبي الحسن مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت 261 هـ) ، صحيح مسلم ، تحقيق فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي ، بيروت .
- 35 — محمد عبده وطارق عبد الحكيم ، الصوفية نشأتها وتطورها: دار الأرقم ، الكويت ، ط 1 ، 1406 هـ — 1986 م .
- 36 — عبد الرحمن الزنبدي ، العصرانية في حياتنا الاجتماعية: دار المسلم ، الرياض ، ط 1 ، 1415 هـ — 1949 م .
- 37 — صالح البليهي، عقيدة المسلمين والرد علي الملحدين والمبتدعين ، ط 2 ، 1404 هـ .
- 38 — سفر الحوالي ، العلمانية نشأتها وتطورها وآثارها الإسلامية المعاصرة : دار مكة للطباعة والنشر ، جامعة أم القرى ، 1402 هـ — 1982 م .
- 39 — زكريا فايد ، العلمانية النشأة والأثر في الشرق والغرب: دار الزهراء للأعلام العربي ، ط 1 ، 1408 هـ — 1988 م .

40 — محمد شاكِر الشريف، العلمانية وثمارها الخبيثة : دار الوطن ، الرياض ، ط1 ، 1411هـ .

41 — الغارة علي العالم الإسلامي :ترجمة محمد الخطيب وآخرون ، مكتبة أسامة بن زيد ، بيروت .

42 — محمد البهي ، الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي : دار الفكر، بيروت ، ط6 ، 1973م.

43 — منير البعلبكي ، قاموس المورد : دار العلم للملايين ،بيروت ،1977م.

44 — ديورانت ، قصة الحضارة ، ترجمة محمد بدران مطابع الدجوي ، نشر الإدارة العربية بجامعة الدول العربية ،القاهرة .

45 — الكتاب المقدس : دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط .

46. خالد محمد علي الحاج ، الكاشف الفريد عن معاول الهدم ونقائذ التوحيد ، دولة قطر ، 1403 هـ - 1983 م .

47. عبد الرحمن الميداني ، كواشف الزيوف ، دار القلم ، ط1 ، 1405هـ - 1985 م .

48. محمد محمد بدري ، لماذا يرفض العلمانية ، دار ابن الجوزي ، ط1 ، 1412 هـ
الدمام .

49. الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز ، الرئاسة العامة لإدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد ، الرياض، ط2 ، 1411 هـ 1990 م .
50. محمد ابي زهرة ، محاضرات في النصرانية ، دار الفكر العربي ، ط3 ، 1380 هـ .
51. الامام ابن ابي بكر الرازي ، مختار الصحاح ، مكتبة لبنان .
52. محمد محمود الصواف ، المخططات الاستعمارية لمكافحة الاسلام ، دار الاصلاح ، السعودية ، الدمام .
53. الامام ابن قيم الجوزية ، مدارج السالكين ، 751 هـ دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط1 ، 1403 هـ 1983 م .
54. محمد قطب ، مذاهب فكرية معاصرة ، دار الشروق ، بيروت ، ط2 ، 1407 هـ 1987 م .
55. محمد علي قطب ، مذابح وجرائم التفنيش في الاندلس ، مكتبة القرآن .
56. مسن الامام احمد بن حنبل ، دار صادر ، بيروت .
57. أحمد شلبي ، المسيحية ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة .
58. ولز ، معالم تاريخ الانسانية ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة ، ط1، 1950 هـ .

59. ابراهيم الجبهان ، معاول الهدم والتدمير في النصرانية والتبشير ، دار المجتمع ، جدة ، ط6 ، 1413 هـ - 1993 م .
60. خليل الجسر ، المعجم العربي الحديث ، مكتبة الاروس ، باريس .
61. مجموعة من علماء اللغة العربية ، المعجم الوصيل ، مصر .
62. نضمه مجموعة من المستشرقين نشره داي وينسك استاذ العربية بجامعة ليدن ، المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي ، 1936 .
63. محمد فؤاد عبد الباقي ، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة .
64. محمد صلاح الصاوي ، المواجهة بين الاسلام والعلمانية، ط1 ، الآفاق الدولية للإعلام ، 1413 هـ .
65. محمد كاظم حبيب ، مؤامرة فصل الدين عن الدولة ، دار الإيمان ، لبنان ، ط1 ، 1394 هـ ، 1974 م .
66. ناصر القفاري وزميله ، الموجز في الأديان والمذاهب المعاصرة ، ط1 ، دار الصميعي للنشر ، الرياض ، 1413 هـ - 1992 م .

67. الموسوعة العربية الميسرة ، دار نهضة لبنان للطباعة والنشر ، 1401 هـ - 1981

م ، بيروت .

68. الموسوعة المسيرة في الأديان والمذاهب المعاصرة ، الندوة العالمية للشباب

الاسلامي ، ط2 ، 1409 هـ - 1989 م ، الرياض .

69. أحمد العويشة ، موقف الاسلام من نظرية ماركس ، دار مكة للطباعة ، ط1 ،

1402 هـ - 1982 م .

70. تحقيق الطاهر الزواوي ، ومحمود الطناحي ، النهاية في غريب الحديث والأثر ،

المكتبة الإسلامية لصاحبها الحاج رياض الشيخ ، القاهرة 1383 هـ - 1963 م .

71. محمد ابن عبد الوهاب ، نواقذ الاسلام رسالة للشيخ محمد ابن عبد الوهاب عدها

وصححها مجموعة من العلماء ، طبعت في جامعة الامام محمد بن سعود .

72. جمال الدين الأفغاني ، المفردات في غريب القرآن ، تحقيق سيد كيلاني ، دار

المعارف بيروت .

73. أحمد أمين ، ضحى الإسلام ، ج3 ، ط10 ، دار الكتاب اللبناني بيروت .

74. عبد المالك أنور ، الفكر العربي في معركة النهضة ، الترجمة العربية ، دار الأدب

بيروت ط3 ، 1981م .

75. عبد العزيز الأهواني ، السلفية الجديدة ، مجلة الثقافة العدد العاشر 1963/9/24

القاهرة .

76. تشارلز أداماز ، الإسلام والتجديد في مصر ، نقله إلى العربية عباس محمود ، لجنة

ترجمة دار المعارف الإسلامية ، القاهرة 1353 هـ - 1935 م .

77. جب هاميلتون ، الاتجاهات الحديثة في الإسلام ، ترجمة هاشم الحسيني ، مكتبة

الحياة بيروت ، 1966 م .

78. رشيد رضا محمد ، تاريخ الأستاذ الإمام محمد عبده ، ط1 ، دار المنار مصر ،

1350 هـ تفسير المنار ، مطبعة المنار ، ط1 ، 1346 هـ .

79. عبد المتعال الصعيدي ، المجددون في الإسلام من القرن الأول إلى القرن الرابع

عشر ، المطبعة النموذجية ، القاهرة د . ت .

80. محمد خليل هارس ، ابن تيمية السلفي ، ط1 ، المطبعة السلفية بطنطا ، 1372 هـ

- 1952 م .

81. محمد عبده ، الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية ، ط7 ، دار المنار مصر ،

1367 هـ .

